السلسلة الزروقية (٧)

اللوائح الفاسية في شرح المباحث الأصلية على جملة الطريقة الصوفية

للإمام العلامة

أبي العباس أحمد زروق الفاسي

تحقيق

د. محمد عبد القادر نصار

أ. عبد الله جمال حمد نا الله

دار الإحسان

اللوائح الفاسية

في

شرح المباحث الأصلية

دار الإحسان
للنشر والتوزيع

Copyright
All rights reserved ©

تليفون: ٠٢٢٢٢٥٦٤٣٠٨ /٠٢ - موبايل: ٠١١٢١٠٧٧١٧٤٠
Email: darelehsan@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه أو تسجيله بأية وسيلة أو تصويره دون موافقة كتابية من الناشر.

Exclusive rights, No part of this publication reproduced, distributed in any form or by any means or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher

الكتاب: اللوائح الفاسية في شرح المباحث الأصلية

تأليف: الإمام العلامة أبي العباس أحمد زروق الفاسي

الناشر: دار الإحسان

سنة الطباعة: ٢٠١٥

بلد الطباعة: القاهرة، مصر

الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: ٢٥٧٢٢/ ٢٠١٤

الترقيم الدولي: 978-977-85166-5-4

السلسلة الزروقية (٧)

اللوائح الفاسية في شرح المباحث الأصلية على جملة الطريقة الصوفية

تأليف العارف بالله

أبي العباس أحمد زروق الفاسي

تحقيق

د. محمد عبد القادر نصار

أ. عبد الله جمال حمدنا الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المفيض على قلوب أوليائه غيث المعارف، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على المربي الأكمل والمعلم المكمل، سيدنا محمد ﷺ القائل في حديثه: « إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ»، وعلى آله وصحبه القائمين بحمل أمانة الهداية والتبليغ إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها ، وعلى التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،

فإن منظومة «المباحث الأصلية عن جملة الطريقة الصوفية»، للشيخ، الفقيه الصوفي، أبي العباس أحمد بن محمد بن يوسف التجيبي، المشهور بـ «**ابن البنا السَّرَقُسْطِيِّ**» من أشهر المتون العلمية في علم السلوك ، ويعتبر شرح العلامة الشيخ أحمد زروق الفاسي(ت٨٩٩هـ) «**اللوائح الفاسية في شرح المباحث الأصلية**» من أقدم شروحها، وقد أفاد منه الشيخ ابن عجيبة الحسني (ت١٢٢٤هـ) في شرحه المسمى «**الفتوحات الإلهية بشرح المباحث الأصلية**» إفادة عظيمة.

وقد أخذت دار الإحسان على عاتقها عبء إخراج هذا الكتاب إلى القراء، في حلة قشيبة ، راجين المولى عز وجل أن ينفع به كما نفع بأصله. اللهم آمين.

متن المباحث الأصلية:

منظومة «المباحث الأصلية عن جملة الطريقة الصوفية» للشيخ، الفقيه الصوفي، أبي العباس أحمد بن محمد بن يوسف التجيبي، المشهور بـ «**ابن البنا السَّرَقُسْطِيِّ**»، هي

قصيدة من بحر «الرجز» تقع في حوالي إحدى وخمسين وأربعمائة بيت على اختلاف في بعض نسخها بالزيادة أو النقص،وهي تشتمل على مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، كما نبه على ذلك مؤلفها في مقدمته :

الفصل الأول: في أصل علم التصوف.

الفصل الثاني:في فضل علم التصوف.

الفصل الثالث: في أحكام علم التصوف وما يدور عليه مذهب السادة الصوفية وهي تسعة أحكام :

الأول : في حكم الشيخ والمشيخة ومعنى التربية،**الثاني**:في حكم اجتماع القوم،**الثالث**:في حكم اللباس، **الرابع**: في حكم الأكل، **الخامس**: فيما يلزمهم من الآداب عند اجتماعهم،**السادس**: في حكم السماع، **السابع**: في حكم السفر والقدوم على المشايخ والإخوان،**التاسع**: في حكم المريد ومعنى الإرادة،وفائدة الشيخ وتدريجه للمريد إلى أن يصير شيخًا.

الفصل الرابع:في الردِّ على من رده وليس يدري شأنه وقصده ، أي في الرد على من اعترض على علم التصوف وحال أهله.

الفصل الخامس:في فقراء العصر ومتشبهة الوقت، أي في ذم المخلطين من المتصوفة من أهل عصره.

وقد ختمها بالتنبيه على ما احتوت عليه من العلوم،والدعاء والصلاة على النبي ﷺ.

ومما يدلك على عظيم فضلها مانقله ابن عسكر في «دوحة الناشر»: «أن الشيخ الهبطي أخبره أن الشيخ القطب أبو عبد الله محمد الجزولي كان يربي أصحابه بقصيدة الشيخ أبي الحجاج الضرير في أصول الدين[1]، وكان الشيخ أبو فارس عبد العزيز التباع يربي أصحابه بالمباحث الأصلية للشيخ العارف ابن البنا السرقسطي، وكان سيدي أبو محمد الغزواني يربي أصحابه بقصيدة الشيخ الشريشي» وقد علق الشيخ ابن عجيبة على ذلك بقوله: ولكن المباحث لأهل القلوب أفيد! والله تعالى أعلم.

شروح المباحث الأصلية:

١ - شرح الشيخ أحمد زروق الفاسي المتوفى سنة (٨٩٩هـ) المسمى **«اللوائح الفاسية في شرح المباحث الأصلية»**، وهو كتابنا هذا. ويعتبر أقدم شروحها في ما لدينا من مصادر.

٢ - شرح الشيخ محمد بن علي الشطيبي المتوفى سنة (٩٦٣هـ) صاحب كتاب **«عيون الناظرين في شرح منازل السائرين»**، وسماه **«الإشارات السنية في بعض معاني المباحث الأصلية عن جملة الطريقة الصوفية»**، مخطوط يوجد منه نسخة بالمكتبة الوطنية المغربية تحت رقم (ج-١٠٦٨).

٣-شرح الشيخ أبو البقاء، عبد الوارث اليالصوتي أو اليصلوتي العثماني (نسبة الى سيدنا عثمان بن عفان ﷺ) المتوفى سنة (٩٧١هـ)، ذكره ابن عسكر في **«دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر»**.

---

(١) وهي الشهيرة بـ«الحجاجية»، أو «رسالة التنبيه والإرشاد»، والشيخ زروق ينقل عنها في كتبه الكلامية كثيرا.

٤-شرح الشيخ أحمد بن أبي القاسم التادلي الصومعي المتوفى سنة (١٠١٣هـ) وسماه «**سراج الباحث في حل بعض معضلات المباحث**» ويقع في ثلاثة أجزاء ، ثم اختصره، ثم اختصر هذا المختصر، يوجد مختصره بالمكتبة الوطنية المغربية تحت رقم (د-٢٧٠٥) .

٥- شرح الشيخ محمد بن علي الوزرولي، المعروف بالنيجي المتوفى سنة (١٠٣٠هـ) وهو من تلاميذ الشيخ عبد الوارث اليالصوتي، ذكره الفاسي في «**مرآة المحاسن**».

٦-شرح الشيخ الخطيب عبد الواحد بن محمد بن عبد القادر الفاسي المتوفى سنة (١٢١٤هـ)، يوجد منه نسخة بالمكتبة الوطنية المغربية تحت رقم (٢٦٠).

٧-شرح الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني المتوفي سنة(١٢٢٤هـ)، المسمى«**الفتوحات الإلهية بشرح المباحث الأصلية**» وهو زبدة هذه الشروح طبع مرات عديدة آخرها طبعة دار الخير بدمشق ت د.علي أبو الخير،٢٠٠٥م.

وصف نسخ الكتاب:

اعتمدنا في تحقيق هذا الكتاب على نسختين:

١ - نسخة دار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم (م٠٤٨١٤)، مكتوبة بخط مغربي واضح، بها مواضع سقط، وعدد أوراقها (٨٠ لوحة)، ومسطرتها (٢٧ سطرا)، ومكتوب عليها شرح منظومة ابن البنا في آداب القوم،وتاريخ الفراغ من نسخها أوائل شهر شوال من سنة ١١٤٩هـ. وقد رمزنا لها بالرمز (أ).

٢-نسخة دار الكتب المصرية تحت رقم (٤١٥٨ تصوف)، مكتوبة بخط مغربي غير واضح، لكنها تتدارك النص الذي أخلت به النسخة (أ)، وهناك مواضع سقط مشتركة في النسختين، مما يدل على أنهما نسختا عن أصل واحد، وعدد أوراقها (٩٥ لوحة)، ومسطرتها (٢٤سطرا)،وتاريخ الفراغ من نسخها ٢٥من شهر صفر لسنة ١١٨٢هـ، وقد رمزنا لها بالنسخة (ب).

نسخة المتن:

اعتمدنا في تحقيق نسخة المتن على نسخة بالمكتبة الأزهرية ضمن مجموع، وتقع المنظومة في (١٣ لوحة) وهي نسخة مشكولة ، مكتوبة بخط مغربي جميل.

شرح الشيخ زروق على المباحث:

يعتبرشرح الشيخ أحمد زروق على المباحث الأصلية من أهم المصادر التي اعتمد عليها ابن عجيبة في شرحه على المباحث ، فقد أفاد منه إفادة عظيمة ،ومن ينظر في شرح ابن عجيبة على المباحث يجده مليئا بالنقول عن الشيخ زروق في شرحه على المباحث .

وشرح الشيخ زروق شرح وسط ، يعلق فيه على بعض أبيات المتن دون توسع في الشرح مع الإلتزام بالمقصود إلا في أضيق الحدود.

وعن نسبة الكتا ب لمؤلفه فقد ذكره ابن غلبون الطرابلسي صاحب كتاب «**التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار**» ،وذكره الشيخ محمد بن علي الخروبي أحد تلامذة الشيخ زروق في كتابه «**الأنس في شرح عيوب النفس**».

وعن مصادر الشيخ زروق في كتابه فهو ينقل عن مؤلفات الشيخ ابن عطاء الله السكندري كالحكم ، والتنوير ، واللطائف، وعن الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي في الفتوحات المكية ورسالة القدس، وعن الإمام أبي حامد الغزالي في الإحياء ومنهاج العابدين، وعن شيخه الإمام أبو طالب المكي في قوت القلوب وغيرهم الكثير.

وأما عن تاريخ تأليف هذا الشرح فقد وقفنا على نص في شرح المباحث يبين أن الشيخ زروق ألف هذا الكتاب إما بفاس أوبمصراتة بعد منصرفه من القاهرة سنة ٨٧٧هـ، وهذا النص هو وصية الشيخ أبي العباس الحضرمي فقد ذكر الشيخ زروق في كتابنا هذا ما نصه :«فقد كتب لنا الشيخ أبو العباس الحضرمي في وصيته التي زودنا بها ما نصه:

عش خامل الذكر بين الناس وارض به فذاك أسلم للدنيا وللدين
من عاشر الناس لم تسلم ديانته ولم يزل بين تحريك وتسكين

وذكر هذين البيتين أيضا في كتابه «مناقب الحضرمي»[1]، وهو من أواخر مؤلفاته.

ترجمة ابن البنا السرقسطي:

لا تسعفنا المصادر التي بين يدينا بترجمة للشيخ أبي العباس ابن البنا السرقسطي إلا ما ذكره الشيخ أحمد زروق في مقدمة شرحه حيث قال «هو الشيخ الفقيه الصالح الناصح أبو العباس أحمد بن البنا السَّرَقُسْطِيّ، لم يكن مشهورًا بالعلم مع ما له فيه من القدم الراسخ الذي دلَّ عليه كلامه بعد في عجائب مدينة فاس إذ كان من عامتها

(١) «مناقب الحضرمي»للشيخ أحمد زروق، طبع بتحقيق د محمد عبدالقادر نصار، دارة الكرز، ٢٠٠٨.

وأَلَفَّ كابن أبي زرعة صاحب التاريخ وغيره وكذا ذكر بعض عدول بلدنا عن صاحب له عدل وأنه ألف في التاريخ وذكره بما قلناه، ولم نقف على تاريخ وفاته ولا زمانه غير أن الظن الغالب أنه قريب العهد رحمة الله عليه ورضوانه لديه». وسَرقسطة بفتح أوله وثانيه ثم قاف مضمومة وسين مهملة ساكنة وطاء مهملة بلدة مشهورة بالأندلس، وأصله منها لكنه ولد بفاس وتوفي بها.

قال ابن عجيبة في شرحه على المباحث:«كم من عارف كبير بقي تحت أستار الخمول، حتى لقي الله تعالى، بل كلما عظم قدر العارف عند الله، خفي أمره على الناس،لأن الكنوز لا تكون إلا مدفونة،فإن ظهرت نهبت وتشتت أمرها وذهب سرها، وابن البنا هذا غير صاحب الحساب، فإنه ابن البنا الصوفي، توفي بمراكش سنة إحدى وعشرين من القرن الثامن،كما ذكره صاحب (الجذوة)».

والغالب كما يفهم من كلام الشيخ زروق في مقدمة شرحه أنه كان من علماء القرن التاسع الهجري رحمة الله ورضوانه عليه.

فصول في ترجمة الشيخ زروق(١):

ليس من فائدة كبيرة في تكرار جهود السابقين في ترجمة مثل العلامة زروق، خاصة وقد ألف الدكتور علي فهمي خشيم كتابًا جامعًا عنه، كما كتب عنه باستفاضة الدكتور إدريس عزوزي في تحقيقه لكتاب «عدة المريد الصادق».

(١) أفدنا في هذه الترجمة من المقال الذي كتبه الأستاذ نبيل معين عساف ونشره على موقع دار الإيمان، وقد زدنا بعض الفوائد والمعلومات واختصرنا بعض ما ذكره في المقال.

وقد ترجم رضي الله لنفسه في كُنَّاشِهِ فقال:

ولدت يوم الخميس عند طلوع الشمس ٢٨ من شهر محرم ٨٤٦ هجريًا و توفيت أمي يوم السبت بعده و أبي يوم الثلاثاء بعده، كلاهما في سابعي، فبقيت بعون الله بين جدتي الفقيهة أم البنين فكفلتني نفعنا الله بها و الفقيرة إلى رحمة الله، فكفلتني أم البنين حتى بلغت العشر فقرأت القرآن، فأدخلتني الصنعة، فتعلمت صناعة الخرز.

ثم نقلني الله تعالى بعد بلوغي السادس عشر إلى القراءة فقرأت الرسالة على الشيخ علي السطي و الشيخ عبد الله الفخار قراءة بحث و تحقيق، ثم قرأت القرآن على جماعة منهم القوري والزرهوني و كان رجلًا صالحًا، و المجاصي و الأستاذ الصغير كل ذلك بقراءة نافع، ثم اشتغلت بالتصوف و التوحيد، فأخذت «الرسالة القدسية» و «عقائد الطوسي» و«عقائد السنوسي» على الشيخ عبد الرحمن المجدولي وهو من تلاميذ الأُبِّي، و أخذتُ بعض «التنوير»[(١)] على أبي عبد الله القوري وسمعت عليه «البخاري» كثيرا و تفقهت عليه في كل من «أحكام عبد الحق الصغرى» و «جامع الترمذي»، وأخذت ذلك تفقهًا. وصَحِبْتُ من السالكين جماعة لا تحصى بين فقيه و فقير. ولفظ «زروق» إنما جاءني من جهة الجد، كان أزرق العينين و اكتسبه من أمه. أهـ

أما عن تسميته بالبُرْنُسِي فلأن أصله من قبيلة البرانس البربرية التي تعيش في منطقة جبل البرانس ما بين فاس وتازة، وكان مولده في قرية تليوان بتلك المنطقة، وكان والده من أهل الولاية والصلاح، حيث شيد على مدفنه في القرية بناية أنيقة تشتمل على

(١) «التنوير في إسقاط التدبير» لابن عطاء الله السكندري الشاذلي، توفي سنة ٧٠٩، ودفن بسفح المقطم بالقاهرة.

مسجد جامع ومكان لسكن الإمام وتعرف بزاوية سيد أحمد زروق ولها أوقاف، ويحظى ضريح والده بتعظيم واحترام أهل القبيلة.

انتظم وهو ابن ستة عشر في سلك طلبة جامع القرويين والمدرسة العنانية معًا، وصار يتردد عليهما لدراسة أمهات كتب المذهب المالكي والحديث والأصول وقواعد العربية، كما درس بعضًا من كتب التصوف، وتتلمذ على أشهر علماء فاس وفقهائها آنذاك، وعددهم يزيد على ثلاثين فقيهًا و محدِثًا وفقيرًا، كما درس أمهات الكتب، ومنها كتاب التنوير لابن عطاء الله السكندري، وبدأ صلته بمشايخ الطريقة الشاذلية وهو في العشرينات من عمره، فلزم مريدًا للشيخ محمد الزيتوني بزاوية الشاذلية في فاس، وكتب تعليقه الأول على حكم ابن عطاء الله وهو في الرابعة والعشرين من عمره (عام ٨٧٠ هـ) وفي هذه السنة انطلق أحمد في سياحة أربعين يومًا كاملة بأمر شيخه، زار خلالها ضريح الشيخ شعيب أبو مدين بن الحسين (المتوفى عام ٥٩٦ هـ/ ١١٩٨ م) في تلمسان، وعاد إلى فاس بعد مخاطر عديدة قابلته في رحلته، وعناءً شديدًا تكبده، ومكث في فاس بعدها ثلاث سنين مشتغلًا بالدرس والتأليف.

واتصل بشيوخ من البلاد المغاربية، كالشيخ الإمام عبد الرحمن الثعالبي والشيخ إبراهيم التازي والمشدالي و الشيخ حلولو و السراج الصغير و أحمد بن سعيد بن الحباك و ابن الرصّاع و الحافظ التنسي و الإمام السنوسي صاحب العقيدة وابن زكريا و أبو مهدي عيسى المواسي.

وفي عام ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م. عزم زروق على أداء فريضة الحج، واستشار شيخه أحمد بن الحسن الغماري فأشار عليه بأن يفعل وأذن له، فتحرك إلى القاهرة ومكث فيها

فترة قصيرة، ثم غادرها إلى مكة والمدينة، وبعد أداء مناسك الحج لبث في المدينة مجاوراً مدة عام، حيث التقى ببعض مشايخ التصوف، ثم عاد من الحج إلى القاهرة واستقر فيها عام ٨٧٦ هـ/ ١٤٧١ م، اتصل فيه بشيوخ التصوف وطرقه، وحضر الدروس في الأزهر، وكان من أهم من اتصل بهم من العلماء والمشايخ: محمد السخاوي، وأحمد بن حجر، وأبو إسحق التنوخي، ونور الدين السنهوري، و الولي شهاب الدين الأفشيطي و القطب أحمد بن عقبة الحضرمي و الذي أصبح مريدًا في زاويته، وقرأ خلال تلك السنة من أمهات الكتاب في الفقه والحديث والتصوف، وبذلك اجتمع له في المغرب والمشرق شيوخ من الفقهاء والفقراء، وهو أمر أثر في مستقبل حياته وأفكاره، حيث رأى أن الفقه والتصوف موضوعان مترابطان، ومن هنا أطلق عليه لقب «الجامع بين الشريعة والحقيقة».

وقد كان للشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي القادري اليمني والذي استوطن مصر تأثير كبير على الشيخ أحمد زروق، كما شهد من كراماته، وصحبه يستهدي بنصحه ثمانية شهور سلّكه خلالها في طريقته القادرية وصار أحد مريديه المخلصين، ثم قفل عائدًا إلى بلده عام ٨٧٧ هـ/ ١٤٧٣ م. وظلّ يتبادل الرسائل مع شيخه في طريق عودته إلى طرابلس الغرب فتونس و بجاية (الجزائر) و فاس التي وصلها عام ٨٧٩ هـ وخرج فقهاؤها لاستقباله على أطرافها، وعاش ﷺ في فاس أربع سنوات كان خلالها دائم الهجوم على الفقهاء الجاهلين، والقراء المداهنين، والصوفية المنافقين في كثير من مؤلفاته ورسائله، وقد قوبل بصعوبة وسوء فهم، إلا أنه رغم كل الصعوبات استطاع أن يجمع بعض الأتباع الذي شكلوا فيما بعد نواة الطريقة الزروقية في المغرب، وقرر أن يهجر

موطنه الأول الذي تنكر له إلى مستقر جديد، فقصد بجاية عام ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩م. حيث كان له رفاق وأتباع، ثم غادرها في أواخر سنة ٨٨٤ هـ إلى القاهرة للاجتماع بشيخه الحضرمي، وقضى في القاهرة بقية العام و العام الذي يليه، و جدد علاقته مع العلماء، و صار شيخًا عَلَمًا له مكانته و يتحلق من حوله طلبة العلم و الأتباع، في السنة التالية (٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م) قرر الشيخ السفر إلى مصراتة بليبيا.

ومصراتة ثالث كبريات مدن ليبيا بعد طرابلس غرباً و بنغازي شرقاً، وهي مدينة كان سكانها عند الفتح الإسلامي بربرًا خُلَّصًا، و قد أقام الشيخ قبل استقراره بمصراتة في طرابلس لفترة من الزمان و عرف مشاهير رجالها، ويعدّ بعضهم ضمن شيوخ زروق كأحمد بن عبد الرحمن اليزليتني[1] المعروف بحلولو، وعلي الخروبي الطرابلسي وكان صديقًا حميمًا للشيخ زروق وصار ابنه محمد أحد أتباع الشيخ المخلصين.

وقد كان من أقران الشيخ ولي مسلاتة الشيخ عبد الواحد الدكالي وهو شيخ ولي «زليتن» الشهير سيدي عبد السلام الأسمر، فكان يأتي إليه سيدي زروق من مصراتة إلى مسلاتة على فرس حمراء وبيده رمح كما ذكر ذلك الشيخ عبد السلام الأسمر، وقد أصاب الشيخ زروق في مصراتة المكانة الرفيعة والتوقير العظيم من أهلها بسبب مكانته العلمية وشهرته الصوفية، وأصبح واحدًا من أهلها، وتجمع الطلبةُ والمريدون من حوله، وصارت له الصدارة في مجالسهم، وغدا ينشر علمه بين الناس في المسجد الذي كان يؤدي فيه صلاته قرب منزله، وتزوج أمة الجليل بنت أحمد بن زكريا المصراتي وحملت له

---

(١) نسبة إلى مدينة «يزليتن» الليبية، والأشهر على ألسنة الناس «زليتن» أو «زليطن».

ولدين وبنتًا، فضلًا عن زوجته الفاسية فاطمة الزلاعية التي لحقت به من المغرب.

ولم يغادر مصراتة بعد استقراره بها سوى مرتين، الأولى سنة ٨٩٢ هـ إلى الجزائر ليرعى بعض شؤونه هناك ويحضر أسرته، والثانية سنة ٨٩٤ هـ (١٤٨٩)م حيث أدى فريضة الحج للمرة الثالثة الأخيرة، وقضى بعدها السنوات الأربع الباقية من حياته القصيرة الحافلة، أخذ عنه جماعة منهم الشمس اللقاني والشيخ محمد بن عبد الله الحطاب والشيخ زين الدين طاهر القسطنطيني نزيل مكة في جماعة.

وفي اليوم الثاني عشر من شهر صفر سنة ٨٩٩ هـ (١٤٩٣ م) وهي آخر سنة في سِني القرن التاسع الهجري توفي سيدي أحمد زروق في خلوته عن أربعة وخمسين عامًا، وكان كل ما تركه من إرث بعده، نصف فرس يشاركه فيها رجل مصراتي ، وبرنوسًا أبيض وجبة وثوبًا من الصوف، ومسبحة أهداها إليها الحضرمي، وأربعة عشر مجلدًا من المؤلفات في فنون مختلفة.

وقد أحببت هنا أن أضع بين يدي القارئ ترجمته في الضوء اللامع كما ساقها عصريه ومجيزه شمس الدين السخاوي، فقال:

أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى الشهاب البرنسي المغربي الفاسي المالكي ويعرف بزروق - بفتح المعجمة ثم مهملة مشددة بعدها واو ثم قاف.

ولد في يوم الخميس ثامن عشر المحرم سنة ست وأربعين وثمانمائة، ومات أبواه قبل تمام أسبوعه فنشأ يتيمًا، وحفظ القرآن وكتبًا، وأخذ عن محمد بن القاسم أحمد القوري.

وارتحل إلى الديار المصرية فحج وجاور بالمدينة وأقام بالقاهرة نحو سنة مديمًا للاشتغال عند الجوجري وغيره في العربية والأصول وغيرهما وقرأ عليّ بلوغ المرام وبحث علي في الاصطلاح بقراءته ولازمني في أشياء وأفادني جماعة من أهل بلاده.

والغالب عليه التصوف والميل فيما يقال إلى ابن عربي ونحوِه، وقد تجرَّدَ وساح. وورَدَ القاهرة أيضًا بعيد الثمانين ثم تكرر دخوله إليها ولقيني بمكة في سنة أربع وتسعين وصار له أتباع ومحبون وكتب على حكم ابن عطاء الله وعلى القرطبية في الفقه وعمل فصول السلمي أرجوزة. أهـ

وقد أفاد الشيخ زروق الحافظ السخاوي بعض التراجم، كما ذكر أعلاه، ضمنها كتابه الضوء اللامع ومنها ترجمة العلامة القوري المذكور، إذ قال فيه السخاوي:

محمد بن القاسم بن أحمد أبو عبد الله اللخمي المكناسي المغربي ويعرف بالقوري نسبة للقور مفتي المغرب الأقصى، كان متقدمًا في حفظ المتون وفقيهها وعلَّق على مختصر الشيخ خليل شيئًا لم ينتشر وانتفع به الطلبة وممن أخذ عنه الفاضل أحمد بن أحمد زروق وقال لي أنه مات في أواخر ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين وأنه سئل عن ابن عربي فقال الناس فيه مختلفون ما بين مكفر ومقطب فالأولى الوقف.

عملنا في هذا الكتاب:

١-صف الكتاب على الحاسوب وترقيمه.

٢-كتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني.

٣- تخريج الأحاديث النبوية الشريفة.

٤-ترجمة الاعلام والمصادر حسب الطاقة.

٥- تخريج الأقوال حسب الطاقة والوسع.

٦- قمنا بوضع المتن منفصلا في أول الكتاب ، وقمنا بضبطه لغويا وعروضيا، ولايفوتنا في هذا المقام التوجه بالشكر إلى الشيخ العلامة اللغوي علي صالح علي الحنفي الأزهري ، حيث قمنا بمراجعة المتن عروضيًا على فضيلته، جزاه الله عنا وعن المسلمين خيرًا.

وفي الختام نرجو الله تعالى أن ينفع به كما نفع بأصله، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وله الحمد أولا وآخرا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(المحققان)

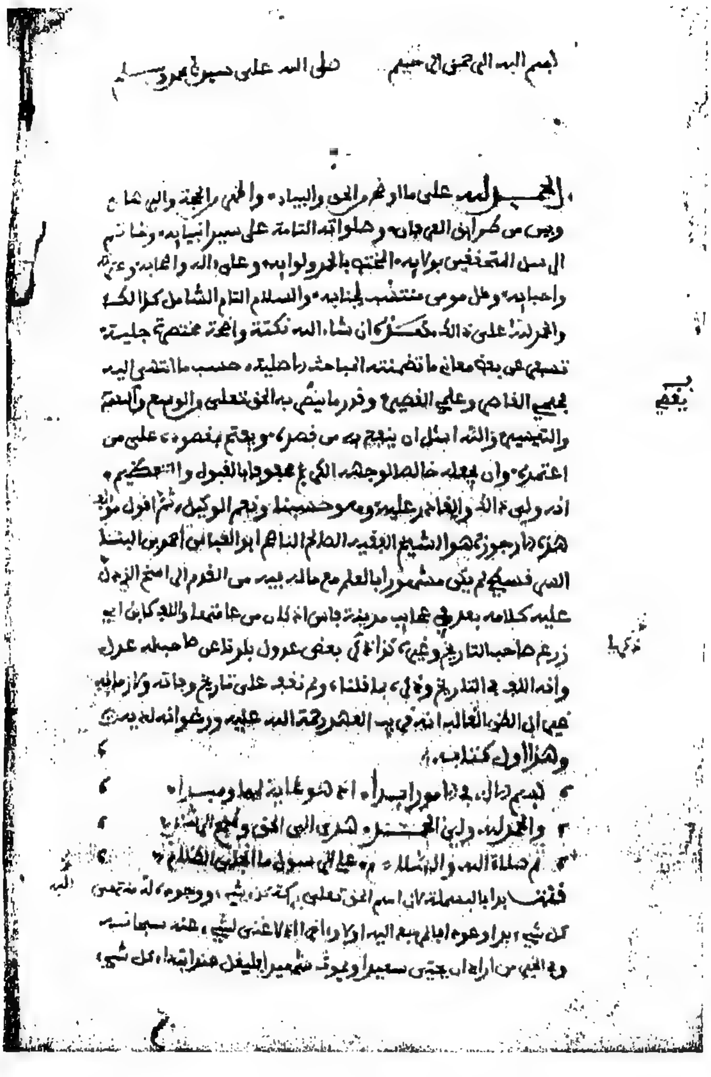

(الصفحة الأولى من النسخة (أ) نسخة دار الكتب الوطنية بتونس)

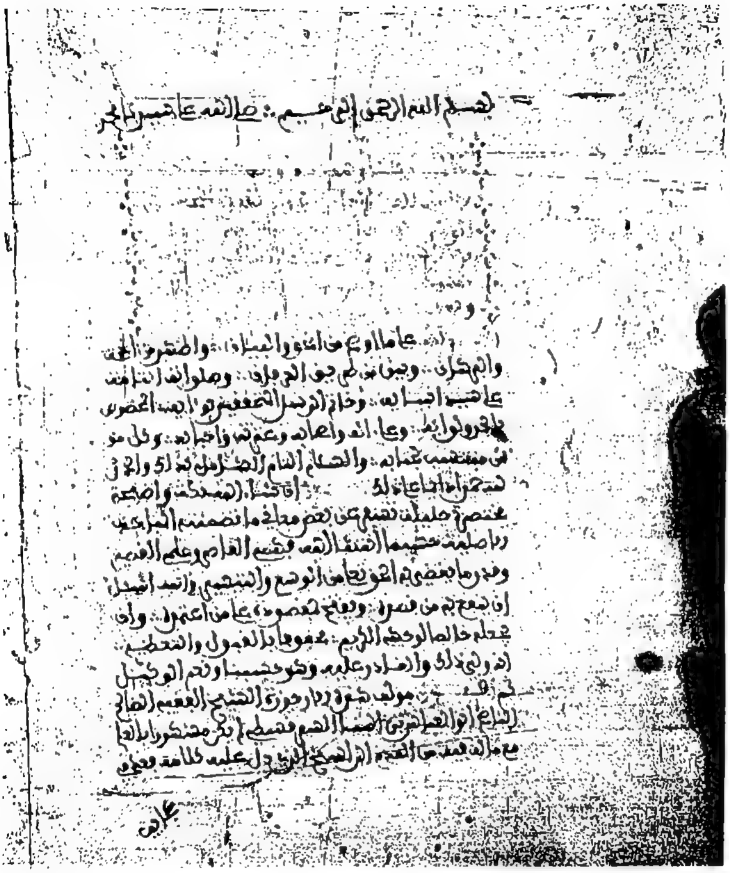
بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد

(الصفحة الأولى من النسخة (ب) نسخة دار الكتب المصرية)

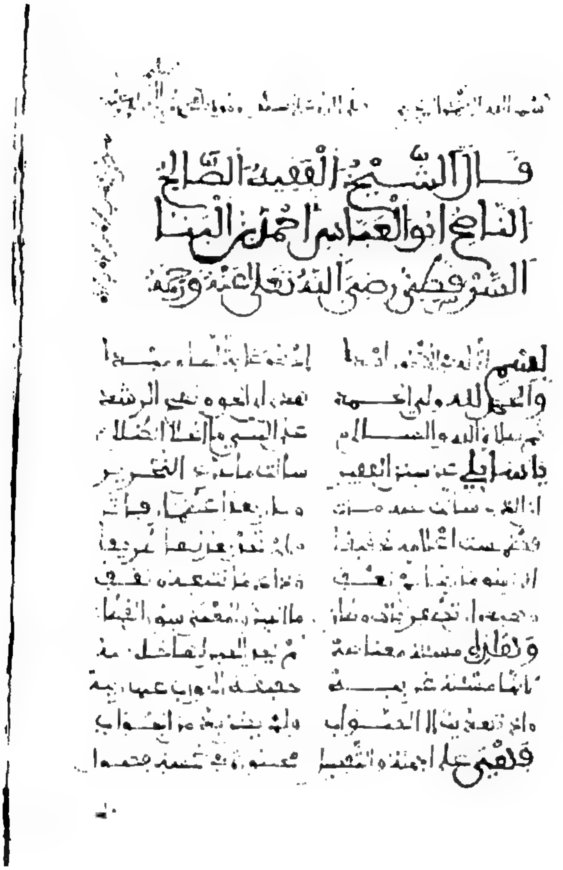

قال الشيخ الفقيه الصالح
الناسك أبو العباس أحمد بن البناء
السرقسطي رضي الله تعالى عنه ورحمه

(الصفحة الأولى من متن المباحث الأصلية نسخة المكتبة الأزهرية)

متن المباحث الأصلية

للشيخ الفقيه الصالح

أبي العباس أحمد بن محمد بن يوسف التجيبي المعروف بـ

ابن البنا السَّرَقُسْطِيِّ

من علماء القرن التاسع الهجري

مقدمة

(١) بِسْمِ الإِلَهِ فِي الأُمُورِ أَبْدَأُ إِذْ هُوَ غَايَةٌ لَهَا وَمَبْدَأُ
(٢) وَالحَمْدُ للهِ وَلِي الحَمْدِ هَدَى إِلَى الحَقِّ وَنَهْجِ الرُّشْدِ
(٣) ثُمَّ صَلاةُ اللهِ وَالسَّلامُ عَلَى الرَّسُولِ[1] ما انْجَلَى الظَّلامُ
(٤) يا سَائِلِي[2] عَنْ سَنَنِ الفَقِيرِ سَأَلْتَ مَا عَزَّ عَنِ التَّحْرِيرِ
(٥) إِنَّ الَّذِي سَأَلْتَ عَنْهُ مَاتَا وصارَ بَعْدُ أَعْظُمًا رُفَاتَا
(٦) فَطُمِسَتْ أَعْلامُهُ تَحْقِيقَا فَلَمْ تَجِدْ بَعْدُ لها طَرِيقَا
(٧) إِلَّا رُسُومًا رُبَّمَا لم تعفُ وَذَاكَ مَا نَتْبَعُهُ ونقْفُ
(٨) وَهَبْكَ أَنْ تَظْفَرَ بِالأَوطَانِ ما السِرُّ والمَعْنَى سِوَى القُطَّانِ[3]
(٩) وهَذِهِ مَسْأَلَةٌ مُعْتَاصَةْ لَمْ يَجِدْ الحِبْرُ لها خُلاصَةْ
(١٠) لِأَنَّهَا مَسْأَلَةٌ غَرِيبَةْ حَقِيقَةُ الجَوابِ عنْهَا رِيبَةْ
(١١) وإِذْ تَهَدَّيتَ إِلى الصَّوَابِ ولَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ الجَوابِ
(١٢) فَهُوَ عَلَى الجُمْلَةِ والتَّفْصِيلِ مُنْحَصِرٌ فِي خَمْسَةِ فُصُولِ
(١٣) أَوَّلُهَا فِي أَصْلِهِ والثَّانِي فِي فَضْلِهِ عَلَى مَدَى الأَزْمَانِ

---

(١) وردت في أصل المتن بلفظ «النبي».

(٢) في بعض النسخ «يا سائلاً»

(٣) في بعض النسخ زيادة بيت لم يتعرض له الشارح هنا وذكره الشيخ ابن عجيبة في شرحه على المباحث وهو قوله:

وقَلَّ أنْ تلقى لها مساعدا بل منكرًا أو ناقدًا أو جاحدا

(١٤) وَثَالِثُ الفُصُولِ في أَحْكَامِهِ ... وَحِينَ يَسْتَوي عَلَى أَقْدَامِهِ
(١٥) وَالرَّابِعُ الرَّدُّ عَلَى مَنْ رَدَّهْ ... وَلَيسَ يَدْري شَأْنَه وَقَصْدَهْ
(١٦) وَخَامِسٌ يُعْلَمُ كَيفَ صُيِّرَا ... حَتَّى غَدَا بَيْنَ الأَنَامِ مُنْكَرَا
(١٧) وَبَعْدَ مَا فَصَّلْتُهُ فُصُولا ... وَعَادَبَتُّ حَبْلِهَا مَوصُولا
(١٨) سَمَّيْتُهَا المَبَاحِثَ الأَصْلِيَةْ ... عَنْ جُمْلَةِ الطَّرِيقَةِ الصُّوفِيَةْ
(١٩) فَحَيِّ يَا رَبِّ امْرَأً حَيَّاهَا ... وَزَكِّهِ يوماً مَتَى زَكَّاهَا

الفَصْلُ الأَوَّلُ

في أصله

(٢٠) إِعْلَـمْ بِـأَنَّ هَـذِه الطَّرِيقَـةْ ... بَحْـثٌ عَـنِ التَّحْقِيـقِ لِلْحَقِيقَـةِ

(٢١) وَهَـذِهِ حَقِيقَـةُ الإِنْسَـانِ ... حَيْـثُ لَـهُ أُنْمُـوذَجٌ رَبَّانِـي

(٢٢) وَوَضْعُـهُ فِي الكُتُـبِ لا يَجُـوزُ ... بَـلْ هُـوَ كَنْـزٌ فِـي النُّهَـى مَكْنُـوزُ

(٢٣) إِيَّـاكَ أَنْ تَطْمَـعَ أَنْ تَحُـوزَه ... مِـنْ دَفْتَـرٍ أو شِـعْرٍ أَوْ أُرْجُـوزَة

(٢٤) وَإِنَّـمَا يُعْـرَفُ مِنْـهُ وَصْفَـا ... لَسْـتَ تَـرَاهُ وَهْـوَ لَيْـسَ يَخْفَـى

(٢٥) وَهَـا أَنـا أَشْرَحُ مِنْـهُ البَعْضَـا ... بِقَـدْرِ مَـا تَفْهَمُـهُ فَلْتَرْضَـى

(٢٦) فَهَـذِهِ الحَقِيقَـةُ النَّفْسِـيَّة ... مَوْصُوْلَـةٌ بِالحَضْـرَةِ القُدْسِـيَّةِ

(٢٧) وَإِنَّـمَا يَعُوقُهَـا الموضُـوعُ ... وَمِـنْ هُنَـا يُبْتَـدَأُ الطُّلُـوعُ

(٢٨) فَلَـمْ تَـزَلْ كُلُّ النُّفُـوسِ الأَحْيَـا ... عَلاَّمَـةً دَرَّاكَـةً لِلأَشْـيَا

(٢٩) وَإِنَّـمَا تَحْجُبُهَـا الأَبْـدَانُ ... والأَنْفُـسُ النُّـزَّعُ والشَّـيطَانُ

(٣٠) فَـكل مَـنْ أَذاقَهُـمْ جِهَـادَهْ ... أَظْهَـرَ لِلْقَاعِـدِ خَـرْقَ العَـادَةْ

(٣١) وَهِـي مِـنَ النُّفُـوسِ فِي كُمُـونِ[1] ... كَمَـا يَكُـونُ الحَـبُّ فِـي الغُصُونِ

(٣٢) حَتَّـى إِذَا أَرْعَـدَتِ الرُّعُـودُ ... وَانْسَـكَبَ الغَيْـثُ وَلَانَ العُـودُ

(٣٣) وَجَـالَ فِي أَعْطَافِهَـا[2] الرِيَـاحُ ... فَعِنْدَهَـا يُرْتَقَـبُ اللِقَـاحُ

(٣٤) فَعِنْدَمَـا أَزْهَـرَتِ الأَغْصَـانُ ... وَاعْتَـدَلَ الرَّبِيـعُ وَالزَّمَـانُ

---

(١) وردت في الشرح بلفظ «كمين» وما أثبتناه من أصل المتن أدق.

(٢) وردت في الشرح بلفظ «أغصانها» وما أثبتناه من أصل المتن أدق.

(٣٥) يَكُـونُ إِذْ ذَاكَ أَوَانُ العَقْـدِ ... وتُنْظَـمُ الأَغْصَـانُ نَظْـمَ عِقْـدِ

(٣٦) فَـأَيُّ مَـنْ مَـرَّ بِهَـا مَسَـاءَ ... وَأَبْصَـرَ الظِـلَالَ وَالأَفْيَـاءَ[1]

(٣٧) وَنَـزَّهَ الأَبْصَـارَ وَالعُيُـونَ ... حِيْـنَ رَأَى الأَنْهَـارَ وَالعُيُـونَ

(٣٨) وَاشْـتمَّ مِنْهَـا الـرَّوْحَ والرَّيْحَـانَ ... وَظَـلَّ فِـي بَهْجَتِهَـا حَيْـرَانَ

(٣٩) فَقَالَ هـا نَحْنُ إِذًا سَـوَاءُ ... فَعِنْدَهَـا يَجْمَعُنَـا الْمَسَـاءُ

(٤٠) حَتَّـى إِذا هَجَمَـهُ الظَّـلَامُ ... وَاحْتَوَشَـتْهُ الوَحْـشُ والهَـوَامُ

(٤١) وَلَمْ يَجِدْ للفَـوْزِ[2] مِـنْ أَسْـبَابِ ... أَقَامَ حَيْـرَانَ أَمَـامَ البَـابِ

(٤٢) فَقِيـلَ مَـنْ بِالبَـابِ قَـالَ طَـارِقْ ... فَقِيـلَ كَلَّا لا وَلَكِـنْ سَـارِقْ

(٤٣) فقَـالَ رِفْقًـا صَاحِـبَ[3] الجَنَّـاتِ ... بِحَائِـرٍ قَـدْ ضَـلَّ فِـي الفَـلَاةِ

(٤٤) فَقِيـلَ هَـلَّا كُنْـتَ ذَا بُسْـتَانِ ... فَقَـالَ كُنْـتُ قَاعِـدًا وَوَانِ

(٤٥) وَقَـالَ يـا قَـومِ أَلا تَـشْرُونْ ... قَالـوا جَهِلْـتَ ثَمَـنَ المَثْمُـونْ

(٤٦) فَهَـذِهِ فَوَاكِـهُ المَعَـارِفِ ... لَـمْ تُشْـرَ بِالتِّـلادِ أَو بِالطَّـارِفِ

(٤٧) مَـا نَالَهَـا ذُو العَيْنِ والفُلُـوسِ ... وَإِنَّمَـا تُبَـاعُ بِالنُّفُـوسِ

(٤٨) وَقِيـلَ لَيْسَـتْ هَـذِهِ المَقَاصِـرْ ... مَـأْوى لِـكُلِّ قَاعِـدٍ وَقَاصِـرْ

(٤٩) وَقِيـلَ لَيْسَـتْ هَـذِهِ البَحَائِـرْ ... لِحَائِـرٍ ضَـلَّ فَظَـلَّ حَائِـرْ

(١) ورد قبل هذا البيت، هذين البيتين وهما زيادة لم يتعرض لها الشارح وليسا في أصل المتن وقد اثبتناهما من شرح الشيخ ابن عجيبة.

حَـتَّـى إِذَا أَيْـنَـعَ لِـلـعِـيَـانِ ... وأَمِـنَـتْ جَـوائِـحَ الـزَّمَـانِ

بَـاكَـرَهَـا زَارِعُـهَـا وَالـغَـارِسُ ... يَقْطِفُهَا وَالـغَـيْرُ مِـنْـهَـا آيِـسُ

(٢) وردت في شرح الشيخ زروق بلفظ «العون».

(٣) وردت بالأصل «ساكن».

(٥٠) فَافْهَمْ فَتَحْتَ هَذِهِ العِبَارَةْ إِشَارَةٌ، وَأَيَّمَا إِشَارَةْ
(٥١) فَلْنَرْجِعْ الآنَ لِبَاقِي الفَصْلِ إِذْ فِي تَمَامِهِ ثُبُوتُ الأَصْلِ
(٥٢) فَقَادَةُ الصُوفِيِّ أَهْلُ الصُّفَّةْ فِي زَمَنِ الرَّسُولِ فَاعْرِفْ وَصْفَهْ
(٥٣) وَهُمْ ضِيافُ الله والإِسْلَامِ وَجُلَسَاءُ سَيِّدِ الأَنَامِ
(٥٤) كَانُوا عَلَى التَّجْرِيدِ عَامِلِينَ وَعَنْ سِوَى الرَّحْمَنِ مُعْرِضِينَ
(٥٥) تَخَلَّقُوا بِخُلُقِ النَّبِيِّ يَدْعُونَ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ
(٥٦) قَدْ فَهِمُوا مُقْتَضَيَاتِ الشَّرْعِ فَصَيَّرُوا الفَرْقَ لِعَيْنِ الجَمْعِ
(٥٧) قَدْ خَرَجُوا لله عَمَّا اكْتَسَبُوا فَكُلُّ صُوفِي إِلَيْهِمْ يُنْسَبُ
(٥٨) إِذًا فَشَأْنُ القَومِ لَيْسَ مُحْدَثًا بَلْ كَانَ أَحْوى فَوَجَدْنَاهُ غَثًا
(٥٩) فَاسْلُكْ طَرِيقَ القَومِ تَلْقَ يُمْنَه إِذِ الكِتَابُ قَيْدُهُ وَالسُّنَّةْ

الفَصْلُ الثَّانِي

في فضله

(٦٠) حُجَّـةُ مَـنْ يُرَجِّـحُ الصُّوفِيَّـةْ عَلَـى سِـواهُم حُجَّـةٌ قَوِيَّـةْ
(٦١) هُـمْ أَتْبَـعُ النَّـاسِ بِخَـيرِ النَّـاسِ مِـنْ سَـائِرِ الأَنَـامِ والأُنَـاسِ
(٦٢) [يَتْبَعُـهُ][1] العَـالِمُ فِي الأَقْـوَالِ والعَابِـدُ النَّاسِـكُ فِـي الأَفْعَـالِ
(٦٣) وفِيهِـمَا الصُّـوفِيُّ فِي السِّـبَاقِ لَكِنَّـهُ قَـدْ زَادَ بِالأَخْـلَاقِ
(٦٤) ثُـمَّ بِشَـيْئَيْنِ تَقُـومُ الحُجَّـةْ وَأَنَّهُـم قَطْعًـا عَلَـى المَحَجَّـةْ
(٦٥) مَذَاهِـبُ النَّـاسِ عَـلَى اخْتِـلَافِ وَمَذْهَـبُ القَـوْمِ عَلَـى ائْتِـلَافِ
(٦٦) ومـا أَتَـوْا فِيـهِ بِخَـرْقِ العَـادَةْ إِذْ لَـمْ تَكُـنْ لِمَـنْ سِـواهُمْ عَـادَةْ
(٦٧) قَـدْ رَفَضُـوا الآثَـامَ وَالعُيوبَـا وَطَهَّـرُوا الأَبْـدَانَ وَالقُلُوبَـا
(٦٨) وَبَلَغُـوا حَقِيقَـةَ الإِيـمَانِ وانْتَهَجُـوا مَنَاهِـجَ الإِحْسَـانِ
(٦٩) وَعَلِمُـوا مَرَاتِـبَ الوُجُـودِ كَالأُمِّ وَالوَالِـدِ وَالمَوْلُـودِ
(٧٠) واسْتَشْـعَرُوا شَـيْئًا سِـوَى الأَبْدَانِ يَدْعُونَـهُ بِالعَالَـمِ الرُّوحَانِـي
(٧١) ثُـمَّ أَمَـامَ العَـالَمِ المَعْقُـولِ مَعَـارِفُ تَلْغَـزُ فـي المَنْقُـولِ
(٧٢) وَفَهِمُـوا[2] أَنَّ لهـم تَمْكِينـا يَرْقَـى بِهِـمْ مَرْقَـى المُكَاشَـفِينَ
(٧٣) ثُـمَّ رَأَوْا أَنْ دُوْنَ ذَاكَ مَانِـعُ كَدَفْتَـرٍ نِيـطَ عَلَيـه طَابِـعُ
(٧٤) فَالقَـومُ حِـينَ عَلِمُـوا بِـذَاكَا وَمَيَّـزُوا القُطَّـاعَ والأَشْـرَاكَا

---

(١) وردت بالأصل «تَبِعَهُ» والأصح عروضياً ما أثبتناه.

(٢) وردت بالأصل «وعلموا».

(٧٥) سَلُّوا مِنْ العَزْمِ لهمْ قَواضِبْ فانْبَتَّ كُلُّ قَاطِعٍ وَحَاجِبْ
(٧٦) وَاحْتَزَمُوا للطَّعْنِ والنِّزَالِ وَابْتَدَروا مَيَادِنَ القِتَالِ
(٧٧) وَعَلِمُوا أَنْ لَيْسَ شَيءٌ قَاطِعْ كَبَدَنٍ كاسٍ وَبَطْنٍ شَابِعْ
(٧٨) وَنَظَرُوا الحِجَابَ للبَواطِنْ فَوَجَدُوه فِي النُّفُوسِ كَامِنْ
(٧٩) فَعَمِلُوا عَلَى جِهَادِ النَّفْسِ حَتَّى أَزَالُوا مَا بِهَا مِنْ لَبْسِ
(٨٠) وَالقَومُ فِي ذاك عَلَى فِرْقَيْنِ وَحُكْمُهُمْ فِيهِ عَلَى ضَرْبَينِ[١]
(٨١) قَالُوا بِأَنَّ النَّفْسَ كَالمِرْآةِ يَنْطَبِعُ المَاضِي بِهَا وَالآتِ
(٨٢) وَإِنَّمَا يَعُوقُهَا أَشْيَاءُ تَرْكُ المُحَاذَاةِ أَوْ الصَّدَاءُ
(٨٣) قَالُوا وَإِنَّ العَيْنَ قَدْ تَغُورُ وَإِنَّمَا يُخْرِجُهَا الحِفَيرُ
(٨٤) وَأَجْمَعُوا أَنَّ عِلَاجَ الأَصْلِ أَقْرَبُ لِلْبُرْءِ مَعاً وَالنَّيْلِ
(٨٥) فَمَا إِلَيْهِ أَبَدًا نُشِيرُ هُوْ عِلَاجُ النَّفْسِ وَالتَّطْهِيرُ
(٨٦) وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الإِشْرَاقِ كَانَتْ وَتَبْقَى مَا الوُجُودُ بَاقِ
(٨٧) وَفِرْقَةٌ قَالَتْ بِأَنَّ العِلْمَا مِنْ خَارِجٍ بِالاكْتِسَابِ أَسْمَى
(٨٨) وَشَرَطُوا العُلُومَ فِي اصْطِلَاحِهِ إِذْ لا غِنَىً للبَابِ عَنْ مِفْتَاحِهِ
(٨٩) فَلَيْسَ للطَامِعِ فِيهِ مَطْمَعْ مَالَمْ تَكُنْ فِيهِ عُلُومٌ أَرْبَعْ[٢]
(٩٠) وَهْيَ عُلُومُ الذَّاتِ وَالصِفَاتِ وَالفِقْهِ وَالحَدِيثِ وَالحَالَاتِ
(٩١) وَهَذِهِ طَرِيقَةُ[٣] البُرْهَانِ وَهِي لِكُلِّ حَازِمٍ يَقْظَانِ

(١) بعد هذا البيت بيت زائد من شرح الشيخ ابن عجيبة.لم يتعرض له الشارح،وليس في أصل المتن،وهو قوله:
فَفِرْقَةٌ طَرِيقُهُمْ مَبْنِيَّة عَلَى العَقَائِدِ وَحُسْنِ النِيَّة

(٢) ورد هذا الشطر في أصل المتن «أوْ يَجْتَمِعْ فِيهِ فيه علوم أربع»

(٣) وردت في شرح الشيخ زروق «حَقِيقَةُ».

(٩٢) وَنَسَبُوا الصُّوفِيَّ لِلْكَمَالِ   وَضَرَبُوا مَعْنَاهُ فِي المِثَالِ

(٩٣) فَهْوَ كَالهَوَاءِ فِي العُلُوِّ   ثُمَّ كَمِثْلِ الأَرْضِ فِي الدُّنُوِّ

(٩٤) ثُمَّ كَمِثْلِ النَّارِ فِي الضِيَاءِ   ثُمَّ كَمِثْلِ المَاءِ فِي الإِرْوَاءِ

(٩٥) فَهْوَ إِذًا لِلكَائِنَاتِ حَاصِرْ   إِذْ صَارَ فِي مَعْنَاهُ كَالعَنَاصِرْ[١]

(٩٦) وَفَضْلُه أَشْهَرُ مِنْ أَنْ يُجْلَى[٢]   وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْهُ نَزْرًا جُمَّلَا

(٩٧) وَفِي بَيَانِ أَصْلِهِ دَلِيلُ   يُعْلَمُ مِنْهُ الشَأْنُ والتَّحْصِيلُ[٣]

(١) ورد هذا الشطر في شرح ابن عجيبة على المباحث «إِذْ هُوَ فِي مَعْنَاهُ كَالعَنَاصِرِ»

(٢) وردت في أصل المتن «أكثر من أن يجهلا».

(٣) وردت في شرح الشيخ زروق «التفصيل».

الفصل الثالث

في أحكامه وهي تسعة

الأول: في حكم الشيخ والمشيخة ومعنى التربية

(٩٨) وَإِنَّمَا القَوْمُ مُسَافِرُونَا لِحَضْرَةِ الحَقِّ وَظَاعِنُونَا
(٩٩) فَافْتَقَرُوا فِيهِ إِلَى دَلِيلِ ذِي بَصَرٍ بِالسَّيْرِ وَالمَقِيلِ
(١٠٠) قَدْ سَلَكَ الطَّرِيقَ ثُمَّ عَادَا لِيُخْبِرَ القَوْمَ بِمَا اسْتَفَادَا
(١٠١) وَجَابَ مِنْهَا الوَهْدَ وَالآكَامَا وَرَاضَ مِنْهَا الرَّمْلَ وَالرَّغَامَا
(١٠٢) وَجَالَ فِيهَا رَائِحًا وَغَادِيَا وَسَارَ كُلَّ فَدْفَدٍ وَوَادِيَا
(١٠٣) وَعَلِمَ المَخُوفَ وَالمَأْمُونَا وَالجَدْبَ وَالأَنْهَارَ وَالعُيُونَا
(١٠٤) قَدْ قَطَعَ البَيْدَاءَ وَالمَفَاوِزْ وَارْتَادَ كُلَّ حَابِسٍ وَحَاجِزْ
(١٠٥) وَحَلَّ فِي مَنَازِلِ المَنَاهِلْ وَكُلِّ شِرْبٍ فَهْوَ فِيهِ نَاهِلْ
(١٠٦) فَعِنْدَمَا قَامَ بِهَذَا الخَطْبِ قَالُوا جَمِيعًا أَنْتَ شَيْخُ الرَّكْبِ
(١٠٧) فَأَحْدَقُوا مِنْ حَوْلِهِ يَمْشُونَا وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يُوزَعُونَا
(١٠٨) فَرَتَّبَ القَوْمَ عَلَى مَرَاتِبْ مَا بَيْنَ مَاشٍ: رَاجِلٌ وَرَاكِبْ
(١٠٩) وَحَيْثُ كَلَّتْ نُجُبُ الأَبْدَانِ قَالَ احْدُهَا يَا حَادِيَ الأَظْعَانِ
(١١٠) فَمِنْ هُنَا يُلَقَّبُ القَوَّالَا حَادٍ لأَجْلِ حَذْوِهِ الرِّجَالَا
(١١١) وَالسَّفَرُ المَذْكُورُ بِالقُلُوبِ وَالشَّيْخُ فِي مَنْزِلَةِ الطَّبِيبِ
(١١٢) يَعْلَمُ مِنْهَا الغَثَّ وَالسَّمِينَ وَيُدْرِكُ الصُّلْبَ بِهَا وَاللِّينَ
(١١٣) وَيَعْلَمُ البَسِيطَ وَالمُرَكَّبَا مَا بَدَا مِنْهَا عَلَيْهِ وَاخْتَبَا

(١١٤) وَالطَّبْعَ وَالمِزَاجَ وَالتَّرْطِيبَا ... وَالكَوْنَ وَالتَّحْلِيلَ وَالتَّرْكِيبَا
(١١٥) قَدْ أَحْكَمَ التَّشْرِيحَ وَالمَفَاصِلْ ... وَصَارَ عِلْمُ الطِّبِّ فِيهِ حَاصِلْ
(١١٦) وَكَانَ عَشَّابًا وَصَيْدُلَانِي ... قَدْحًا وَكَحَّالًا وَمَارِسْتَانِي
(١١٧) أَمْهَرَ فِي الأَعْرَاضِ والأَخْلاطِ ... مِنْ أَسْقَلا جَالَيْنُوس أَوْ بُقْرَاطِ
(١١٨) فَعِنْدَمَا صَحَّ لَهُ التَّحْصِيلُ ... يَمَّمَهُ السَّقِيمُ وَالعَلِيلُ
(١١٩) فَكَانَ يُبْرِيهِم مِنَ الأَمْرَاضِ ... وَالسَّاخِطُ القَلْبِ يَعُودُ رَاضِ
(١٢٠) وَلَيسَ هَذَا الطِّبُّ جَالَيْنُوس ... وَإِنَّمَا يَخْتَصُّ بِالنُّفُوس
(١٢١) فَهَكَذَا الشُّيوخُ قِدَمًا كَانُوا ... يَا حَسْرَتِي إِذْ سَلَفُوا وَبَانُوا

الثاني: في حكم الاجتماع

(١٢٢) فَكَانَ إِذْ ذَاكَ اجْتِمَاعُ القَوْمِ ... لَهُ لِعِلْمٍ عَمَلٍ عَنْ عِلْمِ
(١٢٣) وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَنْ رَوِيَّة ... إِذْ يَحْضُرُ القَوْمُ عَلَى السَّوِيَّة
(١٢٤) وَلَمْ يَكُنْ أَيْضًا لَدَى العِشَاءِ ... إِذْ فِيهِ نَهْيٌ وَهْوَ لِلإِغْفَاءِ
(١٢٥) وَافْتَقَرُوا أَيضاً للائْتِلافِ ... لِيَعْلَمَ المُسْتَوْفِي حَالَ الوَافِي
(١٢٦) لاَ خَيْرَ فِيمَنْ لَمْ يَكُنْ أَلُوفَا ... وَلَمْ يَكُنْ لِغَيرِهِ مَأْلُوفَا
(١٢٧) وَمَنْ يَكُنْ يَصْحَبُ غَيْرَ جِنْسِهِ ... فَجَاهِلٌ تَاللهِ قَدْرَ نَفْسِهِ
(١٢٨) أَفْضَلُ لِلمَرْءِ جُلُوسٌ وَحْدَهُ ... وَلا يَكُنْ جَلِيسُ سُوءٍ عِنْدَهُ
(١٢٩) قَدْ يُرْتَجَى الشِّفَاءُ لِلسَّقِيمِ ... مَهْمَا يَكُنْ مُلازِمَ الحَكِيمِ
(١٣٠) فَمَنْ يُنَازِعْ فَاطْرَحَنْ نِزَاعَهْ ... فَالدِّينُ مَبْنِيٌّ عَلَى الجَمَاعَةْ

الثالث: في حكم اللباس

(١٣١) وَقَدْ أَبَاحُوا سَائِرَ الأَثْوَابِ ... وَتَرْكُهَا أَقْرَبُ لِلثَّوَابِ
(١٣٢) إِذْ فِي لِبَاسِ حِلِّهَا الحِسَابُ ... أَيضًا وَفِي حَرَامِهَا العِقَابُ
(١٣٣) وَالقَومُ مَا اخْتَارُوا المُرَقَّعَاتِ ... إِلَّا لأَوْصَافٍ وَسَوْفَ تَاتِي
(١٣٤) أَوْلُهَا فِيهَا إِطِّرَاحُ الكِبْرِ ... وَمَنْعُهَا لِلبَرْدِ ثُمَّ الحَرِّ
(١٣٥) وَخِفَّةُ التَّكْلِيفِ ثُمَّ فِيهَا ... قِلَّةُ طَمَعِ الطَّامِعِينَ فِيهَا
(١٣٦) وَذِلَّةُ النَّفْسِ وَتَطْوِيلُ العُمُرْ ... وَالصَّبْرُ ثُمَّ الاقْتِدَاءُ بِعُمَرْ
(١٣٧) أَلا تَرَى لابِسَهَا كَالخَاشِعِ ... فَهِيَ إِذًا أَقْرَبُ لِلتَّوَاضُعِ

الرابع: في حكم الأكل

(١٣٨) وَالأَكْلُ فِيهِ تَرْكُهُ مَشْرُوطُ ... إِلَّا اضْطِرَارًا قَدْرَ مَا يَحُوطُ
(١٣٩) فَإِنْ يَكُنْ فَحَسَنٌ وَإِلَّا ... فَتَرْكُهُ عِنْدَ الجَمِيعِ أَوْلَى
(١٤٠) وَأَدَبُ القَوْمِ لَدَى الطَّعَامِ ... جَمٌّ فَمِنْهُ تَرْكُ الاهْتِمَامِ
(١٤١) وَقِلَّةُ الذِّكْرِ لَهُ إِنْ غَابَا ... لِكَوْنِهِ عِنْدَهُمْ حِجَابَا
(١٤٢) بَلْ أَنْزَلُوهُ مَنْزِلَ الدَّوَاءِ ... عِنْدَ العَلِيلِ بُغْيَةَ الشِّفَاءِ
(١٤٣) وَلَمْ يَكُنْ هَمُّهُمْ بِجَمْعِهِ ... وَكَسْبِهِ وَفَضْلِهِ وَمَنْعِهِ
(١٤٤) وَلَا اسْتَقَلُّوهُ وَلا عَابُوهُ ... وَلَمْ يَكُنْ قَصْدًا فَيَطْلُبُوهُ
(١٤٥) وَالقَومُ لَمْ يَدَّخِروا طَعَامَا ... بَلْ تَرَكُوا الحَلالَ وَالحَرَامَا
(١٤٦) إِلَّا يَسِيرًا قَدْرَ مَا تَيَسَّرَا ... إِذِ الحَلالُ المَحْضُ قَدْ تَعَذَّرَا
(١٤٧) فَإِنْ أَتَى شَيءٌ بِلا تَكْلِيفِ ... ابْتَدَءوا بِالجَارِ وَالضَّعِيفِ

(١٤٨) وَجَنَّبُوا طَعَامَ أَهْلِ الظُّلْمِ وَالبَغْيِ وَالفَسَادِ خَوفَ الإِثْمِ
(١٤٩) بَلْ أَكَلُوا مِمَّا اسْتَبَانُوا حِلَّهُ غَيْرَ الذي لا يَعْرِفُونَ أَصْلَهُ
(١٥٠) وَلَمْ يَكُونُوا كَرَّهُوا الكَلامَ عَلَيهِ لَكِنْ كَرَّهُوا الإِرْغَامَ
(١٥١) وَيَكْرَهُونَ الأَكْلَ مَرَّتَيْنِ فِي اليَوْمِ وَالمَرَّةَ فِي اليَوْمَيْنِ
(١٥٢) وَفَضَّلُوا الجَمْعَ عَلَى الإِفْرَادِ فِيهِ لأَجْلِ كَثْرَةِ الأَيَادِ
(١٥٣) وَلَمْ يُلَقِّمْ بَعْضُهُم لِبَعْضِ وَلَمْ يُجِلْ بَصَرَهْ بَلْ يُغْضِ
(١٥٤) وَلَمْ يَرَوا فِيهِ بالانْتِظَار فَيَذْهَبُ الوَقْتُ بلا تَذْكَار
(١٥٥) وَكَرَّهُوا البِطْنَةَ للإِخْوانِ فَالبَطْنُ كالوِعَاءِ للشَّيطَانِ
(١٥٦) قَالُوا ولا يُمْسِكْ يَدًا مَادامُوا فِي الأَكْلِ، وَلِيَقُمْ مَتَى مَا قَامُوا
(١٥٧) وَأَمَرُوا فِيهِ بفَتْحِ البَابِ وَأَكَلُوا بالقَصْدِ والآدَابِ
(١٥٨) وَفَتَحُوا البَابَ لِكلِّ سَارِ وأَكَلُوا بالرِفْقِ والإِيثَارِ

الخامس: فيما يلزمهم من الآداب عند الاجتماع

(١٥٩) وَللطَّرِيقِ ظَاهِرٌ وَبَاطِنُ يُعْرَفُ مِنْهُ صِحَّةُ البَوَاطِنِ
(١٦٠) ظَاهِرُهُ الآدَابُ والأَخْلاَقُ مَعَ كُلِّ خَلْقٍ مَا لَهُ خَلاقُ
(١٦١) بَاطِنُهُ مَنَازِلُ الأَحْوَالِ مَعَ المَقَامَاتِ لِذِي الجَلاَلِ
(١٦٢) وَالأَدَبُ الظَّاهِرُ للعَيَانِ دَلالَةُ البَاطِنِ فِي الإِنْسَانِ
(١٦٣) وَهْوَ أَيضًا للفَقِيرِ سَنَدُ وللغَنِيِّ زِينَةٌ وسُؤْدَدُ
(١٦٤) وَقِيلَ مَنْ يُحْرَمْ سُلْطَانَ الأَدَب فَهْوَ بَعِيدٌ مَا تَدَانَى واقْتَرَب
(١٦٥) وَقِيلَ مَنْ تَحْبِسُهُ الأَنْسَابُ فَإِنَّمَا تُطْلِقُهُ الآدَابُ

(١٦٦) وَالقَومُ بالآدَابِ حقًّا سَادُوا ... مِنْهُ اسْتَفَادَ القَوْمُ ما اسْتَفَادُوا

(١٦٧) إِذْ نَصَحُوا الأَحْدَاثَ والأَصَاغِر ... وَحَفِظُوا السَّادَاتِ وَالأَكَابِر

(١٦٨) وَاجْتَنَبُوا مَا يُؤلِمُ القُلُوبَ ... وَابْتَدَرُوا الوَاجِبَ وَالمَنْدَوبَ

(١٦٩) وَخَدَمُوا الشُّيُوخَ وَالإِخْوانَ ... وَبَذَلُوا النُّفُوسَ وَالأَبْدَانَ

(١٧٠) وَأَنْصَتُوا عِنْدَ المُذَاكَرَاتِ ... وَاحْتَرَمُوا المَاضِي مَعًا وَالآتِ

(١٧١) وَسَأَلُوا الشُّيوخَ عَمَّا جَهِلُوا ... وَوَقَفُوا مِنْ دُونِ مَا لَمْ يَصِلُوا

(١٧٢) وَعَمِلُوا بِكُلِّ مَا قَدْ عَلِمُوا ... وَآثَرُوا وَاغْتَفَرُوا وَاحْتَشَمُوا

(١٧٣) وَاحْتَكَمُوا بالعَدْلِ والإِنْصَافِ ... فَوَرَدُوا كُلَّ مَعِينٍ صَافِ

(١٧٤) وبَعْضُهُم كَانَ لبَعْضٍ عَوْنَا ... يَلْقَى لَدَيهِ دَعَةً وَأَمْنَا

(١٧٥) يَنْصُرُهُ فِي الحَقِّ حَيْثُ كَانَا ... فَإِنْ أَسَا قَارَضَهُ إِحْسَانَا

(١٧٦) وَلَيْسَ حَطُّ الرَأْسِ مِنْ آدَابِهْ ... بَلِ الصَّوَابُ كَانَ فِي اجْتِنَابِهْ

(١٧٧) إِذْ كَانَ مَبْنيًّا[1] عَلَى القِصَاصِ ... لمَنْ أَرَادَ حِسْبَةَ الخَلَاصِ

(١٧٨) وَلَيْسَ فِي قِيامِ الاسْتِغْفَارِ ... أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاصْطِلَاحٌ جَارِ

(١٧٩) وَالقَصْدُ مِنْ هَذَا الطَرِيقِ الأَدَبُ ... فِي كُلِّ حَالٍ مِنْهُ: هَذَا المَذْهَبُ

السادس: في حكم السماع

(١٨٠) وَللأَنَامِ فِي السَّمَاعِ خَوضُ ... لَكِنْ لهَذَا الحِزْبِ فِيهِ رَوْضُ

(١٨١) قَالَ العِرَاقِيونَ بالتَّحْرِيمِ ... قَالَ الحِجَازِيونَ بالتَّسْلِيمِ

(١٨٢) وَإِنَّ للشُّيُوخِ فِيهِ فَنَّا ... إِذْ جَعَلُوه للطَرِيقِ رُكْنَا

---

(١) وردت في أصل المتن «بل هو مبني».

(١٨٣) وَإِنَّمَا أُبِيحَ لِلزُّهَّادِ ... وَنَدْبُهُ إِلَى الشُّيُوخِ بَادِ
(١٨٤) وَهْوَ عَلَى العَوامِ كالحَرَامِ ... عِنْدَ الشُّيُوخِ الجُلَّةِ الأَعْلَامِ
(١٨٥) وَفِيهِ كَانَ مَيْلَقُ الأَحْوَالِ ... كَيمَا يَبِينَ سَافِلٌ وَ عَالِ
(١٨٦) وَهْوَ صِرَاطٌ عِنْدَهُمْ مَحْدُودُ ... يَعْبُرُهُ الوَاجِدُ وَالفَقِيدُ
(١٨٧) فَعَابِرٌ يُحِلُّهُ عِلِّيِّينْ ... وَآخَرٌ يَحُطُّهُ سِجِّينْ
(١٨٨) وَهْوَ سُرُورُ سَاعَةٍ يَزُولُ ... نَعَمْ، وَسُمٌّ سَاعَةٍ قَتُولُ
(١٨٩) وَهْوَ قِياسُ العَقْلِ نَقَّاشُ القُلُوب ... إِنْ يَنْزِلِ الحَالُ بِهِ ثُمَّ يَؤُوب
(١٩٠) وَآثَارُهُ فِي عَرَصَاتِ القَلْبِ ... كَالوَبْلِ فِي الغُصْنِ القَوِيمِ الرَّطْبِ
(١٩١) وَلا يَجُوزُ عِنْدَهُ التَكَلُّمُ ... وَلا التَلَهِّي لا وَلا التَبَسُّمُ
(١٩٢) وَيُمْنَعُ الأَحْدَاثُ مِنْ حُضُورِهِ ... فَإِنْ يَكُنْ ذَاكَ فَمِنْ ظُهُورِهِ
(١٩٣) وَالرَّقْصُ فِيهِ دُونَ هَجْمِ الحَالِ ... لَيْسَ عَلَى طَرِيقَةِ الرِجَالِ
(١٩٤) وَمَنْ يَكُنْ يَقْوَى عَلَى السُّكُونِ ... فَإِنَّهُ أَسْلَمَ لِلظُّنُونِ
(١٩٥) وَلَيْسَ يَحْتَاجُ إِلَى السَماعِ ... إِلا أَخُو الضَّعْفِ القَصِيرِ البَاعِ
(١٩٦) وَالزَّعَقَاتِ فِيهِ والتَمْزِيقِ ... ضَعْفٌ وَهَزُّ الرَأْسِ وَالتَّصْفِيقِ
(١٩٧) وَلَمْ يَكُنْ لأَجْلِهُ اجْتِمَاعُ ... وَلا لَدَى غَيْبَتِهِ انْصِدَاعُ
(١٩٨) وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مَرَاسِنُونَا ... وَلا طَنَابِيرُ وَمُسْمَعُونَا
(١٩٩) وَلَيْسَ أيضًا كَانَ فِيهِ طَارُ ... وَلا مَزَاهِرٌ عَلَيْهَا نِقَارُ[1]
(٢٠٠) وَالشَّمْعُ والفُرُوشُ والتَكَالُفْ ... أُقْسِمُ مَا كَانَتْ يَمِينَ الحَالِفْ[2]

(١) ورد هذا الشطر في أصل المتن « ولا مزاهر ولاتنقار»

(٢) وردت في شرح الشيخ ابن عجيبة (حالف)

(٢٠١) وَأَمَرُوا فِيهِ بِغَلْقِ البَابِ وَإِنَّمَا ذَاكَ لِلاجْتِنَابِ
(٢٠٢) وَلَيْسَ لِلقَائِلِ مَا يَقُولُ فِي الشِّعْرِ إِذْ سَمِعَهُ الرَّسُولُ
(٢٠٣) وَإِنَّمَا كَانَ السَّمَاعُ قِدَمَا قَصْدُ المُرِيدِ الشَّيْخَ يَشْكُو السَّقَمَا
(٢٠٤) وَجَاءَ هَذَا ثُمَّ جَاءَ هَذَا حَتَّى اسْتَقَلُّوا عِنْدَهُ أَفْذَاذَا
(٢٠٥) فَبَثَّ كُلٌّ مَا بِهِ قَدْ جَاءَ فَعُوِّضُوا مِنْ دَائِهِمْ دَوَاءَ
(٢٠٦) فَعِنْدَمَا نَشِطَتِ النُّفُوسُ وَزَالَ عَنْهَا كَسَلٌ وَبُوسُ
(٢٠٧) وَطَابَتِ القُلُوبُ بِالأَسْرَارِ واسْتُعْمِلَتْ نَتَائِجُ الأَفْكَارِ
(٢٠٨) تَرَنَّمَ الحَادِي بِبَيْتِ شِعْرِ فَاكْتَنَفَتْهُ غَامِضَاتُ الفِكْرِ
(٢٠٩) كُلٌّ لَهُ مِمَّا اسْتَفَادَ شِرْبُ هَذَا لَهُ قِشْرٌ وَهَذَا لُبُّ
(٢١٠) فَإِنْ تَمَادَى وَأَتَمَّ شِعْرَا أَبْدَى مِنَ الشِّعْرِ عَلَيهِ سِفْرَا[1]
(٢١١) فَهَكَذَا كَانَ سَمَاعُ النَّاسِ فَهَلْ تَرَى بِهِمْ كَذَا مِنْ بَاسِ
(٢١٢) وَكَرِهُوا الخَلْعَ عَلَى المُسَاعَدَةْ لأَنَّ فِيهِ كُلْفَةَ المُعَانَدَةْ
(٢١٣) وَمَنْ يَكُنْ يَخْلَعُ عِنْدَ الحَالِ فَلا يَجُوزُ رَدُّهُ بِحَالِ
(٢١٤) إِذْ كَانَ كُلٌّ عَائِدٍ فِي هَدْيِهِ كَالكَلْبِ ظَلَّ عَائِدًا فِي قَيْئِهِ
(٢١٥) وَحُكْمُهُ فِي أَفْضَلِ الأَحْكَامِ رَأْيُ العِرَاقِ لَيْسَ رَأْيُ الشَّامِ
(٢١٦) وَحَكَّمُوا الوَارِدَ فِي الخُرُوقِ لِلأُنْسِ وَالخِبْرَةِ بِالطَّرِيقِ
(٢١٧) وَالسِّقْطُ مَرْدُودٌ بِلا خِلافِ وَقَدْرُ هَذَا فِي السَّمَاعِ كَافِ

(١) ورد هذا البيت في أصل المتن:

فـإن تمـادى وأتـمَّ الشعرا أبدوا من الشرح عليه سفرا

السابع: في حكم السفر
والقدوم على المشايخ والإخوان

(٢١٨) مَذْهَبُهُمْ فِي جَوْلَةِ البُلْدَانِ ... زِيَارَةُ الشُّيُوخِ والإِخْوَانِ
(٢١٩) ثُمَّ اقْتِبَاسُ العِلْمِ والآثَارِ ... أَوْ رَدُّ ظُلْمٍ أَوْ للاعْتِبَارِ
(٢٢٠) أَوْ للخُمُولِ أَوْ لنَفْيِ الجَاهِ ... أَوْ للرَّسُولِ أَوْ لبَيْتِ اللهِ
(٢٢١) وَلَمْ تَكُنْ أَسْفَارُهُمْ تَنَزُّهَا ... بَلْ كَانَ فِيهَا نَحْوَهُ التَّوَجُّهَا[1]
(٢٢٢) وَلَمْ يَكُنْ أَيضًا بِلا اسْتِئْذَانِ ... للشَّيْخِ وَالآبَاءِ والإِخْوَانِ
(٢٢٣) وَلَمْ يَكُنْ أيضًا ذَلِكَ للفُتُوحِ ... أَوْ لامْرِئٍ مُبْتَذِلٍ مَمْدُوحِ
(٢٢٤) فَحَيْثُ حَلُّوا بَلْدَةً فَبِالحِرا ... أَنْ يَقْصِدُوا الشَّيخَ وَبَعْدُ الفُقَرا
(٢٢٥) وَإِنَّ للقَومِ هُنَا آدَابَا ... إِذْ جَعَلُوا كَلامَهُمْ جَوَابَا[2]
(٢٢٦) فَإِنْ تَعَاطَى الشَّيخُ مِنْهُم قَوْلَا ... قَالُوا وإِلَّا فَالسُّكُوتُ أَوْلَى
(٢٢٧) وَوَاجِبٌ عَلَى أُولِي الإِقَامَةِ ... تَفَقُّدُ الوَارِدِ بالكَرَامَةِ
(٢٢٨) وهو يَزُور القَوْمَ فِي الحَرَامِ ... وَإِنَّمَا ذَاكَ للاحْتِرَامِ
(٢٢٩) وَيَبْدَءُوا الوَارِدَ بالسَّلَامِ ... وَبالطَّعَامِ ثُمَّ بالإِكْرَامِ
(٢٣٠) وَكَلَّمُوهُ بَعْدَهَا تَكْلِيمَا ... تَأَسِّيًا بِفِعْلِ إِبْرَاهِيمَ
(٢٣١) وَكَرِهُوا سُؤَالَ هَذَا الوَارِدِ ... إِلَّا عَنِ الشَّيخِ أَوْ التَلامِدِ
(٢٣٢) وَكَرِهُوا تَضْيِيعَهُ أَوْرَادَهُ ... كَيفَ وَقَدْ جَاءَ إِلى الزِّيَادَةْ
(٢٣٣) وَمَنْ يُسَافِرْ فِي هَوَى النُّفُوسِ ... فَإِنَّمَا يُؤْمَرُ بالجُلُوسِ

---

(١) ورد هذا الشطر في شرح الشيخ ابن عجيبة «بل كان لله فيها نحو التوجها».

(٢) ورد هذا الشطر في شرح الشيخ زروق «أن يجعلوا كلامهم جوابا».

الثامن: في حكم السؤال

(٢٣٤) حُكْمُ السُّؤَالِ عِنْدَهُم مَشْرُوعُ ... طَوْرًا وَطَوْرًا عِنْدَهُم مَمْنُوعُ
(٢٣٥) وَمَا عَلَى السَّائِلِ مِنْ تَأْوِيلِ ... لأَجْلِ قَهْرِ النَّفْسِ والتَّذْلِيلِ
(٢٣٦) فَمِنْ أُولِي الأَذْوَاقِ وَالأَحْوَالِ ... مَنْ كَانَ رَاضَ النَّفْسَ بالسُّؤَالِ
(٢٣٧) وَقَالُوا لا خَيْرَ إذا فِي العَبْدِ ... مَا لَمْ يَكُنْ قَدْ ذَاقَ طَعْمَ الرَّدِّ
(٢٣٨) وَمَنَعُوا السُّؤَالَ للتَكَاثُرِ ... بَلْ حَكَمُوا عَلَيهِ بالتَّهَاجُرِ
(٢٣٩) وَالقَومُ لَمَّا [يَسْأَلُوا][1] إِلحَافَا ... وَلا تَكَاثُرًا وَلا جُزَافَا
(٢٤٠) بَلْ كَانَ ذَاكَ مِنْهُم اضْطِرَارَا ... فَيَسْأَلُونَ القُوتَ وَالإفْطَارَا
(٢٤١) وَأَدَبُ الصُّوفِيِّ عِنْدَ المَسْأَلَةْ ... أَنْ يَدْخُلَ السُّوقَ إِلَيهِ يَسْأَلَهْ
(٢٤٢) لِسَانُهُ يُشِيرُ نَحْوَ الخَلْقِ ... وَقَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بالحَقِّ
(٢٤٣) وَكَرِهُوا سُؤَالَهُ لِنَفْسِهِ ... ثُمَّ أَبَاحُوهُ لأَهْلِ جِنْسِهِ
(٢٤٤) وَلَمْ يَعِدُّوهُ مِنَ السُّؤَالِ ... لَكِنْ مِنَ العَوْنِ عَلَى الأَعْمَالِ
(٢٤٥) إِذْ كَانَ خَيْرُ الخَلْقِ فِي أَتْرَابِهِ ... يَسْأَلُ أحْيانًا إِلَى أصْحَابِهِ
(٢٤٦) لَمْ يَتَّصِفْ بِصِحَّةِ السُّؤَالِ ... مَنْ آثَرَ الأَخْذَ عَلَى الإِبْذَالِ
(٢٤٧) وَالشُّغْلُ دُونَ الكَسْبِ بالعِبَادَةِ ... مَحْضُ التَّوَكُلِ وَرَأْيُ السَّادَةِ
(٢٤٨) ثُمَّ السُّؤَالُ آخِرُ المَكَاسِبْ ... وَهُوَ بِشَرْطِ الاضْطِرَارِ وَاجِبْ

---

(١) وردت هذه الكلمة في شرح الشيخ زروق بالفعل الماضي (سألوا) ، والصواب ما اثبتناه من أصل المتن وشرح الشيخ ابن عجيبة ؛ إذ أنَّ «لمَّا» إذا دخلت على الفعل المضارع أفادت النفي ، وهذا هو ظاهر السياق.

التاسع: في حكم المريد ومعنى الإرادة وفائدة الشيخ وتدريجه للمريد إلى أن يصير شيخًا

(٢٤٩) فَـإِنْ أَتَـى القَـوْمَ أَخُـو فُتُـون وَقَـال يَـا قَـومُ أَتَقْبَلُـون
(٢٥٠) تَقبَّلُـوهُ صَادِقًـا أَوْ كَاذِبـا إذْ كَانَ مَحْتُومًـا عَليهِـمْ وَاجِبَـا
(٢٥١) وَحَـذَّرُوه مِـنْ رُكُـوبِ الإِثْـمِ وَأَمَـرُوه باقْتِبَـاسِ العِلْـمِ
(٢٥٢) وَأَمَـرُوه بالتِـزَامِ الطَّاعَـةِ وَالمَـاءِ وَالقِبْلَـةِ والجَمَاعَـةِ
(٢٥٣) وَقَـرَّرُوا فِيـهِ شُرُوطَ التَّوْبَـة وَأَمَـرُوهُ بِلُـزُومِ الصُّحْبَـةِ
(٢٥٤) ثُـمَّ أَمَـدُّوه بِعِلْـمِ الظَّاهِـر حَتَّـى اسْـتَقَامَت عِنْـدَهُ السَّـرَائِر
(٢٥٥) حَتَّـى إذا انْقَـادَ إِلى الإِفَـادَةِ وَكَادَ أَنْ يَعْلُـوَ لـلإِرَادَةِ
(٢٥٦) إِذْ لِلمُرِيـدِ عِنْدَهُـمْ حُـدُود لأَجْلِهَـا قِيـلَ لَـهُ مُرِيـد
(٢٥٧) فَعِنْدَهَـا رُدَّ إِلى الأَوْرادِ كالذِكْـرِ والصَّـوْمِ مَـعَ السُّـهَادِ
(٢٥٨) وَعَامَلُـوه بالمُعَامَـلاتِ إِذْ عَلِمُـوا مِـنْ نَفْسِـهِ العِـلَّاتِ
(٢٥٩) وَلَمْ يُحِيلُـوه عَـلَى الحَقِيقَـةِ إذْ لَـمْ يَكُـنْ مُسْـتَوْفِي الطَّرِيقَـةِ
(٢٦٠) لَكِـنْ أَحَالُـوه عَـلَى الأَعْـمَالِ لأَجْـلِ مَـا فِيهَـا مِـنَ النَّـوَالِ[1]
(٢٦١) إِذْ الطَّرِيـقُ العِلْـمُ ثُـمَّ العَمَـل ثُـمَّ هِبَـاتٌ بَعْدَهَـا تُوَصِّـل[2]
(٢٦٢) حَتَّـى إِذَا أَحْكَـمَ عِلْـمَ الظَّاهِـر وَأَبْصَـروا القَبُـولَ فِيـهِ ظَاهِـر
(٢٦٣) أَلقَـوْا إِليـهِ مِـنْ صِفَـاتِ النَّفْـسِ مَـا كَانَ فِيـهِ قَبْلَهَـا مِـنْ لَبْـسِ
(٢٦٤) وَهِـي وَإِنْ أَنْكَرْتَهَـا فَلْتَعْـرِف إِحْـدَى وَتِسْـعِينَ وَقِيـلَ نَيِّـفْ

(١) وردت في شرح الشيخ زروق «المنال».

(٢) وردت في أصل المتن بلفظ (تؤمل)

(٢٦٥) فَجَرَّعُوها أَكْؤُسَ المَنُونِ وَهِي تُنَادي كَيْفَ تَقْتُلُوني

(٢٦٦) فَعِنْدَما مَالتْ إلى الزَّوَالِ أُدْخِلَ فِي خَلْوَةِ الاعْتِزَالِ

(٢٦٧) وَقِيلَ قُلْ عَلَى الدَّوَامْ: اللهْ وَاحْذَرْ كَطَرْفِ العَيْنِ أَنْ تَنْسَاهُ[1]

(٢٦٨) وَوَكَّلَ الشَّيخُ بِهِ خَدِيمَا يُلْقِي إليه القَوْلَ وَالتَّعْلِيمَا

(٢٦٩) وَقِيلَ إنْ تَكْتِمْ مِنَ الأَحْوَالِ شَيئًا سَلَكْتَ سُبُلَ الضَّلالِ

(٢٧٠) فَلَيْسَ عِنْدَ القَوْمِ باللَّبِيبِ مَنْ لَمْ يَصِفْ شَكْوَاهُ للطَّبِيبِ

(٢٧١) فَلَمْ يَزَلْ مُسْتَعْمِلًا للذِّكْرِ فَيَصْمُتُ اللِسَانُ وَهْوَ يَجْرِي

(٢٧٢) وَقَدْرَ مَا تَجَوْهَرَ اللِسَانْ بالاسْمِ يَسْتَثْبِتُهُ الجَنَانْ

(٢٧٣) ثُمَّ جَرَى مَعْنَاهُ فِي الفُؤَادِ جَرْيَ الغِذَا فِي جُمْلَةِ الأَجْسَادِ

(٢٧٤) فَعِنْدَمَا حَاذَى أَمِيرَ[2] القَلْبِ لَوْحُ الغُيوبِ وَهْوَ غَيْرُ مُخْبِ

(٢٧٥) فَأَدْرَكَ المَعْلُومَ وَالمَجْهُولا حَيْثُ اقْتَنَى لِدَرْكِهَا قَبُولا

(٢٧٦) حَتَّى إذَا جَاءَ لِطُورِ القَلْبِ خُوطِبَ إذْ ذَاكَ بِكُلِّ خَطْبِ

(٢٧٧) فَقَالَ لَوْ عَرَفْتَنِي بَكَوْنِي قِيلَ إذًا فَاخْلَعْ نِعَالَ الكَوْنِ

(٢٧٨) ثُمَّ فَنَى عَنْ رُؤْيَةِ العَوَالِمْ فَلَمْ يَرَ فِي الكَوْنِ غَيرَ العَالِمْ

(٢٧٩) ثُمَّ انْتَهَى لِفَلَكِ الحَقِيقَةْ فَقِيلَ هَذَا غَايَةُ الطَّرِيقَةْ

(٢٨٠) ثُمَّ امْتَحَى فِي غَيْبَةِ الشُّهُودِ وأَطْلَقَ القَوْلَ أَنَا مَعْبُودِ

(٢٨١) حَتَّى إذَا رُدَّ عَلَيهِ مِنْهُ أَدْرَكَ فَرْقًا حَيثُ لَمْ يَكُنْهُ

(٢٨٢) فَرُدَّ نَحْوَ عَالَمِ التَخْيِيلِ[3] وَعَبَّرُوا عَنْ ذَاكَ بالنُزُولِ

---

(١) وردت في شرح الشيخ زروق (واحذر بقدر طرف عين تنساه) والموافق للسياق ما أثبتناه من أصل المتن.

(٢) وردت في شرح الشيخ زروق (مرآة).

(٣) وردت في أصل المتن (التحويل).

(٢٨٣) وَرَدَّه بالحَقِّ نَحْوَ الخَلْقِ كَي مَا يُؤَدِّي وَاجِبَاتِ الرِقِّ

(٢٨٤) فَكَلَّمَ النَّاسَ بِكُلِ رَمْزِ وألغَزَ التَّعْبِيرَ أَيَ لُغْزِ

(٢٨٥) وَعِنْدَمَا أَسْلَكَهُ المَسَالِكْ أَقَامَهُ شَيْخًا لِكُلِّ سَالِكْ

(٢٨٦) فَهَذِهِ أَحْوَالُ ذِي الأَحْوَالِ تُدْرَكُ بالأَفْعَالِ لا الأَقْوَالِ

(٢٨٧) فَهَكَذَا كَانَ طَرِيقُ القَوْمِ وَلَمْ يَزَلْ يَخْصِمُ كُلَّ خَصْمِ

(٢٨٨) وَهِيَ إِذَا مَا حُقِقَتْ مَوَارِث عَنْ خَيرِ مَبْعُوثٍ وَخَيرِ وَارِث

(٢٨٩) وَهَكَذَا الشَّيخُ عَلَى التَّحْقِيقِ إِذْ كَانَ مِثْلَ سَالِكِ الطَّرِيقِ

(٢٩٠) وَمَنْ يَكُنْ بِهَذِهِ الأَوْصَافِ شَيخًا وَتِلْمِيذًا فَعَنْ إِنْصَافِ

(٢٩١) فَهَذِهِ لَوَازِمُ الأَحْكَامِ جِئْنَا بِهَا تَتْرَى عَلَى نَظَامِ

(٢٩٢) وَمَا ذَكَرْنَا فَهوَ كَالقَلِيلِ إِذْ اخْتَصَرْنَا خَشْيَةَ التَّطْوِيلِ

الفَصْلُ الرَّابِع

في الرد على من رده وليس يدري شأنه وقصده

(٢٩٣) هَـذَا الطَّرِيـقُ مِـنْ أجَـلِّ الطُّـرُقِ فَافْهَـمْ هُدِيـتَ وَاقْتَـدِهْ بِنُطْـقِ
(٢٩٤) إِنَّ العُلُـومَ كُلَّهَـا المَعْلُومَـة فُنونُهَـا فِـي هَـذِهِ مَتْهُومَـة[1]
(٢٩٥) إِذْ العُلُـومُ فِي مَقَامِ البَحْـثِ وَإِنَّ هَـذَا فِـي مَقَـامِ الإِرْثِ
(٢٩٦) وَمُنْكِـرُوهُ مَـلأٌ عَـوَامُ لَـمْ يَفْهَمُـوا مَقْصُـودَهُ فَهَامُـوا
(٢٩٧) وَكُلُّ مَـنْ أَنْكَـرَ مِنْـهُ شَـيْئًا فَإِنَّمَـا ذَاكَ لِسَبْـعٍ أَشْـيَا
(٢٩٨) لِجَهْلِـهِ بِنَفْسِـهِ الشَّرِيفَـة وَكَوْنِهَـا فِـي أَرْضِـهِ خَلِيفَـة
(٢٩٩) وَجَهْلِـه بِالعَـالَمِ المَعْقُـولِ وَشُـغْلِهِ بِظَاهِـرِ المَنْقُـولِ
(٣٠٠) وَسَـهْوِهِ عَـنْ عَمَـلِ القُلُـوبِ وَالخَوْضِ فِي المَكْرُوهِ وَالمَحْبُوبِ
(٣٠١) وَالجَهْـلِ بِالحَـلالِ وَالحَـرَامِ وَالمَيْـلِ عَـنْ مَوَاهِـبِ الإِلْهَـامِ[2]
(٣٠٢) وَاعْلَـمْ بِـأَنَّ عُصْبَـةَ الجُهَّـالِ بَهَائِـمٌ فِـي صُـورَةِ الرِّجَـالِ
(٣٠٣) وَمَـنْ أَبَـاحَ النَّفْـسَ مَـا تَهْـوَاهُ فَإِنَّمَـا مَعْبُـودُهُ هَـوَاهُ
(٣٠٤) تَـاللهِ مـا يَجْمُـلُ بِاللَّبِيـبِ جَهْـلُ البَعِيـدِ مِنْـهُ وَالقَرِيـبِ
(٣٠٥) كَيـفَ يُـرَى فِي جُمْلَـةِ السُّـبَّاقِ[3] مَـنْ حَظُّـهُ مِـنَ الحُظُـوظِ بَـاقِ

(١) وردت في شرح الشيخ زروق بلفظ (مفهومة) ولعله تصحيف من الناسخ إذ أن سياق الشرح جاء بلفظ (متهومة) ووفي شرح الشيخ ابن عجيبة أيضا (متهومة) فلذلك أثبتناه،والله تعالى أعلم .

(٢) وردت في شرح الشيخ زروق بلفظ (مذاهب الإفهام) ولعله تصحيف من الناسخ إذ أن سياق الشرح جاء بلفظ (المواهب الإلهامية) ووفي أصل المتن أيضا (مواهب الإلهام) فلذلك أثبتناه،والله تعالى أعلم .

(٣) وردت شرح الشيخ زروق بلفظ (حَلَبَةِ السِبَاقِ) والصواب ما أثبتناه من أصل المتن.

(٣٠٦) مَتَى يَجِدْ جَوَاهِرَ المَعَانِي مَنْ قَلْبُهُ عَلَى الدَّوَامِ عَانِي
(٣٠٧) لَمْ يَتصِلْ بَالعَالَمِ الرُّوحَانِي مَنْ عُمْرُهُ عَلَى الفُضُولِ حَانِي
(٣٠٨) لَيسَ يُرَى مِنَ المَعَالِي[1] دَانِ مَنْ قَلْبُهُ مِنْ عَالَمِ الأَبْدَانِ
(٣٠٩) مَتَى تَرِقُّ مَادَّةُ المَوْضُوعِ يَأخُذُ نَجْمُ الدَرْكِ فِي الطُّلُوعِ
(٣١٠) يَا حَسْرَتِي إِذْ لا نُجِدُّ رَاكِبْ يَصْحَبُنَا فِي هَذِهِ المَرَاكِبْ
(٣١١) يا مَعْشَرَ الإِخْوَانِ هَلْ مِنْ سَائِلْ أُخْبِرُهُ عَنْ هَذِهِ المَسَائِلْ
(٣١٢) وَأَسَفًا يَا فِتْيَةَ الوصُولِ عَنْ انْصِرَامِ حَبْلِهَا المَوْصُولِ
(٣١٣) لَوْ أَبْصَرَ الشَّخْصُ اللَبِيبُ العَاقِلْ لَمْ يُعْتَقَلْ عَنْ هَذِهِ المَعَاقِلْ
(٣١٤) يَا صَاحِبَ العَقْلِ الحَصِيفِ الوَافِرْ إِيَّاكَ أَنِ تَصْدِمَكَ الحَوَافِرْ[2]
(٣١٥) لَقَدْ غَدَا الكَوْنُ عَليكَ سَافِرْ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ كَمَا المُسَافِرِ
(٣١٦) يَا مُوثَقًا فِي وَثَقِ المَهَالِكِ[3] تَزْهُو أَرَاكَ اليَوْمَ زَهْوَ المَالِكِ
(٣١٧) يَا مَنْ أُعَانِيهِ عَلَى الدَّوَامِ حَتَّى م أَجْفَانُ الدَّوَا دُوَّامِ
(٣١٨) كَمْ أَنْتَ ذُو وَسَائِدٍ عِرَاضِ لَاهٍ عَنْ الجَوْهَرِ بالأَعْرَاضِ
(٣١٩) مَتَى تَعَدَّيتَ عَنْ الأَجْسَامِ أَبْصَرْتَ نُورَ الحَقِّ ذَا ابْتِسَامِ
(٣٢٠) مَهْمَا ارْتَقَيتَ عَنْ قَبِيلِ الحِسِّ أَدْرَكْتَ فِي نَفْسِكَ مَعْنَى النَّفْسِ
(٣٢١) يَا مَنْ عَلَى القِشْرِ غَدَا يَحُومُ حَتَّى عَلَى اللُّبِّ مَتَى تَصُومُ؟
(٣٢٢) يَا مَنْ إِذَا قِيلَ لَهُ تَعَالَ لِمَنْهَجِ التَّحْقِيقِ قَالَ: لَا لَا

(١) وردت في أصل المتن (مع المعاني)

(٢) ورد هذا البيت في شرح الشيخ زروق بلفظ (الوافي ، الحوافي) في نهاية مصراعي البيت ولامعنى (الحوافي) يفيد السياق وما أثبتناه من أصل المتن .

(٣) وردت في شرح الشيخ زروق «المهالك».

(٣٢٣) يَا جَاهِلًا مِنْ دَارِهِ سُكْنَاهَا ... وَهْوَ يُؤَدِي أبدًا كِرَاهَا
(٣٢٤) أَتَدْرِي مَنْ أَنتَ؟ وَكَيْفَ تَدْرِي ... وَأَنْتَ قَدْ عَزَلْتَ وَالِي الفِكْرِ
(٣٢٥) يَا سَابِقًا فِي مَوْكِبِ الإِبْدَاعِ ... وَلا حِقًا فِي جَيْشِ الاخْتِرَاعِ
(٣٢٦) اعْقَلْ فَأَنْتَ نُسْخَةُ الوُجُودِ ... للهِ مَا أَعْلَاكَ مِنْ مَوْجُودِ
(٣٢٧) أَلَيْسَ فِيكَ العَرْشُ والكُرْسِيُّ ... وَاللَّوْحُ[1] وَالعُلْوِيُّ وَالسُّفْلِيُّ
(٣٢٨) مَا الكَوْنُ إِلَّا رَجُلٌ كَبِيرُ ... وَأَنْتَ كَوْنٌ مِثْلُهُ صَغِيرُ
(٣٢٩) فَأَنْتَ لَسْتَ مِنْ قَبِيلِ الأَرْضِ ... حَتَّى إذا أُرْسِيتَ فِيهَا تَمْضِ
(٣٣٠) احْتَلْ عَلَى النَّفْسِ فَرُبَّ حِيلَةَ ... أَنْفَعُ فِي النُّصْرَةِ مِنْ قَبِيلَةَ
(٣٣١) يَا مُنْكِرَ المَعْقُولِ وَالمَعَانِي ... مَا الصُنْعُ فِي أَمْثِلَةِ القُرَآنِ
(٣٣٢) بعدًا أَرَى فِيكَ عَنْ الإِشَارَةْ ... هَلْ تُنْكِرَنَّ رُؤْيَةَ العِبَارَةْ[2]
(٣٣٣) يَا جَاهِلًا أَقْصَى الكَمَالِ وَقْفَا ... عَلَى عُقُولٍ وَهْمُهَا لا يَخْفَى
(٣٣٤) أَوَلُ أَطْوَارِكَ مُنْذُ أَوَّلِ ... فِي الحِسِّ والتَّمْيِيزِ وَالتَخَيُّلِ
(٣٣٥) فَالعَقْلُ والفِكْرُ مَعًا والذِّكْرُ ... هَيْهَاتَ بَلْ وَرَاءَ ذَاكَ طَوْرُ
(٣٣٦) مَا نَالَهُ الجُمْهُورُ والرُّوَادُ ... وَإِنَّمَا يَنَالُهُ الأَفْرَادُ
(٣٣٧) مُنْفَعِلًا يُدْعَى وَمُسْتَفَادا ... وَعَقْلَ تَخْصِيصٍ لِمَنْ أَرَادا
(٣٣٨) وَحَيْثُ فِيهِ يَنْتَهِي الوَلِيُّ ... فَمِنْ هُنَاكَ يَبْتَدِي النَّبِيُّ
(٣٣٩) وَفِيهِ تُجْلَى جُمَلُ المَعَارِفْ ... فَمَنْ رَآهَا قِيلَ فِيهِ عَارِفْ
(٣٤٠) وَهَذِهِ مَيَادِنُ الأَبْطَالِ ... لَيسَتْ لِكُلِّ جُبْنٍ بَطَّالِ

(١) وردت في أصل المتن «العالم».

(٢) وردت في أصل المتن (رواية العبارة).

(٣٤١) هَلْ يَصْلُحُ المَيْدَانُ للجَبَانِ ... هَـلْ يَكْمُـلُ الـزَرْعُ بِـلا إِبَّـانِ
(٣٤٢) مَا أَنْكَرَ النَّاسَ لَمَا لَمْ يَعْرِفُوا ... مَـا أَهْجَـرَ الـوُلَّافَ لمَـا لَـمْ يَأْلَفُوا
(٣٤٣) أَلَيْسَ قَدْ جُبِلَتِ العُقُولُ ... عَلَـى الـذي جَـاءَ بِـهِ التَنْزِيـلُ
(٣٤٤) هَلْ ظَاهِرُ الشَّرْعِ مَعْ الحَقِيقَة ... إِلَّا كَأَصْلِ الفَـرْعِ فِـي الحَدِيقَـة
(٣٤٥) وَالشَرْعُ جَارٍ وَصَحِيحُ العَقْلِ ... كَحَـذْوِكَ النَّعْـلَ مَعًـا[1] بِالنَّعْـلِ
(٣٤٦) مَـا مَثَـلُ المَعْقُـولِ وَالمَنْقُـولِ ... إِلَّا كَـدُرٍّ زَاخِـرٍ مَجْهُـولِ
(٣٤٧) حَتَّى إِذَا أَخْرَجَهُ الغَوَّاصُ ... لَـمْ يَـكُ للـدُرِّ إِذًا خَـلَاصُ
(٣٤٨) وَإِنَّـمَا خَلاصَـهُ فِي الكَشْـفِ ... عَـنِ الغِطَـاءِ حَيْـثُ لا يَسْـتَخْفِ
(٣٤٩) فَالصَـدَفُ الظَّاهِـرُ ثُـمَّ الـدُرُّ ... مَعْقُولُـهُ وَالجَهْـلُ ذَاكَ البَحْـرُ
(٣٥٠) وَإِنَّمَا المَعْقُولُ فِي شَكْلِ الحُرُوفِ ... كَمَا يَكُونُ الدُرُّ فِي جَوْفِ الصُدُوفِ
(٣٥١) هَلْ ظَاهِرُ الشَرْعِ وَعِلْمُ البَاطِنْ ... إِلَّا كَجِسْـمٍ فِيـهِ رُوحٌ سَـاكِنْ
(٣٥٢) لَوْ عَمِلَ النَّاسُ عَلَى الإِنْصَافِ ... لَـمْ تَـرَ بَيْـنَ النَّـاسِ مِـنْ خِـلافِ
(٣٥٣) وَاعْلَمْ رَعَاكَ اللهُ مِنْ صَدِيقِ ... أَنَّ الـوَرَى حَـادُوا عَـنْ التَحْقِيقِ[2]
(٣٥٤) إِذْ جَهِلُوا النُّفُوسَ وَالقُلُوبا ... وَطَلَبُـوا مَـا لَـمْ يَكُـنْ مَطْلُوبَـا
(٣٥٥) وَاشْـتَغَلُوا بعَـالَمِ الأَبْـدَانِ ... فَالـكُلُّ نَـاءٍ لَيْـسَ مِنْهُـمْ دَانِ
(٣٥٦) وَأَنْكَـرُوا مَـا جَهِلُـوا وَزَعَمُـوا ... أَنْ لَيْـسَ بَعْدَ الجِسْـمِ شَـيءٌ يُفْهَـمْ
(٣٥٧) وَكَفَّـرُوا وَزَنْدَقُـوا وَبَدَّعُـوا ... مَـنْ إِنَّـهُ هُـوَ اللَبِيـبُ الأَوْرَعُ[3]

---

(١) وردت في أصل المتن «أخي».

(٢) وردت في أصل المتن «الطريق».

(٣) ورد هذا الشطر في أصل المتن (إذا دعاهم اللبيب الأورع)

(٣٥٨) كُلٌّ يَرَى أَنْ لَيْسَ فَوْقَ فَهْمِهِ ... فَهْمٌ وَلا عِلْمٌ وَرَاءَ عِلْمِهِ
(٣٥٩) مُحْتَجِبًا بِحُجُبِ المَرَاتِبْ ... عَلَّ يُسَمَّى عَالِمًا وَطالِبْ
(٣٦٠) هَيْهَاتَ هَذَا كُلُّهُ تَقْصِيرُ ... يَأْنَفُهُ الحَاذِقُ وَالنِحْرِيرُ
(٣٦١) فَمَنْ يَرِدْ مَوَارِدَ المَوَاهِبْ ... فَكَيْفَ يَرْضَى هَذِهِ المَذَاهِبْ[1]
(٣٦٢) وَالعِلْمُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ حَدُّ ... بَلْ ظَاهِرٌ يَخْفَى وَخَافٍ يَبْدُو
(٣٦٣) وَالعِلْمُ لَوْ كَانَتْ لَهُ نِهَايَة ... يُوقَفُ عِنْدَ حَدِّهَا وَغَايَة
(٣٦٤) مَا كَانَ أَزْكَى مُرْسَلٍ وَأَسْمَى ... قِيلَ لَهُ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمَا
(٣٦٥) فَعِشْ بِمَا لَدَيْكَ مَا حَيِيتَ ... وَجَنِّبْ التَعْنِيفَ وَالتَعْنِيتَ
(٣٦٦) وَالكُلُّ قَدْ يُعْجِبُهُ الكَلَامْ ... فَالْزَمْ هُدَى نَفْسِكَ وَالسَّلامْ

---

(١) في أصل المتن وردت بلفظ (الغياهب).

الفَصْلُ الخَامِسُ
في فقراء العصر ومتشبهة الوقت

(٣٦٧) وَإِذْ عَلِمْتَ كَيفَ كَانَ الحَالُ ... وَالشَّـيخُ وَالتِلْمِيذُ ثُمَّ حَالُ
(٣٦٨) فَاعْلَمْ بِأَنَّ أَهْلَ هَذَا العَصْرِ ... قَدْ شُغِلُوا بِمُحْدَثَاتِ الأَمْرِ
(٣٦٩) إِذْ أَحْدَثُوا بَينَهُمْ اِصْطِلاحَا ... لَمْ أَرَ للدِّينِ بِهِ صَلاَحَا
(٣٧٠) وَصَنَّفُوا بَيْنَهُمْ أَحْكَامَا ... أَكْثَرُهَا كَانَتْ لَهمْ حَرَامَا
(٣٧١) وَانْتَهَجُوا مَنَاهِجًا مَنْكُوسَة ... وَارْتَكَبُوا طَرِيقَةً مَعْكُوسَة
(٣٧٢) قَدْ كَانَ تَاللهِ طَرِيقًا قَاصِدَا ... وَالآنَ مَا يَلْقَى عَلَيْهِ وَارِدَا
(٣٧٣) وَهَذِهِ طَرِيقَةٌ قَدَ دَرَسَتْ ... وَشَجَرٌ أَغْصَانُهَا قَدْ يَبِسَت
(٣٧٤) كانت إِذًا مواردًا شَرِيفَة ... فَاسْتُبْدِلَتْ مَذَاهِبًا سَخِيفَة
(٣٧٥) قَدْ أُسِستْ عَلَى صَحِيحِ العَقْلِ ... وَأُسُّهَا الآن بمَحْضِ الجَهْلِ
(٣٧٦) يُدْعَى الذي يَمْشِي عَلَيْهَا سَالِكْ ... وَسَالِكُوهَا اليَوْمَ حِزْبٌ هَالِكْ
(٣٧٧) عَاشَ بِهَا القَوْمُ بِخَيْرِ عِيشَةْ ... فَصُيِّرَتْ مِنْ بَعْدِهِمْ مَعِيشَةْ
(٣٧٨) كَانَتْ تُضَاهِي الكَوْكَبَ المُنِيرا ... وَالآنَ أَضْحَتْ حَائِطًا قَصِيرا
(٣٧٩) إِذْ صَارَ لا يُعْلَمُ مِنهَا إِلّاَ ... أَكْلًا ورَقْصًا وَغِنًى وَذُلّاَ[١]
(٣٨٠) كَانَتْ عَلَى الإِنْصَافِ وَالنَّصِيحَة ... فَهِي عَلَى الإِسْرَافِ وَالفَضِيحَة
(٣٨١) تُعْرَفُ بالخُلُقِ وَبالإِيثَارِ ... وَالآنَ بالحِقْدِ وبالإِقْتَارِ[٢]

---

(١) وردت في أصل المتن (سؤلا).

(٢) وردت في أصل المتن «الاحتقار».

(٣٨٢) كَانَتْ أَجَلَّ غِبْطَةٍ وخُطَّةٍ   وَالآنَ فِيهَا بِدْعَةٌ وَحِطَّةٌ
(٣٨٣) كَانَتْ عَلَى مُجَرَّدِ الصِّيامِ   وَالآنَ فِي مُجَرَّدِ الطَّعَامِ
(٣٨٤) وَفِي السَّمَاعِ كَانَ غَلْقُ البَابِ   وَالآنَ عِنْدَ جِفْنِ جَوَابِ
(٣٨٥) وَقَوْلُنَا الشُّيوخُ والإِخْوَانُ   هُمُ الذِينَ سَلَفُوا وَبَانُوا
(٣٨٦) مَاتُوا وَلَمْ يَتْرُكُوا مِنْ وَارِثٍ   إِذْ هَؤُلاءِ اليَوْمَ[1] كَالبَرَاغِث
(٣٨٧) فَكُلُّ مَا اليَوْمَ عَلَيْهِ النَّاسُ   مِنْ مُدَّعِينَ الفَقْرِ فِيهِ بَاسُ
(٣٨٨) إِذْ نَقَضُوا الأُصُولَ وَالأَرْكَانَا   وَصَيَّرُوه فِي الوَرَى مُهَاناً
(٣٨٩) وَهَدَمُوا بُنْيَانَهُ المُشَيَّدَا   وَصَيَّرُوه مُخْمَلًا وَمُخْمَدا
(٣٩٠) وَنَثَروا الفُرُوعَ والأَصُولا   وَجَعَلُوا مَعْلُومَهَا مَجْهُولا
(٣٩١) وَاحْتَسَبُوا فِيهَا بِغَيْرِ حِسْبَة   وَصَيَّرُوهَا ضُحْكَةً وَلُعْبَة
(٣٩٢) وَجَعَلُوهَا للغَنِّي مَغْرَمَا   وَللفَقِيرِ نُهْبَةً وَمَغْنَمَا
(٣٩٣) وَافْتَضَحُوا وَاصْطَلَحُوا لَدَيْهَا   فَصَارَ مَا كَانَ لَهَا عَلَيْهَا
(٣٩٤) لَوْ عَلِمُوا [جهالةً][2] مَا صَارُوا   حَيْثُ انْتَهَوْا تَرْشُقُهُم أَبْصَارُ
(٣٩٥) لَوْ لَمْ يَكُنْ بَعْضٌ لبَعْضٍ عَاكِس   مَا لُقِّبُوا بِعُصْبَةِ الكَسَاكِس
(٣٩٦) حُقَّ لِمَنْ كَانَ عَلَيهِمْ مُنْكِرا   إِذْ إِنَّمَا يُبْصِرُ مِنْهُمْ مُنْكَرَا
(٣٩٧) عَارٌ بِمَنْ لم يَرْضَ العُلُومَا   وَيَعْلَمَ الموجُودَ وَالمَعْدُومَا
(٣٩٨) وَلَمْ يَكُنْ فِي بَدْئِهِ فَقِيهَا   وَسَائِرَ الأَحْكَامِ مَا يَدْرِيهَا
(٣٩٩) والحَدَّ وَالأُصُولَ وَاللِسَانَا   وَالذِّكْرَ وَالحَدِيثَ وَالبُرْهَانَا

(١) وردت في شرح الشيخ زروق بلفظ «القوم».

(٢) وردت بالأصول: «مَا جَهِلُوا» وهو مخالف من الناحية العروضية وما أثبتناه هو الصواب.

(٤٠٠) وَلَمْ يَكُنْ أَحْكَمَ عِلْمَ الحَالِ وَلا دَرَى مَقَاصِدَ الرِّجَالِ
(٤٠١) وَلَمْ يُنَزِّه صِفَةَ المَعْبُودِ أَوْ يَدْرِ كَيفَ رُتْبَةُ الوجُودِ[1]
(٤٠٢) وَالنَّفْسَ وَالعَقْلَ مَعًا وَالرُّوحا أَوْ يَدْرِ مَعْنَى صَدْرِهِ المَشْرُوحا
(٤٠٣) وَعِلْمَ سِرِّ النَّسِخِ وَالمَنْسُوخِ أَنْ يَتَعَاطَى رُتَبَ الشُّيوخِ
(٤٠٤) يَا عَجَبًا مِنْ جَاهِلٍ مَبْدَاهُ فِي رُتَبِ الكَوْنِ وَمُنْتَهَاهُ
(٤٠٥) كَيفَ يَهْدِّي وَهُو لَمْ يُهْدَى لَقَدْ عَدَى ظُلْمًا لَقَدْ تَعَدَّى
(٤٠٦) مَنْ لَمْ يَنَلْ مَرَاتِبَ الإِرَادَةْ كَيفَ يُوَطِي لِلهُدَى سِجَّادَةْ
(٤٠٧) كَيفَ يَدُلُّ طُرُقَ الأَسْفَارِ مَنْ لَمْ يَزَلْ فِي جُحْرِهِ كَالفَارِ
(٤٠٨) أَلَيْسَ هَذَا كُلُّهُ مُحَالُ لَمْ يَسْتَقِمْ لِشَخصٍ مِنْهُ حَالُ
(٤٠٩) يَا قَاصِدًا عِلْمَ الطَّرِيقِ السَّالِف لا تَقْتَدِه بِهَذِهِ الطَّوَائِف
(٤١٠) مَا مِنْهُمْ مَنْ عَلِمَ المَقْصُود مِنْهُ وَلا الوَارِدَ وَ المَوْرُود
(٤١١) لَمْ يَعْرِفُوا حَقِيقَةَ الطَّرِيقَة فَالقَوْمُ جُهَّالٌ عَلَى الحَقِيقَة
(٤١٢) فَاحْذَرْهُم خَشْيَةَ يَفْتِنُوكَا وَاتْرُكْ سَبِيلًا لَمْ يَزَلْ مَتْرُوكَا
(٤١٣) فَإِنْ غَدَا الأَمْرُ عَلَيكَ مُشْكَلا وَشِئْتَ أَنْ تَعْلَمَهُ مُفَصَّلا
(٤١٤) فَسَوْفَ أُلْقِي لَكَ قَوْلَ حَاذِقِ يَفْرُقُ بينَ المُدَّعِي وَالصَّادِقِ
(٤١٥) قَوْلُ الفَقِير: إِنَّنِي فَقِيرُ فَلِلظُّهُورِ أَبَدًا يُشِيرُ
(٤١٦) وَبَسْطُهُ إِنْ كَانَ غَيرَ عَارِفِ سَخَافَةٌ[2] لَيسَتَ مِنَ المَعَارِفِ
(٤١٧) وَقَبْضُهُ وَلَيسَ ذَا إِرَادَةْ فَهُوَ عَلَى غَيْرِ طَرِيقِ السَّادَةْ

(١) وردت في أصل المتن «ولا درى مراتب الوجود».

(٢) وردت في شرح الشيخ زروق (مخافة) و لا معنى لها وما أثبتناه من أصل المتن موافق للسياق.

(٤١٨) وَأَخْــذُهُ مِمَّــا بِأَيْــدِي النَّــاسِ | دُونَ اضْطِـرَارٍ فَهْـوَ ذُو إِفْـلاسِ
(٤١٩) وَلُبْسُــهُ مَــا كَانَ ذَا اشْــتِهَارِ | فَسِـرُّهُ عَـارٍ عَـنْ الأَسْـرَارِ
(٤٢٠) وَأَكْلُــهُ مِــنْ سَــائِرِ المَــآكِلِ | دُونَ انْتِهَـاءٍ فَهْـوَ غَيْـرُ وَاصِـلِ
(٤٢١) وَسَمْعُهُ مُوَاقِعَ الأَلْحَانِ | بِغَيْـرِ مَوْتِ النَّفْسِ فَهْـوَ عَـانِ
(٤٢٢) وَحُبُّــهُ السَّــمَاعَ لا مَحَالَــةَ | بَقِيَّــةٌ فِيــهِ مِــنْ البَطَالَــةِ
(٤٢٣) وَرَقْصُــهُ فِيــهِ بِغَــيْرِ وَارِدِ | يَسْـلُبُهُ عَنْـهُ فَقِيـرٌ وَارِدِ
(٤٢٤) وَأَخْــذُهُ الخِلَــعَ بَعْــدَ الخَلْــعِ | بُعْـدٌ عَـنْ الجَمْـعِ[1] بِعَيْـنِ الجَمْعِ
(٤٢٥) وَحَطُّــهُ الـرَّأْسَ بِغَــيْرِ جُـرْمِ | عَلَـى أَخِيـهِ غَيْـرُ فِعْـلِ القَـوْمِ
(٤٢٦) وَقَدْ ذَكَرْنَا حُكْمَ الاسْتِغْفَارِ | أَعْنِـي القِيَـامَ لَيْسَ عُرْفًـا جَـارِي
(٤٢٧) وَمَيْلُــهُ لِلعُــرْبِ وَالأَعَاجِــمِ | عِلَّـةُ نَفْـسٍ وَهْـوَ فِيـهِ آثِـمِ
(٤٢٨) سَــفَرُهُ إِنْ لَمْ يَكُــنْ إِلَيْــهِ | مِنْـهُ فَـلا حَقِيقَـةً لَدَيْـهِ
(٤٢٩) وَإِنْ أَشَــارَ لِلمَــرَامِ الأَوَّلِ | وَجَهِـلَ العَقْـلَ فَعَنْـهُ فَاعْـدِلِ
(٤٣٠) أَوْ قَــالَ بِالطَّــوْرِ وَالحُلُــولِ | فَبِدْعَـةٌ تَقْـدَحُ فِـي الأُصُـولِ
(٤٣١) وَقَوْلُــهُ أَنَــا الَّــذِي أَهْــوَاهُ | قَبْـلَ الفَنَـا عَنْـهُ فَمَـا أَقْصَـاهُ
(٤٣٢) أَوْ يَدَّعِــي فِي عِلْمِــهِ اللَّــدُنِّي | بِـلا تُقَـىً فَـذَاكَ غَيْـرُ سُـنِّي
(٤٣٣) وَحُكْمُــهُ إِنْ كَانَ فَــوْقَ الحَـالِ | فَـذَاكَ مَقْطُـوعٌ عَـنْ الرِّجَـالِ
(٤٣٤) أَوْ قَــالَ: إِنِّي الشَّــيْخُ فَاتْبَعُــونِي | بِغَيْـرِ عِلْـمٍ فَهْـوَ ذُو جُنُـونِ
(٤٣٥) أَوْ قَــالَ: صُــوفِيٌّ أَنَــا وَلَمَّــا | يَعْلَمْ حُـدُودَ النَّفْسِ فَهْـوَ أَعْمَى
(٤٣٦) وَحُبُّــهُ القَــوْمَ بِــلا اتِّبَــاعِ | لَيْـسَ لَـهُ فِيـهِ مِـنْ انْتِفَـاعِ

---

(١) وردت في شرح الشيخ زروق بلفظ «الحق».

(٤٣٧) وَفِعْلُهُ مَا فِي عُمُومِ الشَّرْعِ | يَمْنَعُهُ النَّصُّ فَفِعْلٌ بِدْعِي
(٤٣٨) فَإِنْ تَشَيَّخَ بِغَيْرِ إِذْنِ | مِنْ شَيْخِهِ بَاءَ بِكُلِّ غَبْنِ
(٤٣٩) فَهَذِهِ وَشِبْهُهَا مَوَانِع | وَهِي عَنِ الطَّرِيقِ كَالقَوَاطِع
(٤٤٠) هَلْ هِيَ إِلَّا عِلَلٌ فِي الفَقْرِ | جَالَدَهَا كُلُّ جَلِيدٍ صَقْرِ
(٤٤١) حَتَّى إِذَا جَدَّلَهَا صَرِيعَة | لَمْ يَتَوَقَّعْ بَعْدَهَا وَقِيعَة
(٤٤٢) يَا صَاحِ لا يَفْتِنْكَ الزَّمَانُ | فَهَا لَدَيْكَ الشَّرْحُ وَالبَيَانُ
(٤٤٣) فَالحَقُّ لا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ | وَالعَيْنُ لا تَصْلُحُ بِالمُحَالِ
(٤٤٤) وَالحَقُّ فِي كُلِّ الأُمُورِ أَوْلَى | لَوْ رَامَهُ البَاطِلُ لاضْمَحَلَّا
(٤٤٥) وَإِذْ عَلِمْتَ سَنَنَ الأَقْوَام | فَهَا لَدَيْكَ القَوْسُ وَالمَرَامِي

خاتمة

(٤٤٦) هَذَا هُوَ الطَّرِيقُ فَاقْصِدْ جُلَّهُ | فَقَدْ جَعَلْنَا لَكَ مِنْهُ جُمْلَهُ
(٤٤٧) وَقَدْ ذَكَرْنَا كُلَّ مَا اشْتَرَطْنَا | وَهَا عَلَى آخِرِهِ أَتَيْنَا
(٤٤٨) وَفَّقَنَا اللهُ إِلَى التَّوْفِيقِ | وَقَادَنَا لِقَادَةِ التَّحْقِيقِ
(٤٤٩) وَبَعْدَ هَذَا فَصَلاةُ اللهِ | تَتْرَى عَلَى الهَادِي العَظِيمِ الجَاهِ
(٤٥٠) مَا غَرَّدَتْ وَرْقَاءُ فِي الأَغْصَانِ | وَحَنَّ مُشْتَاقٌ إِلَى الأَوْطَانِ
(٤٥١) وَالحَمْدُ للهِ الَّذِي خَتَمْنَا | بِحَمْدِهِ كَمَا بِهِ بَدَأْنَا

تم بحمد الله

اللوائح الفاسية

في

شرح المباحث الأصلية

على

جملة الطريقة الصوفية

تأليف العارف بالله

أبي العباس أحمد زروق الفاسي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما أوضح من الحق والبيان، وأظهر من الحجة والبرهان، وبيَّن من طرائق العرفان، وصلواته التَّامة على سيد أنبيائه، وخاتم الرسل المتحققين بولائه، المختص بالحمد ولوائه، وعلى آله وأصحابه، وعترته وأحبابه، وكل مؤمن منتسب لجنابه، والسلام التام الشامل كذلك، والحمد لله على ذلك.

هذه -إن شاء- الله نكتة واضحة مختصرة جليلة، تسفر عن بعض معاني ما تضمنته المباحث الأصلية، حسبما انتهى إليه فهمي القاصر وعلمي القصير، وقدر ما يقضي به الحق تعالى من الوسع والتوسعة والتيسير، والله أسأل أن ينفع به من قصده، ويفتح بمقصوده على من اعتمده، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، محفوفًا بالقبول والتحكيم، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثم أقول: مؤلف هذه الأرجوزة هو الشيخ الفقيه الصالح الناصح أبو العباس أحمد بن البنا السَّرَقُسْطِيِّ، لم يكن مشهورًا بالعلم مع ما له فيه من القدم الراسخ الذي دلَّ عليه كلامه بعد في عجائب مدينة فاس إذ كان من عامتها وأَلَفَّ كابن أبي زرعة صاحب التاريخ وغيره وكذا ذكر بعض عدول بلدنا عن صاحب له عدل وأنه ألف في التاريخ وذكره بما قلناه، ولم نقف على تاريخ وفاته ولا زمانه غير أن الظن الغالب أنه قريب العهد رحمة الله عليه ورضوانه لديه.

وهذا أول كتابه:

(١) بِسْـــمِ الإِلَـــهِ فِي الأُمُــورِ أَبْــدَأُ   إِذْ هُـــوَ غَايَـــةٌ لَهَــا وَمَبْــدَأُ
(٢) وَالحَمْـــدُ لله وَلِي الحَمْـــدِ   هَــدَى إِلَى الحَـــقِّ وَنَهْـجِ الرُّشْـــدِ
(٣) ثُـــمَّ صَـــلاَةُ الله وَالسَّـــلاَمُ   عَلَى الرَّسُولِ[1] ما انْجَلَى الظَّلاَمُ

قلت: بدأ بالبسملة لأن اسم الحق تعالى بركة كل شيء ووجوده، إليه منتهى كل شيء بدءًا وعَودًا فالمرجع إليه أولا وآخر إذ لا غنى لشيء عنه سبحانه، وفي الخبر «من أراد أن يحيا سعيدًا ويموت شهيدًا فليقل عند ابتداء كل شيء بسم الله»[2]الحديث، وثَنَّى بالحمد لقوله: عليه السلام «كل أمر ذي بال لا يُبتدأ فيه بالحمد لله فهو أجزم[3]، ويروى: فهو أقطع»[4] وروي: «ابتدئ غير تام». رواه أبو داود.

و(الحَمْدُ) هو الثناء الجميل سواء تعلق بالفضائل وهي الصفات أو تعلق بالفواضل وهي الأفعال.

ومعنى (وَلِي الحَمْدِ) الذي يستحق الحمد سواء لكمال وصفه، ولا يصح أن يحمد غيره حق الحمد. لأن الثناء تابع للمعرفة ولا يعرف الله إلا الله فلا شيء يثني عليه حق الثناء سواه.

---

(١) وردت في أصل المتن بلفظ «النبي».

(٢) قد ذكره الشيخ الدمياطي في مقدمة كتابه «إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين»في فقه الشافعية، ولم أجد ذكره عند غيره.

(٣) بلفظ «أجزم» أخرجه أبو داود (٤٨٤٠).

(٤) بلفظ «أقطع» أخرجه النسائي (١٠٢٥٥)، وابن حبان في صحيحه (١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٦٦٨٣).

ومعنى (هَدَى) أرشد. (الحَقُّ) ضدّ الباطل، وهو هنا ما جاء عن الله ورسوله.

و(النَهْجُ) الطريق، و(الرُّشْد) ما يتوصل به لمنافع الدين والله أعلم.

(والصَّلاة) من الله تعالى: الإقبال بزيادة التشريف والإكرام. (والسَّلامُ) من السلامة. (والرَّسُولِ) هنا محمد صلى الله عليه وسلم تسليمًا.

وقوله: (ما انْجَلَى الظَّلَامَ) يعني ما دامت الدنيا، إذ انجلاء الظلام لا يفارق وجودها ثم تخلَّص[1] للبداية فيما يريده، فقال رحمه الله تعالى:

(٤) يَـا سَـائِلِي[2] عَـنْ سَـنَنِ الفَقِـيرِ سَــأَلْتَ مَـا عَـزَّ عَـنْ التَّحْرِيـر

(٥) إِنَّ الـذي سـأَلْتَ عنـهُ مَاتَـا وصـارَ بَعْـدُ أَعْظُـمًا رُفَاتَـا

(٦) فَطُمِسَـتْ أَعْلامُـهُ تَحْقِيقَـا فَلَـمْ تَجِـدْ بَعْـدُ لهـا طَرِيقَـا

قلت: (السَّنن) الطريق بفتح السين ومعناها ما يحتوى أي يسلطه عليه[3]. و(الفَقِيرِ) هنا المتوجه للحق على بساط الصدق، وقد يريد السنن التي يصير بها السالك فقيرًا، أي متحققاً بالفقر وهي أعلى رتبة في التصوف، إذ الصوفي من صفا عن كل خلق مذموم، والفقير من لم تبق فيه بقية لغير الحق سبحانه، هذا ما اختاره جماعة المشايخ.

وقيل هما مترادفان وهو ظاهر مواضع من هذا الكتاب ومرجع ذلك إلى

---

(١) حُسْن التخَلُّص: هو أن ينتقل الشاعر مما ابتدئ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاسا دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلّا وقد وقع الثاني لشدة الالتئام بينهما. انظر «كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي ج١ صـ٣٦٨.

(٢) في بعض النسخ «يا سائلاً»

(٣) موضع ملتبس.

اصطلاح والله أعلم.

ومعنى (عَنْ التَّحْرِيرِ) امتنع تحريره أي تنقيحه واستخراج المقصود منه، وذلك لما دخل عليه من التخليط والتخبيط الذي ألحقه به أهل التوسم في هذه الأزمنة مع اختفاء مواده ومداركه فكان ذلك طمسًا له، وإذهابًا لآثاره بحيث صار لا يعرفه أحد على وصفه بل يصفه بخلاف وصفه ويأتي به على غير وجهه؛ وذلك موته وفناؤه حتى صار في مَعَدِّ الرُّفَات التي صارت مع أجزاء التراب كأنها هي فلا يمكن تخليصها منها.

ومعنى (طُمِسَتْ) غيبت وعميت. (وأعلام) الشيء: ما دل على وجوده، وإنما لم يوجد لها طريق لغلبة الجهل على الناس فلا تكاد توجد إلا من يدعو إلى بدعة وشر، ويقول هو عين الطريق فإذا خولف في ذلك رمى المُنكِر بالجهل والبعد عن الطريق ونحو ذلك، وربما أخذه من الاستدلال لما يعتقده أو ينتجه بالباطل، فضلَّ وأضَلَّ.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما: «إن الله لا يقبض العلم ينتزعه انتزاعًا من العباد ولكن يقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالًا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[1] رواه البخاري وغيره. ويرحم الله الشيخ أبا مدين حيث قال في قصيدته الرائية:

واعلم بأنَّ طريق القوم دارسة وحال من يدعيها[2] اليوم كيف ترى

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله عنه في صدر رسالته[3]: «ثم اعلموا -رحمكم

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

(٢) وردت بالأصل (يدعيه) وما أثبتناه من النسخة (ب).

(٣) «الرسالة القشيرية» للإمام أبي القاسم القشيري المتوفى سنة ٤٦٥هـ. انظر ج١ صـ١٦.

الله- أن المتحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق في زماننا من هذه الطريقة إلا أثرهم، وقيل في معناه:

أمّا الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحي غير نسائها[1]

وقال الشيخ محيى الدين ابن عربي[2] عفا الله عنه: قال هذا في زمانه حيث أدرك من تزيًّا بزي القوم وخالفهم في باطنهم فأما اليوم والحمد لله فلا خيام ولا نساء.

ثم قال الأستاذ رحمه الله[3]:

«حصلت الفترة في هذه الطريقة، لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة: مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء، وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء، وزال الورع وطوى بساطه، واشتد الطمع وقوى رباطه.

وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعَدُّوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام. ودانوا بترك الاحترام، وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات وركنوا إلى اتباع الشهوات، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات، والارتفاق بما يأخذونه من السوقة، والنسوان، وأصحاب السلطان» انظر كلامه فقد اقتصرت منه على هذا الطول، وبالله

---

(١) وردت في الأصل (نسائهم) وما أثبتناه من نص كتاب «الرسالة القشيرية»؛ وهذا البيت من شعر الشيخ أبي بكر الشبلي المتوفى سنة ٣٣٤هـ.

(٢) هو الشيخ الأكبر والعلم الأشهر، محي الدين، محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ انظر ترجمته في «الوافي بالوفيات» للصفدي (٤/ ١٢٤).

(٣) أي القشيري رحمه الله.

التوفيق. ثم استثنى المؤلف مما ذكر رسومًا لم تزل موجودة يدركها من بحث عنها. فقال رحمه الله:

(٧) إِلَّا رُسُومًا رُبَّمَا لم تعفُ وَذَاكَ مَا نَتْبَعُهُ ونقْفُ
(٨) وَهَبْكَ أَنْ تَظْفَرَ بِالأَوطَانِ ما السِرُّ والمَعَنَى سِوَى القُطَّانِ[1]

قلت: (الرُّسوم) الآثار الدالة على المقصود بظاهرها مع خفائها.

ومعنى (لم تعفُ) لم تذهب آثارها.

ومعنى (نقْفُ) نتبع من غير ميل حتى كأنه شيء أنت سائر في فعله من غير حيرة، وهذه الرسوم هي ما دل عليه كلام القوم في كتبهم وإشاراتهم من حقيقة وطريقة وفرض بالناس لذلك مثلا فقالوا: تشاجر الحق والباطل فقتله الباطل وخاف أن يُطلب به فحرقه فجاء أهله فلم يجدوه إلا رمادًا، فعملوا منه حبرًا وكتبوا به الكتب فمن أراد الحق فعليه بالكتب. وإلى هذا أشار الشيخ أبو مدين ﷺ حيث قال:

لازلتُ عنهم وأنَّى لي برؤيتهم أُسَائِلُ الكُتُبَ كي أستفْهِم الخَبَرا[2]

(وَهَبْكَ) معناه: دعك. (أَنْ تَظْفَرَ بِالأَوطَان)، يعني الزوايا والمشيخة والمريدين

---

(١) في بعض النسخ زيادة بيت لم يتعرض له الشارح هنا وذكره الشيخ ابن عجيبة في شرحه على المباحث وهو قوله:

وقَلَّ أنْ تلقى لها مساعدا بل منكرًا أو ناقدًا أو جاحدا

(٢) هذا البيت من القصيدة الرائية في ذكر أهل الطريق، للشيخ أبي مدين الغوث دفين تلمسان المتوفى سنة ٥٩٤ هـ، والتي مطلعها :

ما لـذَّةُ العيشِ إلّا صحبةُ الفقرا هم السلاطينُ والساداتُ والأُمَرَا

ونحو ذلك فليس السر ذلك.

(ما السِرُّ والمَعَنَى) المطلوب (والمَعَنَى) المرغوب (سوى قُطَّانِ) المحَالِّ، أي: سكانه؛ فالسر في السكان لا في المنزل ثم الصور معتبرة بحقائقها فإذا رأيت صورة فانظر إن كان ثَمَّ ما يعول عليه من حالهم أو صالح أعمالهم أو واضح علومهم فذاك وإلا فلا عبرة، لأن الضُّرَّ به مع فقدان ذلك أكثر من النفع، فلا تغتر بزي ذوي التزيي، ولكن انظر إلى حقائق الأمور.

فقد قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ولا إلى أحوالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم فخير القلوب ما رقَّ وصفا، وشر القلوب ما غلظ وجف»(١).

وقال ابن عطاء الله ﷺ: «لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله وربما كنت مسيئا فأراكَ الإحسانَ منك صحبتُك إلى من هو أسوء حالًا منك»٢

وكان بعض المشايخ المتأخرين يقول: الصلاة عادة والصوم جلادة جربوهم في الكَنبُوشِ (٣)يعني المرأة، والمنقوش يعني الدرهم.

وقال سهل بن عبد الله ﷺ(٤) : احذر صحبة ثلاثة من أصناف الناس: الجبابرة

---

(١) لم أجده بلفظه، لكن روى الإمام مسلم قريبا منه في صحيحه برقم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة قال « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ورواه ابن ماجة برقم (٤١٤٣).

(٢) «الحكم العطائية» ؛ الحكمة رقم (٤١).

(٣) الكَنبُوشِ: هو برقع يغطى به الوجه، وكنَّى به هنا عن المرأة كما ذكر.

(٤) هو أبو محمدٍ سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رُفَيْعٍ التُّسْتَرِيُّ من كبار أئمة القوم توفي

الغافلين، والمتصوفة الجاهلين، والقراء المداهنين. قلت: وذلك لأن كل واحد منهم ضال مُضِلٌّ بفعله، ودواعي قوله -مع كونه في محل تميل النفوس إليه- فالجبار الغافل ميت القلب، ولا يستفاد من الحية غير السُم، والقارئ المداهن يروج الحق بالباطل ويوجهه بالتأويل، والصوفي الجاهل مغير للدين قائم بالبدع ظاهر بالدعاوى بعيد عن الحق وإن شم رائحة الحقيقة. فاسأل الله السلامة منهم بمنه، ثم ذكر الشيخ استصعاب المسألة فيما علم منها وأنها قليلة التخليص. فقال رحمه الله:

(٩) وهَـــذِهِ مَسْـــأَلَةٌ مُعْتَاصَـــةْ لَمْ يَجِـــدْ الحِـــبْرُ لهـــا خُلاصَـــةْ
(١٠) لِأَنَّهَـــا مَسْـــأَلَةٌ غَرِيبَـــةْ حَقِيقَـــةُ الجَـــوابِ عنْهَـــا رِيبَـــةْ

قلت: أما اعتياصها فلأنها تستدعي تقرير معان وتحقيق شأن، وإلا لم يُوصَل للعلم بحقيقتها، إلا قدرًا منها، وهذا النوع قد اعتنينا به في كتاب «تأسيس القواعد»(١) فانظره.

وأما كون الحبر الذي هو العالم المتبحر لم يجد لها خلاصة فلتوقف أمرها على الذوق. والقبح والذوق أمر وجداني لا تصح العبارة عنه بل لا يجاء إليه بوجه لا يمكن إنكاره لارتباطه بالمعلومات الشرعية والعقلية غير أن حقيقته بعيدة عن مدارك العقول القياسية، فافهم.

سنة ٢٨٣ هـ، انظر ترجمته في «الرسالة القشيرية» (١/ ٥٩) وفي «حلية الأولياء» (١٠/ ١٨٩).

(١) «تأسيس القواعد والأصول وتحصيل الفوائد لذوي الوصول» وهذا المؤلف هو نفسه كتاب «قواعد التصوف».

ولهذا قال مشايخ الطريق: المنكر علينا كالعِنِّين[1] ينكر شهوة الجماع، والمزكوم لا يجد رائحة شيء فينكره، والمحموم يجد طعم السُّكَّر مُرًّا، فرحم الله القائل حيث قال:

وكَمْ مِنْ عائبٍ قولًا صحيحًا ... وآفَتُهُ مِنَ الفهمِ السَّقِيمِ
وإنَّما تأخذُ الأذْهانُ مِنْهُ ... على قدْرِ القرائحِ والفُهُومِ

وأيضا إذا نظرت في المسألة من حيث العلم والتحقيق احتجت إلى وجود البحث والتدقيق وإذا نظرت إليها من حيث الحال وجدتها مبنية على التسليم والتصديق، فإذا أخذت بالأول ظهر لك من وجوه الإنكار ما لا خفاء به مع ابتنائه على أصل لا تعرفه، وإن نظرت إلى الآخر ظهر لك من موجبات التسليم ما يقتضي لك عدم الكلام بالكلية فلا وجه لاستخلاص الخلاصة إلا بمعرفة مبدأ الأمر ومنتهاه. وقد ذكرته جملة ونأتي بما يسَّرَ الله في ذلك إن شاء الله تعالى.

وأما كونها (مَسْأَلةٌ غَرِيبَةٌ) فلأنها غير مألوفة للنفوس ولا متداولة بين أيدي الناس ولا معروفة الحقيقة في الجملة فلذلك اعتقدها المعتقد من غير معرفة أصل، وقَبِل المنتسب إليها على أي وجه كان، وانتقدها المنتقد وأشانها ولا يعرف ما انتقد وشان فادعاها من ليس من أهلها وأدخل عليها ما ليس من شأنها كل ذلك سببه الجهل بها والحرص على الانتساب إليها وعظمتها في النفوس لما تقرر من جلالتها، والله أعلم.

وإنما كان (الجَوابُ عنهَا رِيبَة) من حيث تسلط النفوس على المحقق لها بالرد والقبول والفروع إلا فيمن ينظم المتكلم فيها في سلك أهل الاستواء فيكون كلامه إغراء له على

---

(١) العِنِّين: هو مَنْ لا يأتي النِّساءَ عَجْزاً أو لا يُرِيدُهُنَّ، انظر «تاج العروس» مادة عَنَنَ.

نفسه إن لم يقم بحجة قاطعة أودافعة للاعتراض عنه والمتوسع الغالي يأبى النظر فيها أبداه ويجفوه -لأجله- ويقول: ما دعاه لهذا والطرق بعدد أنفاس الخلائق، وما الذي أتى به إلا مجرد مقال وهذه الطريقة لا تَعَرُّفَ لها بالحال؟ ولم يعرف المسكين أن الأحوال لا تصح بغير العلوم والأعمال، فما لم يستند منها إلى علم فباطل، وما لم يؤْثِر عملًا فليس تحته طائل.

وكلام المشايخ في ذلك متسع لمن أراده ولكن النفوس متسلطة على المتكلم دون اعتبار لما هو منه وإليه وليس ثَمَّ قائم بالفن يفصل بين الناس ويتكلم بوجه التحقيق فالأمر كله بيد الله لكن لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ولابد للعالم إذا سُئل عن علم من بيانه وإلا كان آثمًا كما هو معلوم، بموجب البيان، ومن شاء قَبِلَ أو ردَّ فإنما يعمل فيما له أو عليه.

هذا ما توجه إليه المؤلف رحمه الله إذ قال:

(١١) وإذْ تَهَدَّيتَ إلى الصَّوَابِ ... ولمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ الجَوابِ
(١٢) فَهْوَ علَى الجُمْلَةِ والتَّفْصِيلِ ... مُنْحَصِرٌ في خَمْسَةِ فُصُولِ
(١٣) أَوَّلُها في أَصْلِهِ والثَّانِي ... في فَضْلِهِ عَلَى مَدَى الأَزْمَانِ
(١٤) وَثَالِثُ الفُصُولِ في أَحْكَامِهِ ... وَحِينَ يَسْتَوي عَلَى أَقْدَامِهِ
(١٥) وَالرَّابِعُ الرَّدُّ عَلَى مَنْ رَدَّهْ ... وَلَيسَ يَدْرِي شَأْنَه وَقَصْدَهْ
(١٦) وَخَامِسٌ يُعْلَمُ كَيفَ صُيِّرَا ... حَتَّى غَدَا بَيْنَ الأَنَامِ مُنْكَرَا
(١٧) وَبَعْدَ مَا فَصَّلْتُهُ فُصُولا ... وَعَادَ بَتُّ حَبْلِهَا مَوصُولا
(١٨) سَمَّيْتُها المَبَاحِثَ الأَصْلِيَةْ ... عَنْ جُمْلَةِ الطَرِيقَةِ الصُوفِيَةْ

(١٩) فَحَـــيِّ يَـــا رَبِّ امْــرَأً حَيَّاهَـــا   وزَكِّـــهِ يَومـــاً مَتَـــى زَكَّاهَـــا

قلت: معنى(تَهَدَّيتَ): اهتديت. و(الصَّوَابِ): الحق المبين والطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه وإنما (لَمْ يَكُنْ) له (بُدٌّ مِنَ الجَوابِ) لما أخذ الله على العلماء ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ (آل عمران: ١٨٧)، ولقوله: عليه السلام: «من سئل عن علم نافع فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»[١] الحديث. ثم هذا الوعيد إنما هو لمن كتمه مع توفر شرطه ذلك وهو الاستحقاق.

وقد اختلف مشايخ الطريقة: هل لا يُبذل علمهم إلا لأهله وهو مذهب أبي الحسين النوري[٢] رحمه الله - قال: لكن إذا دُعيَ على العامة- وآخرين، أو يبذل لأهله ولغير أهله والعلم أحمى جانبًا من أن يصل إلى غير أهله وهذا مذهب سيد الطائفة أبي القاسم الجنيد ﷺ إذ قيل له كم تنادي على الله بين يدي العامة؟ قال: لكن أنادي على العامة بين يدي الله تعالى. يعني أن كلامه حجة عليهم ومحجة لمن أراد الطريق منهم وتنبيهًا لمن غفل منهم، ثم ما قاله إنما يجري في باب الأحكام والتزكية والمشوفات، وإلا فإعطاء كل ذي حق حقه مطلوب، وإليه أشار في أبيات حيث قال:

سَــأَكْتُمُ مِــنْ عِلْمِــي بِــهِ مَــا يَصُونُــهُ   وأَبْــذُلُ مِنْــهُ مَــا أَرَى الحَــقَّ يُبْــذَلُ

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥/ ١٨٦) حديث(٥٠٢٧)، وأخرجه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» برقم (٧٢٣).

(٢) هو الشيخ العارف أبو الحسين أحمد بن محمد البغوي النوري، المعروف بـ (ابن البغوي) المتوفى سنة ٢٩٥هـ انظر ترجمته حلية الأولياء (١٠/ ٢٤٩).

الأبيات.. الخ. إلى آخرها ذكرها الإمام الغزالي في كتاب «المحبة» من الإحياء، فانظرها[1].

(الْجُمْلَةِ) الجموع (والتَّفْصِيلِ) آحاد الجملة، و(الفُصُول): جمع فصل وهو القطعة من الكلام لغة، وهي ما احتوى على مسألتين فأكثر، والمسألة ما احتوت على كلمتين فأكثر، والكلمة ما تركب من حرفين فأكثر، والحرف ما يتولد عن استقلال هواء واصطكاك أجرام، فافهم.

وأصل الشيء: مبناه وقاعدته التي يستخرج منها ويرجع به إليها. وباقي الأبيات بيِّنٌ، والبتُّ: القطع؛ استعاره لتعرف المسائل التي جمعها قبل جمعها الذي صار به حبلها موصولا وذلك أنه لم يسمه إلا بعد إكماله.

و(الْمَبَاحِثَ) ما يبحث عنه، أو يبحث به أو فيه، وهي كذلك يبحث عنها من أين أتى بها، ويبحث فيها لتحقيقها، ويبحث بها في غيرها ليميز ما دلت عليه من حق وباطل فافهم. وكونها أصلية يعني بحثًا عن أصول الطريقة أو بحثا فيها أو بها. والطريقة الصوفية هي الموضوعة للعلم بكيفية الاتصاف بالمحامد وترك الأوصاف المذمومة وذلك عين الصفات والتصفية كما أشار إليه أبو الفتح[2] رحمه الله حيث قال:

تَخالفَ النـاس في الصـوفي واختلفـوا ... وظنـوه جهـلًا مشـتقًّا مـن الصُّـوفِ

---

(١) ذكرها الإمام الغزالي في الإحياء ج٤ صـ٣٣٦ ومطلع الأبيات هو:

سَرَتْ بأُنَاسٍ في الغُيوبِ قُلوبُهم ... فَحَلُّوا بِقُرْبِ الماجِدِ المُتَفضِلِ

(٢) هو الشاعر الأندلسي عليّ بن محمَّد، أبو الفتح البُستي الكاتب الشاعر المشهور المتوفى سنة ٤٠١هـ أنظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» للذهبي (٩/ ٣٢)

ولسـت أنحـل هـذا الاسـم غـير فتـى صـافى فصـوفي حتـى سـمي الصـوفي

وقد اختلف الناس في حقيقة التصوف على نحو من ألفي قول، كلٌّ ينطق عن حقيقة حاله، مرجعُ كلٍّ [1] لصدق التوجه إلى الله تعالى من حيث الرضا بما يرضى وإنما هي وجوه فيه.

وقد قررنا ذلك في القواعد ومقدمة شرح الحكم أحسن تقرير فانظره موفقاً إن شاء الله تعالى.

والتحية: ترجمة الإكرام، **والتزكية**: الترفيع والتطهير، وتزكيتها بالقبول والعمل والثناء والتعليم والله سبحانه أعلم.

هذا حين ابتدأ المؤلف في المقصود فقال رحمه الله تعالى.

❁❁❁

(١) في (أ) وردت: مرجع كلها.

الفَصْلُ الأوَّلُ
في أصله

قلت: يعني في بيان أصل مذهب الصوفية وما يدور عليه وما يرجع إليه في أطراف ثلاثة:

أولها: أصله الذي دار عليه وقصد لأجله، وهو الباعث على طلبه وهو المذكور في أول الفصل.

الثاني: أصله الذي يستمد منه وتعرف به حقائقه الذوقية والعملية ومعانيه الذاتية والعرضية.

الثالث: أصله الذي يستند إليه من الشريعة، حتى لا ينكره ولا يجد الطاعن فيه مساغًا لطعنه، ولا المنكر دفعه، وهو الذي ختم به الفصل كما ننبه على كل في محله إن شاء الله تعالى.

ابتدأ الطرف الأول وذلك بأن قال رحمه الله:

(٢٠) إِعْلَـمْ بِـأَنَّ هَـذِهِ الطَّرِيقَـةْ ... بَحْـثٌ عَـنِ التَّحْقِيـقِ لِلْحَقِيقَـةِ
(٢١) وَهَـذِهِ حَقِيقَـةُ الإِنْسَـانِ ... حَيْـثُ لَـهُ أُنْمُـوذَجٌ رَبَّـانِي
(٢٢) وَوَضْعُـهُ فِي الكُتُـبِ لا يَجُـوزُ ... بَـلْ هُـوَ كَنْـزٌ فِي النُّهَـى مَكْنُـوزُ

قلت: (إِعْلَمْ) في البيت الأول (بِأَنَّ) فائدة الطَّرِيق ومقصودها إنما هو البحث عن تحقيق الحقيقة الإنسانية بالحقائق العرفانية، وأشار في البيت الثاني إلى أن ذلك من وجوده

لوجوده إذ له نسبة ربانية في وجوده هي كماله اللائق به وإلا فلا نسبة بين عبد ورب إلا من حيث اعتناء الرب بعبده حتى أوجده من العدم وأمده بالنعم وخصصه بالكرم فكان دليلًا عليه مدلولًا وموصلًا إليه موصولا وإلى ذلك أشار الصادق ﷺ تسليما بقوله: «من عرف نفسه عرف ربه»[1] وقال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١).

وقال بعض المشايخ: إياك وطلب الدليل من خارج فتفتقر إلى المعارج، واطلب الحق من ذاتك لذاتك تجد الحق أقرب إليك من ذاتك ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ (الواقعة: ٨٥).

والمراد: قرب إحاطة واقتدار لا قرب مسافة وانحصار، إذ يتعالى ربنا عن ذلك فافهم وتفهم وتمسك بقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١). تكن الهداية رفيقتك في كل مسلك، ولا تصغ بأذنك لأهل الإلحاد ولا لمن يقول بالحلول والاتحاد فإن ذلك كفر وضلال وباطل ومحال أعاذنا الله منه بمنه وكرمه.

وقوله: (وَهَذِهِ حَقِيقَةُ الإِنْسَانِ) يعني أن الحقيقة المطلوب تحقيقها هي حقيقة

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣١٢) : قال ابن تيمية: موضوع، وقال النووي قبله: ليس بثابت، وقال أبو المظفر بن السمعاني في القواطع: أنه لا يعرف مرفوعاً، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي يعني من قوله، وقال ابن الغرس بعد أن نقل عن النووي أنه ليس بثابت قال: لكن كتب الصوفية مشحونة به يسوقونه مساق الحديث كالشيخ محي الدين بن عربي وغيره، قال: وذكر لنا شيخنا الشيخ حجازي الواعظ شارح الجامع الصغير للسيوطي بأن الشيخ محي الدين بن عربي معدود من الحفاظ، وذكر بعض الأصحاب أن الشيخ محي الدين قال: هذا الحديث وإن لم يصح من طريق الرواية فقد صح عندنا من طريق الكشف، وللحافظ السيوطي فيه تأليف لطيف سماه «القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه» ،وقال النجم قلت وقع في أدب الدين والدنيا للماوردي عن عائشة سئل النبي صلى الله عليه وسلم من أعرف الناس بربه قال أعرفهم بنفسه.

الإنسان أي روحانيته فأنت بالروح لا بالجسم إنسان، والأُنْمُوْذَجُ[1]:[قال في القاموس: والنموذج بالفتح : الشبه وبالهمز : لحن ، وفي نسخ الناظم كلها بالهمز][2]

وإنما لا يجوز وضع المعنى المقصود في الكتب لوجهين:

أحدهما: أن العبارة لا تقوم به بل القصد لتحريره يؤدي لنقيضه فيؤدي التعبير عنه لتكفير القائل وتبديعه وتفسيقه وربما أدى لتلفه من حيث صورة كلامه. وإن كان مقصوده عين الحق ونفس الحقيقة التي لو بانت لأقل الناس لعظمها، ولأكبر الناس لما اعترضها.

الثاني: إن وضع ذلك في الكتب يؤدي لابتذاله مع عدم استيفاء المراد منه فيكون قطعًا للمريد عن التحقق به وموجبًا لوجود الحيرة فيه ولا يفهمه على الحقيقة إلا مَن عنده منه خبر ما؛ كحال الطرب في السماع لا يتأثر به إلا من عنده حس منه، ليس التكحل في العينين كالكحل، فافهم الإشارة من العبارة وارمز الحقائق بما يمكن من غوامض الأفهام عملًا بقول من قال:

وَمَنْ فَهِمَ الإِشَارَةَ فَلْيَصُنْهَا وَإِلَّا سوف يُقْتَلُ بالسِّنَانِ
كحَلَّاجِ المحَبَّةِ إِذْ تَبَدَّتْ لَه شَمْسُ الحقِيقَة بالتَّدَانِ

وقوله: (بَلْ هُوَ كَنْزٌ فِي النُّهَى) أي في العقول، (مَكْنُوز) يعني التحقق بما ذكر، فمن كُشِف القناع عن قلبه وصل إلى حقيقة علمه بربه وهو معنى الوصول عند القوم.

---

(١) الأُنْمُوذَجُ بضم الهمزة ما يدل على صفة الشيء وهو مُعَرَّب انظر «المصباح المنير» للفيومي.

(٢) موضع سقط كبير في النسختين مستكمل من كتاب "الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية" للشيخ ابن عجيبة الحسني .

قال في الحِكَم[1]: وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به وإلا فجلَّ ربنا أن يتصل بشيء أو يتوصل به شيء. قالوا: وحقائق المعارف منطبعة في الأرواح من يوم الميثاق فلذلك قامت بها الحجة فيها لا يزال بوصول العبد إلى ما عنده منها بواسطة إمداد التجلي لا لأمر زائد على ذلك، والله أعلم.

قال في «الحكم»[2]: نور مستودع في القلوب مدده النور الوارد من خزائن الغيوب.

وقال في موضع آخر: أشهدك من قبل أن أستشهدك، فنطقت بالإلهية الظواهرُ، وتحققت بأحديته القلوبُ والسرائرُ وما هو إلا كما ورد عن الله تعالى في حقيقة الإخلاص «سر من سرِّي أودعه في قلب من أشاء من عبيدي لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسره»[3] الحديث.

وإذا كان كذلك فالتعليم والتعلم لا يفيده بل التعرض لنفحات الحق بشواهد الصدق قولًا وعملًا وحالًا لأن «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»[4] فكان

(١) «الحكم العطائية» للإمام ابن عطاء الله السكندري؛ الحكمة رقم (١٨٧).

(٢) «الحكم العطائية» ؛ الحكمة رقم (١٢٨).

(٣) لم أجده بلفظه لكن ذكر الغزالي في الإحياء (يقول الله تعالى الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي) وقال عنه الحافظ العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» : ذكره الحسن مرسلاً ورويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلاً يقول كل واحد من رواته سألت فلاناً عن الإخلاص فقال، وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي عن جبريل عن الله تعالى وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد، ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وإسناده منقطع .

(٤) أورده أبو نعيم في الحلية من حديث أنس (١٠/ ١٥)، وابن المقرئ في معجمه (٣٣٤).

علمه من ربه لقلبه وهو أتم العلوم وأجلها بعد معرفة الأصول والقواعد فافهم واطلب الشيء منك إليك تجده أقرب منك إليك وتدري منه ما يدركك على حسب ما أعطيت من القوة، لكن قد يدرك الشيء من خلف حجابه بوجه ما كما نبه عليه المؤلف رحمه الله تعالى إذ قال:

(٢٣) إِيَّاكَ أَنْ تَطْمَعَ أَنْ تَحُوزَه ... مِنْ دَفْتَرٍ أَو شِعْرٍ أَوْ أُرْجُوزَة
(٢٤) وَإِنَّمَا يُعْرَفُ مِنْهُ وَصْفَا ... لَسْتَ تَرَاهُ وَهْوَ لَيْسَ يَخْفَى
(٢٥) وَهَا أَنَا أَشْرَحُ مِنْهُ البَعْضَا ... بِقَدْرِ مَا تَفْهَمُهُ فَلْتَرْضَى

قلت: يعني أن الأنموذج المذكور والتحقق به لا يجيزه كلام القوم في أشعارهم الرقيقة ولا في أراجيزهم المحشوة بالحقيقة لأنه أمر لا يؤخذ بالقياس ولا بالفهم وقوة الذكاء والإيناس، بل هو نكتة من الحق تكشف عن القلب قناعه، ونور منه يبسط في عوالم الحقيقة شعاعه حتى يصير الغيب في معرض العيان ولا يفتقر المشكل لشيء من البيان بل لو كشف الغطاء ما ازداد صاحبه يقينًا، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام «لم يفتكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في صدره»[1] ومع هذا فالشيء الموقور في صدره معلوم الأصل الذي هو التحقيق في اليقين والإيمان إلى حد المواجهة والعيان لكن لا يعلم قدر العظمة فيه إلا من وقر في قلبه وكذلك كل صاحب مرتبة في اليقين له نسبة على قدر حاله من ذلك، فافهم.

وقوله: (وَإِنَّمَا تعْرَفُ مِنْهُ وَصْفَا) يعني أنك تعرف من الأمر المشار إليه في كتب القوم وصفه الظاهر الدال على حقيقته الباطنة في الجملة؛ فأنت لم تعرفه على الحقيقة

(١) ذكره الغزالي في «الأحياء» (١/ ٢٣)، وأخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ١٤٨).

ولا يخفى عليك لاستشرافك عليه، وهذا محل الغلط فيه من حيث ادعاء معرفته والتحقق به.

قال في «الحكم»[1]: ربما عبر عن المقام من استشرف عليه، وربما عبر عنه من وصل إليه وذلك ملتبس إلا على صاحب بصيرة.

فهو كالزِنَاد إن تركته توارى وإن قدحته أورى وإن لم يكن عندك ما تأخذ منه فقد ضاع عليك ما يبدو لك منه، فافهم الإشارة من العبارة وتوقف وتأدب ولا تدع ما ليس لك بمجرد فهمك فتحرم مما وراءه والسلام.

ثم توجه المؤلف لما وعد من شرح البعض فقال رحمه الله:

(٢٦) فَهَــذِهِ الحَقِيقَــةُ النَفْسِــيَّة مَوْصُوْلَــةٌ بِالحَــضْرَةِ القُدْسِــيَّةِ
(٢٧) وَإِنَّــمَا يَعُوقُهَــا الموضُــوعُ وَمِــنْ هُنَــا يُبْتَــدَأُ الطُلُّــوعُ

قلت: (الحَقِيقَةُ النَفْسِيَّة) هي الروح ووصلها بالحضرة القدسية من حيث اتصافها بالكمالات اللاحقة بها من الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام على ما يليق بها من النقص والحدوث، إذ صفات الرب تعالى لا نقص ولا حدوث بخلاف العبد فهو كامل، أعني الإنسان في نوعه ناقص باعتبار مطلق الكلام، فينظر لكماله فيتوجه لتقديس ذاته عما هو نقص لها، وينظر لنقصه فيقف على حده فلا يدَّعِي ما ليس فيه بل لا يرى لنفسه نسبة اعتبارا بنقصه، فافهم؛ إذا عرف نقصه تأدب وإذا عرف كماله لم يرض لنفسه بالدناءة.

(١) «الحكم العطائية»، الحكمة رقم (١٦١).

قال في «الحكم»[1]: جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته وأنك جوهرة تنطوي عليك أصداف مكنوناته، وسعك الكون من حيث جثمانيتك ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك.

قلت: نَبَّه بما ذكر على ثبوت الخاصية الإنسانية القاضية بوجود النسبة الكمالية ليعمل عليها في الانتفاء على النقائص وطلب الكمالات حسب الإمكان لأن مَنْ أصلُه الكمال لا يرضى بالنقص إلا لقصور همته ونقص حالته.

وقد قال بعض المشايخ: العرش والكرسي يدقان في ترمي. يعني أنهما في نسبة الروح كأدق شيء لا باعتبار الجلالة ولا باعتبار التجلي والإحاطة العلمية والعرفانية لأنهما من بعض معلوماته وهو أكرم أنواع الخلق وإن اختلف فيما بينه وبين الملائكة، والله أعلم. وأنشد ما في معنى ذلك:

إِذَا كُنْتَ كُرْسِيًّا وَعَرْشًا وَجَنَّةً ... وَنَارًا وَأَفْلاكًا تَدُور وَأَمْلاكَا
وَكُنْتَ مِنْ السِّرِّ المَصُونِ حَقِيقَةً ... وَأَدْرَكْتَ هَذَا بِالحَقِيقَةِ إِدْرَاكَا
فَفِيمَ التَّأَنِّي فِي الحَضِيضِ تَثَبُّطًا ... مُقِيمًا مَعَ الأَسْرَى أَمَا آن إِسْرَاكَا

وقال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ[2]: الخلق كلهم عبيد مسخرة وأنت عبد الحضرة.

---

(١) «الحكم العطائية» للإمام ابن عطاء الله السكندري، الحكمة رقم (٢١٣).

(٢) هو الشيخ العارف شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسن بن على الخزرجى الأنصارى المرسي، خليفة الإمام أبي الحسن الشاذلي ووارثه، وشيخ الإمام ابن عطاء الله السكندري، توفي ﷺ بالإسكندرية سنة ٦٨٦هـ ، ومسجده بها عامر إلى اليوم.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه[1]: قرأت ليلة ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فكشف لي عن اللوح المحفوظ فإذا فيه ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤) روحا وعقلا ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ (التين: ٥) نفسا وهوى. انتهى، وفيه إشارة لمعنى عن البيتين معا.

وقوله: كشف لي عن اللوح: أي عن مثاله إذ قال رضي الله عنه: الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء والأولياء يطالعون مثلها. انتهى. وهو مزيل لكثير من الإشكال.

والمراد بـ(الموضُوع): ما دخل عليها؛ فوضع بإزائها الجسم وغيره المُشْغِل لها بطلب كمالاته المُنَغِّص عليها بوجود تقلباته، المنقص لها في جميع حالاته.

قال في «الحكم»[2]: لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين. لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك. انتهى، فانظر معناه في الشرح وبالله التوفيق.

ثم بين المؤلف ما ذكر من اتصالها بالحضرة وعين الموضوع المذكور بأن قال رحمه الله:

(٢٨) فَلَـمْ تَـزَلْ كُلُّ النُّفُـوسِ الأَحْيَـا ... عَلَّامَـةً دَرَّاكَـةً لِلْأَشْـيَا

(٢٩) وَإِنَّـمَا تَحْجُبُهَـا الأَبْـدَانُ ... والأَنْفُـسُ النُّـزَّغُ والشَّـيطَانُ

قلت: يعني أن النفس موصوفة في الأصل بكمال العلم وحسن الإدراك لكل شيء على حسب ما يليق بها وذلك هو اتصالها بالحضرة القدسية غير أنها محجوبة عنه بمطالب

---

(١) هو الإمام الكبير أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي المغربي، الزاهد، الصوفي وإليه تنتسب الطائفة الشاذلية توفي بصحراء عيذاب بمصر سنة ٦٥٦هـ.

(٢) «الحكم العطائية»، الحكمتان رقم (٢١١، ٢١٢)

الأبدان وأوصاف النفوس ولولا ذلك لما حجبت عما هي موصولة به.

ومطالب الأبدان ثلاثة: كمالها الذاتي بالأكل والشرب ونحوه. وكمالها العرضي بالتزيي والتزين ونحوه. وكمالها التكميلي بتوفية الأغراض من المستلذات كالكلام والنظر والنكاح وشبهه.

ومطالب النفوس ثلاثة: كمال الشرف بظهور الجلالة، ومنه خرج حب المدح وأسبابه ونتائجه وكمال التصرف بظهور الحكم، ومنه خرج حب الرئاسة والجاه والمال وما يتعلق به وكمال الاستغناء والتعزز، ومنه ظهر وجود التشبه ومواضع الغنى والبخل وغيره.

ومطالب الشيطان ثلاثة: ضيق النفس في الحال، والخسارة في المال، والدوام في ذلك من غير رجوع ولا إخلال، ومنه خرج وجود الحقد والحسد والغضب ونحوه، والكل عنده من أوصاف النفس مستفاد فكل شيء وُجدَ لها فيه أصلٌ قوّاه إلا إن يأتي شيء من خارج فافهم.

وبالجملة فكل ما يتصل بالقوى الجسمانية فهو من دواعيها، وكل ما فيه لذة حاضرة طبيعية فهو من مطالب النفس، وكل ما فيه تنقيص مع تأذٍ أو إذاية فهو من الشيطان، ولكن لا يتمكن منه إلا بواسطة النفس وداعيتها فافهم وجاهد نفسك ترَ العجب من أمرك في كل طور من وجودك، وهذا ما نبه عليه المؤلف حيث قال ﷺ:

(٣٠) فَكل مَنْ أذاقَهُمْ جِهَادَهْ   أَظْهَرَ لِلْقَاعِدِ خَرْقَ العَادَةْ

(٣١) وَهِـي مِـنَ النُّفُـوسِ فِي كُمُـونٍ[١]   كَـمَا يَكُـونُ الحَـبُّ فِي الغُصُـونِ

قلت: يعني أن من جاهد نفسه وبدنه وشيطانه ظهرت له خوارق العادة من كلٍّ بحسبه، فمجاهدة البدن بصرفِهِ عن العوائد الرديئة كانت ذنوبًا أو عيوبًا، وذلك بأن يظنها الغالب عليه فينعزل عنه بالمدافعة مرة وبالرياضة أخرى، حتى لا تبقى بقية لطلب الأغراض الجسمانية بمجرد الهوى وذلك بأن يصير كل شيء فيه لله وبالله، فلا يأكل إلا للتقوي على طاعة الله، ولا يلبس إلا امتثالا لأمر الله، ولا ينقل قدميه إلا حيث يرجو ثواب الله تعالى، ولا يجلس إلا حيث يأمن غالبًا من معصية الله، ولا يصحب إلا من يستعين به على طاعة الله، ولا يتبع إلا من يتحقق وصلته بالله، فيكون في كل حال عاملا لربه بربه لا لحال من أحوال نفسه ولا بها وكذلك يفعل في أوصاف نفسه ودواعي شيطانه فيظهر عليه بحسب كل مقام خارق يليق به على قدر حاله، فمن مجاهدة البدن تظهر الكرامات البدنية لحديث «من غَضَّ بصره لله رزقه الله عبادة يجد لذتها»[٢].

ويكون من ذلك الكرامات الحسية من المشي على الماء وخرق الهوى وطيِّ الأرض وتسخير السباع وغير ذلك.

ومن مجاهدة النفس تظهر الكرامات المعنوية من فهم العلوم واتساع الفهوم وتسخير النفوس وقهرها وظهور الجلالة على الخلق إلى غير ذلك لحديث «إنما يرحم الله

(١) وردت في الشرح بلفظ «كمين» وما أثبتناه من أصل المتن أدق.

(٢) لم أجده بلفظه لكن أخرج السيوطي في الجامع الكبير برقم (٧٤١٣) «إن المرأة سهم من سهام إبليس فمن رأى امرأة ذات جمال فأعجبته فغض بصره عنها ابتغاء مرضاة الله أعقبه الله عبادة يجد لذتها» (ابن النجار عن أبي هريرة).

من عباده الرحماء»[1] ونحو ذلك.

ومن مجاهدة الشيطان تظهر الكرامات الحقيقية بالكفاية والهداية وبعد الضلال والغواية ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل: ٩٩) ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ (الإسراء: ٦٥). وهذه إشارة لما تضمنه البيت الأول. وسيأتي بعض ذلك في فصل السلوك إن شاء الله وضمير قوله: **(وهي من النفوس في كمين.. الخ)** عائد لخوارق العادات من الأحوال والكرامات وغيرها، وأتى بالبيت توصية لما يريده من بيان كيفية السبب في ظهوره وذلك ما شرع فيه بأن قال رحمه الله:

(٣٢) حَتَّـى إِذَا أَرْعَـدَتِ الرُّعُـودُ وَانْسَـكَبَ الغَيْـثُ وَلَانَ العُـودُ

(٣٣) وَجَـالَ فِي أَغْصَانِهَـا[2] الرِيَـاحُ فَعِنْدَهَـا يُرْتَقَـبُ اللِقَـاحُ

قلت: يعني أن ثمرة الحقيقة الكامنة في شجرة القلب لا تُلَقَّحُ إلا برعود المحركات من المواعظ والمذكرات، ونزول غيث الواردات الملينة لأفنان شجرة القلب، وجولان رياح الأحوال المتوجهة منها في نواحي القلب حتى يسري ذلك للجوارح فتتأثر به.

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري في الصحيح برقم (١٢٨٤) «عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه إن ابنًا لي قبض فأتنا فأرسل يقرئ السلام ويقول إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكلٌ عنده بأجلٍ مسمًى فلتصبر ولتحتسب فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبلٍ وأبي بن كعبٍ وزيد بن ثابتٍ ورجالٌ فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع قال حسبته أنه قال كأنها شنٌ ففاضت عيناه فقال سعدٌ يا رسول الله ما هذا فقال هذه رحمةٌ جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء» ورواه مسلم في الصحيح برقم (٩٢٤).

(٢) وردت في أصل المتن بلفظ «أعطافها».

قال الله تعالى ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ (الزمر: ٢٣) الآية. وقال عز من قائل: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾ (الرعد: ١٧). وقال صلى الله عليه وسلم تسليما: «إن النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح، قيل يا رسول الله: وهل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال: التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله»(١) أي وهو معنى ما أشار إليه المؤلف فتأمله. ثم إذا حصل اللقاح لم يبق غير العقد كما نبه عليه إذ قال رحمه الله تعالى:

(٣٤) فَعِنْدَمَا أَزْهَرَتِ الأَغْصَانُ ... وَاعْتَدَلَ الرَّبِيعُ وَالزَّمَانُ

(٣٥) يَكُونُ إِذْ ذَاكَ أَوَانُ العَقْدِ ... وَتُنْظَمُ الأَغْصَانُ نَظْمَ عِقْدِ

قلت: (الأَغْصَانُ) عبارة عن الجوارح الظاهرة والأخلاق الباطنة وزهرها بالعمل ظاهرًا وبالحال باطنًا، واعتدال الفصل بجريان ذلك على وجه مستقيم بأن تبسط الأحوال أنوارها، وتودع أسرارها، وتظهر من الأعمال أثمارها، فتنطبع الحقيقة بالمعرفة من كل نوع على حسبه متعددًا أو متحدًا باعتبار الوجوه.

فتجد للمريد في هذه الحالة أنواعًا من الأعمال عديدة منوعة، ومن كل نوع متعددة وتجد له من العلوم والحقائق كذلك على حسب إشارة ضميره واتساع نظره، فتتصاعد أنواره وتتشاهد أسراره فينطق عنه ناطق وجده بشاهد حاله فلا يراه أحد إلا أدرك منه نفس الخصوصية، لغلبة باطنه عليه إذ الحال مالك له وذلك بخلاف حال العارف

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٨٦٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٠٦٨).

فلذلك تميل النفوس للمريدين أكثر من العارفين والمبتدئين، وهذا ما نبه عليه المؤلف إذ قال رحمه الله:

(٣٦) فَـأَيُّ مَـنْ مَـرَّ بِهَـا مَسَـاءَ وَأَبْـصَرَ الظِّـلَالَ وَالأَفْيَـاءَ[1]
(٣٧) وَنَـزَّهَ الأَبْصَـارَ وَالعُيُـونَ حِـيْنَ رَأَى الأَنْهَـارَ وَالعُيُـونَ
(٣٨) وَاشْـتَمَّ مِنْهَـا الـرَّوْحَ والرَّيْحَـانَ وَظَـلَّ فِي بَهْجَتِهَـا حَـيْرَانَ

قلت: يعني أن المريد إذا ظهرت عليه آثار صدقه علما وعملا وحالا؛ شاهد ذلك أهل الظلام وهم العوام في شواهد حاله إذا رأوا على عالم جسمه من ظلال الخشوع وفيء الخضوع، وتفجرت لهم عيون المعارف من قلبه على لسانه، وجرت أنهار الحكم والعلوم من سره على بنانه، وبدت لهم نسمات القرب في قربه، وظهرت لهم روائح الحقيقة من اعتقاده وحبه؛ فيدركهم لذلك دَهَشٌ يقتضي انقيادهم إليه من غير شعور بمستند سوى شاهد حاله، وما هو عليه من مواد كماله، وهذا بخلاف حال العارفين في الوجهين، أعني إنها لا تبدو عليهم ولا توجب لهم ولوعًا ولا توقفًا ولا دهشا ولكن يقولون في ذلك ما قاله بعض من تكلم في هذه الطريقة نظما:

هِـي أَحْـوَالٌ تَحُـول يَعرِفُهـا الفُحُـول
وَالكُحْـلُ مِـنْ العُيـون قُـلْ مَـا تَحْتَـاج كُحُـول

وعندما تحصَّلَ الناظرُ على هذه الأوصاف وتحقق المتعلقُ بها بالاتصاف ادعى كل

(١) ورد قبل هذا البيت هذين البيتين وهما زيادة لم يتعرض لها الشارح وليسا في أصل المتن وقد اثبتناهما من شرح الشيخ ابن عجيبة.

حَـتَّـى إِذَا أَيْـنَـعَ لـلـعِـيَـانِ وأَمِـنَـتْ جَـوائِـحَ الـزَمَـانِ
بَـاكَـرَهَـا زَارِعُـهَـا وَالـغَـارِسُ يَقْطِفُهَا وَالـغَـيْرُ مِـنْـهَـا آيِـسُ

واحد منهما ما وصل إليه وأنه على حقيقة تامة فيه فقال كل واحد منهما لمن فوقه بلسان حاله: قد استويت معك. بحيث أراد أن يكتفي بما وصل إليه ويدعي أنه على الكمال الكامل فرُدَّ للتعريف بقدره وهذا ما ذكره المؤلف رحمه الله إذ قال:

(٣٩) فَقَالَ هَا نَحْنُ إذًا سَوَاءُ ... فَعِنْدَهَا يَجْمَعُنَا المَسَاءُ
(٤٠) حَتَّى إذا هَجَمَهُ الظَّلَامُ ... وَاحْتَوَشَتْهُ الوَحْشُ والهَوَامُ
(٤١) وَلَمْ يَجِدْ للفَوْزِ[1] مِنْ أَسْبَابِ ... أَقَامَ حَيْرَانَ أَمَامَ البَابِ
(٤٢) فَقِيلَ مَنْ بِالبَابِ قَالَ طَارِقْ ... فَقِيلَ كَلَّا لا وَلَكِنْ سَارِقْ

قلت: يعني أن المريد بما يبدو عليه يدعي حال العارفين، والذي يأخذ منه ما يبدو عليه من المحبين والمنتسبين يظهر له أنه تمكن من أحوال المريدين، ولا يجد في نفسه من التأثر بالحقيقة والاستلذاذ بها فيقول كل واحد منهما لمن فوقه: إنما نحن سواء في المنزلة وشواهد المعرفة إذ لكلٍ ذوق وفتح وتحقق وحقيقة.

ولكن ذلك كله في حال انبساط نور الأحوال وظواهر الأعمال، فإذا زالت عنه ظهر لكلٍّ حقيقةُ حاله وأمره كما يذكر في الأمثال، وإن شجرة القرع تصاعدت مع النخلة وقالت: إني شجرةٌ مثلك. فقالت النخلة: ستُعلمُ الشجرةُ منا عند هبوب رياح الخريف. وكما قيل أيضا:

سوف ترى إذا انقشع الغُبَار ... أفرسٌ تحتَك أمْ حِمَارُ[2]

(١) وردت في شرح الشيخ زروق بلفظ «العون».

(٢) هذا البيت من قصيدة لبديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨هـ في الذّبِّ عن الصحابة، يهاجي بها أبا بكر الخوارزمي مطلعها:

قال في «التنوير»[1]: وإنما يُفتضح المدعون بزوال الأحوال وعزلهم عن مراتب الإنزال هناك يبدو العوار، وتنتهك الأستار، فكم من مدعي الغنى بالله وإنما غناه بطاعته أو بنوره أو بفتحه، وكم من مدعي العز بالله وإنما اعتزازه بمنزلته وصولته على الخلق معتمدًا على ما ثبت عندهم من معرفته، فكن عبداً لله لا عبد العلل، وكما كان لك ربا ولا علة فكن عبدًا لله ولا علة لتكون له كما كان لك أيضًا.

ومعنى (هَجَمَهُ الظَّلَامُ): انعزلت عنه أنوار الأحوال. (الوَحْشُ): عبارة عن الأخلاق المذمومة.

و(الهَوَام): الأفعال المذمومة؛ لأن دواعي الشر والخير في الإنسان كالخلط النازل والقوة الدافعة[2] يتحرك الخلط فيجد الألم، وتنتعش القوى فيجد الراحة فيظن أنه قد برئ، فاحذر النفس وتحفَّظْ منها في الإقبال كالإدبار بل أشد، وبالله التوفيق.

قال في «الحكم»[3]: إنما مثل شمس الخصوصية كإشراق شمس النهار؛ ظهرت في الأفق وليست منه، تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك، وتارة يغيب ذلك عنك فيردك إلى حدودك.

قلت: فإذا ردَّك إلى حدودك فإما أن تكون بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار فذلك دليل الإذن والتمكين والرسوخ في اليقين، وصاحب هذه الحالة من العارفين،

وكلني بالهم والكآبة طعانة لعانة سبابة

(١) «التنوير في إسقاط التدبير» لإبن عطاء الله السكندري المتوفى سنة ٧٠٩ هـ.

(٢) في (أ): الرافعة، والمثبت من (ب) أنسب لسياق الكلام.

(٣) «الحكم العطائية»، الحكمتان رقم (٢١٦، ٢١٧).

وإما أن يكون بسوء الأدب والغفلة في الحقوق وبالشهوة والمتعة في الحظوظ، وصاحب هذه الحالة ناقص سواء كان صاحب نفس لوامة وهي التي تقع مرة وترتفع أخرى، أو كان صاحب أمَّارة وهي التي لا انتعاش لها، وهذا بعيد عن القوم فلا حديث عليها؛ لكن المريد ومن معه بعد زوال الحال عنه يعود للمجاهدة والمكابدة فهو من قسم اللوامة؛ ولذلك تدركه الحيرة بما يجده من خلاف ما كان فيه من النعيم واللذة وهو الموجب له الالتزام للباب.

لأن من وجد لذة شيء بقي في تطلبه حسب إمكانه وذلك في هذا المحل بالتزام الباب بدوام التضرع إلى الحق سبحانه، والترامي على أهل الله تعالى عسى أن يجد منهم نفحة لأنهم أبواب الله تعالى.

فيناديه لسان الحال: **مَنْ هَذَا الذي بالباب؟** سؤال استفهام لا سؤال استعلام فيجيب بلسان حاله: **أنا طارقٌ**. أي: مستفتح أبواب الفضل والكرم، **فَيُنَادَى مِنْ حَالِهِ: إنما أنت سارق تريد أن تأخذ من الأحوال في هذه الحالة مثل ما أخذت أولًا فتدعيه حالا لنفسك لا سيما وقد ألفت ذلك بما وقع لك فيما ذقته**؛ فيقتضي له هذا الجواب وجود الحرمان مما رجا لما فيه من الدعوى، فيلازم التعطف والانكسار لكل جهة يرتجي منها نسمة من نسمات ما تنسمه، ويقع في محل الاعتراف فإنه ليس بشيء ولم يكن على شيء إذ لا حقيقة لما كان فيه، وينزل عن درجة الدعوى إلى رتبة الانطراح كما نبه عليه المؤلف إذ قال رحمه الله:

(٤٣) فقَالَ رِفْقًا صَاحِبَ[1] الجَنَّاتِ بِحَائِرٍ قَدْ ضَلَّ فِي الفَلَاةِ

(١) وردت بالأصل «ساكن».

(٤٤) فَقِيلَ هَلَّا كُنْتَ ذَا بُسْتَانِ فَقَالَ كُنْتُ قَاعِدًا وَوَانِ
(٤٥) وَقَالَ يَا قَومِ أَلا تَشْرُونْ قَالُوا جَهِلْتَ ثَمَنَ الْمَثْمُونْ

قلت: يعني أنه إذا أحسَّ بالطَّرْد أخذ في التلطف والتعطف باللجوء إلى الله تعالى مرة والرغبة إلى أوليائه أخرى طلبًا للخروج من حيرته، والجمع من تلفه الذي اقتضاه له وجود تشتته بعد الجماعة، فيعاتب من بساط الحقيقة على ما تقدم من دعواه بطريق الاستفهام الإنكاري تارة بلسان الحال وتارة بلسان الوارد، فلا يمكنه إلا الاعتراف بقصوره ونقصه فيما ادعاه حال دعواه، وإن دعواه كانت على غير أصل إذ لم تظهر لها نتيجة.

وليس المراد من السحابة الإمطار؛ وإنما المراد منها وجود الإثمار كما قال في «الحكم» فلما تحقق بخلُوِّه وشعر بعتبه وتبين له وجود عيبه؛ أراد أن يشتري من بستان المحققين ما ينتفع به، فساومهم بحيث حام حولهم يتطلب الطريق الذي يقع به الخلاص ويزول به الانتقاص فعوتب في ذلك على جهله بالثمن إذ هو في هذه الحالة تارة يتشوف الأعمال وتارة يتشوف الأحوال، وتارة يتشوف للأذكار وتارة يتشوف للخِلْعَة وتارة يتشوف للعزلة وتارة يتشوف للعلوم وتارة يتشوف للأفكار، كل ذلك التماسًا لما يتوصل به لعين الحق ونفس الحقيقة، وهو في ذلك كله يقول بلسان حاله لحاله:

يا حبيبي نظرة مِنْكُم بِكُمْ أَبِرُوحٍ أَمْ بِمَالٍ أَمْ بِدَمْ

فيقال له: كل هذا جهل لأن الافتراق يورث الافتراقات والجمع يورث الجمعيات والمحبوب لا يطلب بغير الاستهلاك في المطلوب ولكن إذا شعرت بداء واحد فطلبت له دواءً واحدا كنت محققا في طلب ما تريد شراءه. وهذا محل الحيرة التي تتفتت عندها

الأكباد وتشيب فيها الأولاد، لأن الخطاب فيها بما ذكره إذ قال رحمه الله:

(٤٦) فَهَـذِهِ فَوَاكِـهُ المَعَـارِفِ ... لَمْ تُشْرَ بالتِّلادِ أو بِالطَّارِفِ
(٤٧) مَا نَالَهَا ذُوْ العَيْنِ والفُلُوسِ ... وَإِنَّمَا تُبَاعُ بِالنُّفُوسِ
(٤٨) وَقِيلَ لَيسَتْ هَـذِهِ المَقَاصِرْ ... مَأوى لِكُلِّ قَاعِدٍ وَقَاصِرْ
(٤٩) وَقِيلَ لَيسَتْ هَـذِهِ البَحَائِرْ ... لِحَائِرٍ ضَلَّ فَظَلَّ حَائِرْ
(٥٠) فَافْهَمْ فَتَحْتَ هَـذِهِ العِبَارَةْ ... إِشَارَةٌ، وَأَيُّمَا إِشَارَةْ

قلت: عرَّف أولًا بأنها (فَوَاكِهُ المَعَارِفِ) التي تقتضي جلال قدرها وارتفاعها عن المساومة والطلب بالأسباب والأخذ بوجوه الحيل والاكتساب.

ومعنى (لَمْ تُشْر) لم تُبَعْ، وقوله: (بالتِّلاد) أي المال القديم، (وِالطَّارِف) هو المال المستحدث، ويستعاران لما يدخر من الأعمال الصالحة وما يتجدد؛ كما قال ذلك الصحابي لسور من القرآن سماها من تلاد زمن العتاق الأول[1]؛ إشارة إلى ما حفظه قديمًا من القرآن فافهم.

وقوله: (مَا نَالَهَا ذُوْ العَيْنِ والفُلُوسِ) أي الذي يبذلها لأجل نيلها من صدقة أو هبة أو هدية أو غيرها.

وقوله: (وَإِنَّمَا تُبَاعُ بِالنُّفُوسِ) حتى لا يبقى لها شعور بالبيع ولا بالمبيع؛ لأن المشتهي هو النفس والشراء يتلفها وإذا تلف المشتهي زال الملك، فليس إلا الفناء وذهاب الرسم

---

(١) إشارة لما أخرجه البخاري في فضائل سورة البقرة (٦/ ٨٢) قول ابْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: في بني إسرائيل والكهف ومريم إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي. ومعناه أنهن من أول ما نزل من القرآن وأنهن ميراث عتيق أفتخر به.

والوسم حتى لا يحس بوجود ولا عدم، ويرحم الله القائل إذ قال:

قَدْ كُنتُ أَحْسَبُ أَنَّ وَصْلَكَ يُشتهى بنَفَائِسِ الأَمْوَالِ وَالأَرْبَاحِ
وَظَنَنتُ جَهْلًا أَنَّ حُبَّكَ هَيِّنٌ تَفْنَى عَلَيهِ كَرَائِمُ الأَرْوَاحِ
حَتَى رَأَيتُكَ تَجْتَبِي وَتَخُصُّ مَنْ تَخْتَارُهُ بلَطَائِفِ الأَمْنَاحِ
فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لا تُنَالُ بحِيلَةٍ وَلَوَيتُ رَأْسِي تَحْتَ طَيِّ جَنَاحِ
وَجَعَلْتُ فِي عِشِّ الغَرَامِ إِقَامَتِي أَبَدًا وَفِيهِ تَوَطُّنِي وَرَوَاحِ

ومعنى بيع النفوس هو أن لا يبقى لها حظ ولا لحظ؛ إذ المؤمن يشغله الثناء عن الله أن يكون لنفسه شاكرًا، وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرًا، وذلك لا يكون مع وجود التقصير بل مع التوقير والتشمير وكمال الغنى في عين البقاء المطلق.

وقد تضمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ (التوبة: ١١١) الآية. إذ المبيع لا يبقى لبائعه حق فيه ولا حظ، ولا تدبير له مع مشتريه ولا نسبة له في وجوده مع مالكه وإنما جاء بيان الآية بذلك إظهارًا للرحمة وتبيينا للكرامة، وإتمامًا للنعمة؛ إذ لا رحمة ولا نعمة أعظم من إكرام السيد عبده بإظهار النسبة له في وجوده وموجوده مع عزله عن وجوده وموجوده بطريق الرحمة والكرامة لا بطريق القهر والقوة، والله أعلم.

و(المَقَاصِرُ): جمع مقصورة، وهي التي لا ينالها غير من هي له من الحور ونحوها، وهي هنا استعارة للمعاني إذ لا ينالها غير أهلها، وأنشدوا ما في معنى ذلك:

الأُنْسُ بِاللهِ لا يَحوِيهِ بَطَّالُ وَلا يَحُوزُه بِالحَوْلِ مُحْتَالُ
والآنسون رِجَالٌ كُلُّهُمْ نُجُبٌ وَكُلُّهُم صَفْوَةٌ للهِ عُمَّالُ

واستعار لها أيضًا (البَحَائِرْ) لما فيها من الفوائد المتجددة؛ فإن البحيرة: هي المقتات. وقوله: (لحَائِرِ.. إلخ): فيه تنبيه على أنه لا ينال ذلك إلا من خرج من الحيرة إلى إفراد الوجه؛ فلا يصفو القلب حتى ينجمع الهم، ولا ينجمع الهم حتى تتفرد الحقيقة، ولا تتفرد الحقيقة حتى يتحد التجلي، فيرى العبد كل داء فيه واحدا، فيرجع به إلى واحد فيكون دواؤه واحدًا.

قيل للجنيد ﵁[1]: كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله تعالى بتوبة تزيل الإصرار، وخوف يزيل التسويف، ورجاء يبعث على مسالك العمل، وإهانة النفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل، قيل له فبماذا يصل العبد إلى هذا؟ قال: بقلب مجرد فيه توحيد مفرد. اهـ. وهذا أمر لا سبيل إليه سوى الضراعة لمن بيده القلوب وعنده مفاتيح الأمور، فافهم.

وقوله: (هَذِهِ العِبَارَةِ) يعني التي ذكرها من قوله (فهذه الحقيقة النفسية.. إلى هنا) والله أعلم. تحصيل مدار ما ذكره على أن المريد في أول حاله في انجماع وانضباط وفي ثاني أمره في التذاذ واغتباط وفي ثالث أمره في حيرة واختباط، فإن هو رجع إلى مولاه وتطارح عليه بترك الدعوى وعدم الالتفات تولاه وإلا بقي في حيرة الأبد.

فقد قال سهل بن عبد الله ﵁: إن الله إذا أنعم على عبد بحالة سلبه عنها فإن هو قدر قدرها ورجع إليه فيها ردها إليه وإلا لم تعد إليه أبدًا.

وقال في «الحكم»[2]: ربما وردت الظُلَم عليك ليعرفك قدر ما منَّ به عليك فمن لم

---

(١) هو سيد الطائفة، الإمام أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز القواريري المتوفى سنة ٢٩٧ هـ، انظر ترجمته في «الرسالة القشيرية» (١/ ٧٨)وفي «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٥٥).

(٢) «الحكم العطائية»، الحكمة رقم (١٧٢).

يعرف قدر النعم بوجدانها عرف بوجود فقدانها. وقال عليه السلام فيما يروى عنه وقد وجد كِسْرة ملقاة: «يا عائشة أحسني جوار نعم الله تعالى فَقَلَّ ما زالت نعمة على قوم وعادت إليهم»[1].

اللهُمَّ عَرِّفْنَا نِعَمَكَ بِدَوَامِهَا وَلَا تُعَرِّفْهَا لَنَا بِزَوَالِهَا، وَأَنْقِذْنَا مِن الحِيرَةِ، وَعَامِلْنَا بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. وهذا آخر الطرف الأول.

فأما الطرف الثاني فهو الذي شرع فيه إذ قال رحمه الله:

(٥١) فَلْنَرْجِعْ الآنَ لِبَاقِي الفَصْلِ ... إِذْ فِي تَمَامِهِ ثُبُوتُ الأَصْلِ
(٥٢) فَقَادَةُ الصُوفِيِّ أَهْلُ الصُّفَّةْ ... فِي زَمَنِ الرَّسُولِ فَاعْرِفْ وَصْفَهْ
(٥٣) وَهُمْ ضِيَافُ اللهِ والإِسْلَامِ ... وَجُلَسَاءُ سَيِّدِ الأَنَامِ

قلت: يعني أن الصوفية اتباع أهل الصفة فهم قادتهم أي متبوعوهم وعلى هذا يكون اسم التصوف منقول من ذلك وهو أحد الأقوال فيه بل إليه المرجع في المعنى، والله أعلم.

و(الصُّفَّة) موضع في المسجد كان يجلس فيه فقراء الصحابة المتجردين فعرفوا به، وكانوا يعرفون بأضياف الله وبأضياف الإسلام، وكانوا نحوًا من ثمانين رجلًا، وآثروا التجرد للعبادة وملازمة سيد المرسلين مع التزام شرط ذلك من ترك التشوف للأسباب والرضا بما يواجههم الحق به من سعة أو ضيق فلذلك لم يأمرهم عليه الصلاة والسلام بالتسبب ولا ندبهم إليه إلا من تشوف منهم لذلك، مثل حكيم ابن حزام ﷺ: إذ كرر

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٣٠٦)، والطبراني في الأوسط (٦/ ٢٩٣).

عليه المسألة فقال له عليه السلام: «إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ولأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه»[1] الحديث فدله ﷺ على التسبب لَمَّا تشوفت نفسه للأسباب بدلا من المسألة؛ إذ هي آخر كسب المؤمن بخلاف غيره إذ لم يتشوف.

ولذلك قال الخواص ﵁[2]: صارت الأسباب في النفس قائمة فالتسبب أولى ولكن بكسب أحل له لأن القعود عن المكاسب لا يصح لمن لم يستغن عن التكلف أهـ.

وإليه الإشارة بقوله ﵀:

(٥٤) كَانُــوا عَــلَى التَجْرِيــدِ عَامِلِــينَ وَعَــنْ سِــوَى الرَّحْمَــنِ مُعْرِضِــينَ

قلت: وإنما كانوا عاملين على هذا التجريد محققين في تجريدهم بما تحققوا إعراضهم عن سوى مولاهم، كما أخبر عنهم في قوله: الكريم: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الأنعام: ٥٢) فافهم.

---

(١) أخرجه البخاري بلفظ آخر برقم (٢٤٣٤) «عن حكيم بن حزامٍ قال سألت النبى ﷺ فأعطانى ثم سألته فأعطانى ثم سألته فأعطانى ثم قال « إن هذا المال خضرةٌ حلوةٌ فمن أخذه بطيب نفسٍ بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفسٍ لم يبارك له فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى »، وأخرجه الترمذي في جامعه برقم (٢٤٦٣).

(٢) هو الشيخ أبو إسحق ، إبراهيم بن أحمد الخواص، كان من أقران الجنيد وأبي الحسين النوري ، قال عنه السلمي: «كان أوحد المشايخ في وقته»وكان يقول: «دواء القلب خمسة أشياء. قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين» ، توفي ﵀بالري سنة ٢٩١هـ، أنظر ترجمته «الرسالة القشيرية» (١/ ١٠٤)، «طبقات الأولياء » للسلمي صـ ٢٢٠.

وقد روي أن عمر ﷺ: رأى ثلاثة نفر يتعبدون في المسجد فقال لأحدهم: من أين تأكل؟ فقال: من عند الله يوجد لي رزقي من أي جهة شاء. فتركه ولم يتعرض له بشيء، وقال للآخر: من أين تأكل قال من عند أخ لي. قال: أخوك أعبد منك. وقال للثالث: من أين تأكل؟ فقال: إن الناس يرونني في المسجد فيأتونني بها آكله. فعلاه بالدِّرَّة[1]. انتهى.

ونقلته بالمعنى لطول العهد به من مدخل ابن الحاج[2] فانظره فهذا الذي ذكر عن أهل الصفة صورة حالهم الظاهرة فأما صفتهم الباطنة فتوجه لها بأن قال ﷺ:

(٥٥) تَخَلَّقُوا بِخُلُقِ النَّبِيِّ يَدْعُونَ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ

قلت: تخلقهم بخلقه عليه السلام فيما هم به من تجريد وصبر وتوكل وعدم التفات لما سوى الحق مع التزام الذكر بكرة وعشيا إذ قد أمره الله بذلك فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف: ٢٠٥) وهو أمر فيه إرشاد وتزكية وفيه تنبيه وترقية ليكون محجة القوم وحجة على الآخرين لأنه عليه السلام كان مُحلًّى بذلك قبل صدور الأمر كما بعده، فافهم.

وقد وصفهم مولانا بذلك في قوله: تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ (الكهف: ٢٨) الآية وهذا كنهي البار عن العقوق، وأمره بالبر ليكون أثبت وأوفى وأتم في الحجة وإظهارًا لتشريف قدر هذه

(١) سوط كان يؤدب به الناس، واشتهر به ﷺ.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري المعروف بابن الحاج صاحب كتاب «المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على كثير من البدع المحدثة والعوائد المنتحلة»، وهو من كبار علماء المالكية توفي سنة ٧٣٧هـ.

الجماعة وما هم عليه من محامد الأخلاق وإلا فهو عليه السلام لا يعمل إلا ذلك قبل الأمر وبعده، ثم ما وصفهم به مولاهم من ذلك غير معلل بعلة سوى إرادة وجهه الكريم وذلك أمر فهموه من مقاصد الشريعة، كما نبه عليه المؤلف إذ قال رحمه الله:

(٥٦) قَدْ فَهِمُوا مُقْتَضَيَاتِ الشَّرْعِ فَصَيَّرُوا الفَرْقَ لِعَيْنِ الجَمْعِ

قلت: مقتضى الشرع في جميع الوجوه أن يكون العبد لربه بربه في جميع حالاته؛ فكونه لربه يقوم بحق التكليف وبكونه بربه يقوم بحق التعريف فيكون ممتثلًا لأمره في جميع حالاته، مستسلمًا لقهره في عموم أوقاته، يدعوه لكونه لا يرى الأمر إلا منه وبه وله، ويقوم بواجبات وقته لكونه لا يرى لغيره حقًّا عليه عملًا بقوله: تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فَرْقٌ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ جَمْعٌ؛ إذ الفرق شهود خلق بلا حق، والجمع شهود خلق وحق فالجمع في عين الفرق في قوله: تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة: ٦) الخ، فافهم.

ومن مقتضيات الجمع في عين الفرق والخروج عن كل شيء منه وله، وهذا ما ذكره بأن قال رحمه الله:

(٥٧) قَدْ خَرَجُوا للهِ عَمَّا اكْتَسَبُوا فَكُلُّ صُوفِي إِلَيهِمْ يُنْسَبُ

قلت: خروجهم عما اكتسبوا هو أنهم لا يعتدون بشيء في أيديهم ولا يرونه ملكا لهم بل يرون أنفسهم خزائن الله في ما ملكهم؛ فهم يترصدون سد الخلل من المعارف والحقائق، فافهم.

وقد سأل بعض الفقهاء أبا بكر الشبلي رضي الله عنه[1] لقصد اختبار حاله في العلم فقال: يا أبا بكر، كم في خمس من الإبل؟ قال: أما الواجب فشاه، وأما عندنا فكلها لله. قال: ما دليلك على ذلك؟ قال: أبو بكر حين خرج عن ماله كله لله ورسوله؛ فمن خرج عن ماله كله فإمامه أبو بكر، ومن خرج عن بعض وترك بعضا فإمامه عمر، ومن أعطى لله ومنع لله فإمامه عثمان، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علي، وكل علم لا يدل على ترك الدنيا فليس بعلم. انتهى بالمعنى المجازي للفظه، وذكره صاحب «الإنالة العلمية»[2] فانظره.

وقوله: (فَكُلُّ صُوفِي إِلَيهِمْ يُنْسَبُ) معناه أن الصوفي هو المتصف بأوصافهم المذكورة فهو منسوب إليهم سواء كان غنيًّا أو فقيرًا لأن الله عز وجل لم يمدحهم بالعدم وإنما مدحهم بكونهم يدعونه بالغداة والعشي يريدون وجهه، فمن اتصف بهذا كان على طريقتهم غنيًّا كان أو فقيرًا.

ودليل ذلك أنه كان منهم فيما بعد الأمير والفقير والمكتسب والمجرد ولم ينقل ذلك وصفهم عما كانوا موصوفين به ولا نقصهم عما هم فيه من العمل بالحق والحقيقة بل شكروا على الدنيا حين وجدت كما صبروا عنها حين فقدت، فكانوا لمولاهم في الحالين. ومن كان عنده الصفة فهو تابع لهم، فاعرف ذلك، وإذا كان أصل التصوف

(١) هوالشيخ الزاهد العارف أبو بكر، دلف بن جحدر بن يونس الشبلي، صحب خير النساج والجنيد وغيرهما، ومن أقواله رضي الله عنه: «من كان بالحق تلفه، كان الحق خلفه»، توفي رحمه الله ببغداد سنة ٣٣٤هـ أنظر ترجمته «الرسالة القشيرية» (١/ ١١٦).

(٢) «الإنالة العلمية من الرسالة العلمية فى طريقة الفقراء المتجردين من الصوفية» لابن ليون التجيبي المتوفى ٧٥٠هـ مخطوط،اختصر به رسالة في أحوال فقراء الصوفية المتجردين لأبي الحسن الششتري، وتعرف أيضا باسم «مختصر الرسالة العلمية».

حال أهل الصفة فهو أمر ثابت من الشارع بتقريره ولم يبق البحث إلا في التسمية، وهو أمر اصطلاحي لا مدخل للإنكار فيه إن سلم من عوارض الألفاظ، والله أعلم. وهذا ما نبه عليه المؤلف إذ قال رحمه الله:

(٥٨) إِذًا فَشَأْنُ القَومِ لَيسَ مُحْدَثًا ... بَلْ كَانَ أَحْوى فَوَجَدْنَاهُ غَثًّا

قلت: **شأن القوم**: طريقهم الذي تعلقوا به لم يكن محدثا في ذاته بحيث لا حل له بل له هذا الأصل العظيم، وكيف يكون محدثا ومدار الشريعة عليه إذ مقصده أن يكون العبد على حالة يرضاها الله ورسوله في جميع حالاته ظاهرًا وباطنًا؟ وبحسب هذا فكل علم تبع له إذ ليس هو إلا شرط فيه أو مكمل له لأنه دائر على مقام الإحسان الذي فسره صلى الله عليه وسلم تسليما بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1] وذلك لا يصح بدون ما تقع به العبودية. والتعبد من عقائد الإيمان وأعمال الإسلام فهما ظاهره كما أنه باطنهما؛ لا قيام لهما إلا به كما لا صحة له بدونهما؛ كمثل الأرواح والأجساد، فافهم.

ثم المتكلم في أحكام مقام الإسلام يسمى فقيهًا وعلمه يسمى فقهًا، والمتكلم في علوم الإيمان يسمى أصوليًّا، ويسمى علمه أصولًا، والمتكلم في علم التصوف يسمى متصوفًا ويسمى علمه تصوفًا، والكل اصطلاح، غير أن الفقه وجد في الصدر الأول اتفاقًا، وكان يطلق على كل محقق في علم، ثم تميز الاصطلاح بعد، وأنكر بعض الناس اسم التصوف بما لا حاصل تحته فلا نطول بذكره.

---

(١) جزء من حديث أركان الدين المشهور، أخرجه مسلم في الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه برقم (١٠٢) باب معرفة الإيمان والإسلام، وأخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه برقم (٥٠) باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال صاحب الإنالة: «وجد في زمن السلف إذ قال الحسن ﷺ: لقيت صوفيًا في الطواف فأعطيته شيئًا ولم يقبله. والحسن من كبار التابعين في زمانه حجة ومحجة إلا فيما ظهر ذكره، ولا تقل إلا فيما ذكر من ذلك وما ذكره القشيري رحمه الله إنما هو باعتبار اشتهاره وهذا شيء لا فائدة للمريد في الكلام فيه. وقد أتينا منه بطرف جميل في القواعد فانظره.

قوله: (بَلْ كَانَ أَحْوى) يعني أخضر غضًا طريًا. (فَوَجَدْنَاهُ غَثًّا) أي هشيمًا يابسًا لم تتغير حقائقه وإنما تغيرت أعيانه فكان يصلح للرعي أولا وآخراً، وهي استعارة لأن العمل به لا ينقطع، وهي استعارة مليحة والله أعلم.

وإذا كان الأمر كذلك فسلوك الطريق متعين على كل ذي توفيق كما قال رحمه الله:

(٥٩) فَاسْلُكْ طَرِيقَ القَومِ تَلْقَ يُمْنَه إذِ الكِتَابُ قَيْدُهُ وَالسُّنَّة

قلت: **اليُمْنُ** هو الخير الكثير والإقبال الكبير فيمن الطريق خيره وبركته. وقوله: **الكتاب والسنة قيده** أشار به لقول الجنيد ﷺ: علمُنا هذا مقيد بالكتاب والسنة. فهم لم يفعلوا شيئًا ولا قاموا به ولا ظهر عليهم نفيًا ولا ثبوتًا إلا بمستند منهما ولكن الكلام في وجه إدراك ذلك، فمن أدرك ذلك صح له العمل به، ومن لا فلا؛ لأنهم قد أحالوا عليهما، ومولانا جلت قدرته نهى عن اتباع ما لا يعلمه العبد فقال عز من قائل (ولا تقف ما ليس لك به علم)، وقال جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ (القصص: ٥٠)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ (يوسف: ١٠٨) فجعل التبصر شرطًا في الاتباع لأنه رمى به في عمايه فلا يجوز لأحد أن يأخذ إلا بما بَانَ له رشده، ويجتنب ما وراء ذلك مما لا علم له به من غير

اعتراض إلا لدليل قاطع أو أمر واضح، فقد قال إمام الأئمة مالك ﵀: عليك بالذي لا تشك فيه ودع الناس ولعلهم في سعة.

وقد تكلم الشيخ أبو إسحاق الشاطبي(١) رحمه الله في هذه المسألة كلامًا شافيًا يطول نقله، وقد أوردناه في كتابنا في التحذير من بدع الوقت(٢) فليقف عليه من أراده(٣)، وبالله سبحانه التوفيق.

۞۞۞

(١) هو الإمام الأصولي، ابراهيم بن موسى بن محمد، أبو إسحاق اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، صاحب «الموافقات في أصول الفقه» و«الاعتصام في الحوادث والبدع» توفي رحمة الله سنة ٧٩٠هـ أنظر ترجمته في «نيل الابتهاج» للتنبكتي صـ٥٦، «شجرة النور الزكية» لمخلوف صـ ٢٣١

(٢) هو كتاب «عدة المريد الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق القصد وذكر حوادث الوقت » طبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب تحقيق إدريس عزوزي ط١٩٩٨.

(٣) نقل الشارح الشيخ أحمد زروق عن الإمام أبو اسحق الشاطبي في عدة المريد ما نصه «كُلُّ مَا عَمِلَ بِهِ الْمُتَصَوِّفَةُ الْمُعْتَبَرُونَ فِي هَذَا الشَّأْنِ لَا يَخْلُو: إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّا ثَبَتَ لَهُ أَصْلٌ فِي الشَّرِيعَةِ أَمْ لَا: فَإِنْ كَانَ لَهُ أَصْلٌ، فَهُمْ خُلَفَاءُ بِهِ، كَمَا أَنَّ السَّلَفَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ خُلَفَاءُ بِذَلِكَ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ فِي الشَّرِيعَةِ، فَلَا عَمَلَ عَلَيْهِ، لِأَنَّ السُّنَّةَ حُجَّةٌ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ، وَلَيْسَ عَمَلُ أَحَدٍ مِنَ الْأُمَّةِ حُجَّةً عَلَى السُّنَّةِ، لِأَنَّ السُّنَّةَ مَعْصُومَةٌ عَنِ الْخَطَإِ وَصَاحِبَهَا مَعْصُومٌ، وَسَائِرُ الْأُمَّةِ لَمْ تَثْبُتْ لَهُمْ عِصْمَةٌ، إِلَّا مَعَ إِجْمَاعِهِمْ خَاصَّةً، وَإِذَا اجْتَمَعُوا، تَضَمَّنَ اجْتِمَاعُهُمْ دَلِيلًا شَرْعِيًّا كَمَا تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ» أنظر صـ ٢٦٣ المرجع السابق.

الفصل الثاني
في فضله

قلت: يعني في ذكر علم فضل الصوفية في ذاته، وفضل عمله في وجوده، والصفة التي يظهر بها كونه فاضلًا، واستدعاء ذلك تعريف طرائق القوم وما حدوا عليه، وأول ما تكلم في ذلك من طريق الأصل على وجه الدعوى، وفيه بيان لأن من لم يكن مراقبًا لما ذكر في ذلك فليس من أهله، فقال رحمه الله تعالى:

(٦٠) حُجَّـةُ مَـنْ يُرَجِّـحُ الصُّوفِيَّـةْ ... عَـلَى سِـواهُم حُجَّـةٌ قَوِيَّـةْ
(٦١) هُـمْ أَتْبَـعُ النَّـاسِ بِخَـيرِ النَّـاسِ ... مِـنْ سَـائِرِ الأَنَـامِ والأُنَـاسِ

قلت: أما قوة حجتهم فمن وجوه:

أحدها: إن غاية الاتباع إنما تظهر عليهم لا باعتبار العلم ولا باعتبار العمل؛ لأن الأصولي يعتبر ما يثبت به الإيمان والسنة أو ينتفيان من حقائق العقائد من غير زائد، والفقيه يعتبر ما يثبت به الحرج أو ينتفي من سائر الحركات الجسمانية أو القلبية، والصوفي يعتبر ما يثبت به الكمال والنقص في الوجهين المتقدمين؛ فهو يأخذ بما عند صاحبيه ويزيد الكمال مع مطالبة النفس بالإنصاف فيما علمه من المحامد وترك المذام فيما قل وجلّ، فصار أكمل الناس اتباعًا.

الثاني: إن طلب الكمال يستدعي إيثار الأحسن أبدًا لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ (الزمر: ١٨) فهم يأخذون في كل شيء بأحسنه دليلًا أو وجهًا أو احتياطًا أو ما في معناه، فيكون اتباعهم أكمل من غيرهم.

الثالث: إن الشيء يشرف بشرف متعلقه، ولا أشرف من متعلق علوم الصوفية، لأن مبدأها الكلام في التوحيد الموجب للخشية، وأوسطها الكلام في أحكام العبودية، وأعلاها التبرؤ من ما سوى الربوبية حتى من وجود العبد وموجده، فافهم.

وبحسب هذا فكل العلوم دونه في الفضل، لكن حكم الفقه عام في العموم؛ لحفظ النظام وربط الحكمة بالأحكام فلذلك كان مقدمًا عليه في الحكم والطلب إذ لا يصح مشروط بدون شرطه ولا تقدم خاص المصلحة على عامها، ولذلك صح الإنكار عليه، وقيل: **كن فقيها صوفيا ولا تكن صوفيا فقيهًا**. وصوفي الفقهاء أتم حالًا من فقيه الصوفية؛ لأنه قد قام بعين المقصد والمراد، فافهم.

وقوله (**الأَنَامِ والأُنَاسِ**) بمعنى واحد، هما مترادفان والله أعلم.

ثم ذكر المؤلف رحمه الله وجوه ما أشرنا إليه بأن قال:

(٦٢) **[يَتْبَعُـــهُ]**[1] **العَـــالِمُ فِي الأَقْـــوَالِ** **والعَابِـــدُ النَّاسِـــكُ فِي الأَفْعَـــالِ**
(٦٣) **وفِيهِـــمَا الصُـــوفِيُّ فِي السِّـــبَاقِ** **لَكِنَّـــهُ قَـــدْ زَادَ بِالأَخْـــلَاقِ**

قلت: يعني أن العلماء ورثوا من النبي صلى الله عليه وسلم تسليما أقواله، والعباد ورثوا منه أفعاله، والصوفية ورثوا الجميع بزيادة الأخلاق الجميلة فمستند العالم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤) ومدد العابد من قيامه عليه الصلاة والسلام حتى تورمت قدماه. وموقف الصوفي عند قوله: تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤). قالت

(١) وردت بالأصل «تَبِعَهُ» والأصح عروضياً ما أثبتناه.

عائشة ﵂: «كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويغضب لغضبه»[1]، ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، وبحسب هذا فالمتعلق بخلقه عليه الصلاة والسلام متعلق بكل ما له من علم وعمل وحال لأنها تابعة للأخلاق، ولن ينال أحد من ذلك إلا رشفة أو رَشَّة بحسب العناية السابقة، هذا وجه من الدلالة فأما الاحتجاج فله مدرك توجه له المؤلف إذ قال ﵀:

(٦٤) ثُمَّ بِشَيْئَيْنِ تَقُومُ الْحُجَّةْ ... وَأَنَّهُم قَطْعًا عَلَى الْمَحَجَّةْ

(٦٥) مَذَاهِبُ النَّاسِ عَلَى اخْتِلَافِ ... وَمَذْهَبُ الْقَوْمِ عَلَى ائْتِلَافِ

(٦٦) وما أَتَوا فِيهِ بِخَرْقِ الْعَادَةْ ... إِذْ لَمْ تَكُنْ لِمَنْ سِوَاهُمْ عَادَةْ

قلت: (المَحَجَّة): الطريق المستقيم، والمراد به هنا طريق الحق الذي لا مِرْية فيه، وذكر في الوجه الأول أنَّ[2] مذاهب الناس ذات اختلاف، ومذهب القوم ذو ائتلاف، فالتصوف كله راجع للصدق، أي صدق التوجه إلى الله تعالى من حيث يرضى بما يرضى، وعبارة كل أحد عنه على قدر ما نال منه إذ كل عبارة فيه إنما هي مُخبرة عن صدق توجه صاحبها، ولذلك اتبع أبو نعيم غالب أهل حليته[3] بذكر قولٍ من أقوالهم يناسب حالة ذلك الشخص بعد تحليته قائلًا: وقيل إن التصوف كذا فأشعر أن تصوف كل أحد صدقُ توجهه، وأن من له نصيب من صدق التوجه له نصيب من التصوف إذا كان

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (فصل في إدامة ذكر الله عز وجل) واللفظ له، ومسلم في الصحيح برقم (٧٤٦) من حديث طويل بلفظ «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ الله ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ».

(٢) في النسختين: هو أن. والجملة أكثر استقامة بدون لفظة (هو).

(٣) كتاب «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» للإمام أبو نعيم الأصبهاني المتوفى سنة ٤٣٠هـ.

توجهه بما يرضاه الحق ومن حيث يرضاه وإلا فهو زنديق واسم التصوف عليه لا حقيقة له، ولذلك قيل: من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق.

قلت: تزندق الأول برفضه الحكمة والأحكام، وتفسق الثاني بخلوه عن صدق النية فيما هو به والعمل به، وتحقق الثالث لقيامه بكلٍّ في محله؛ فمرجع كلام الصوفية في كل باب لأحوالهم وإلا فلا تنافي بين أقوالهم عند تأملها وذلك خلاف مذاهب غيرهم فمذاهب غيرهم يتسلط عليها الإبطال، و(مَذْهَبُ القَوْمِ) يرجع به إلى وفاق الحال فإن لم يقبل ذلك فليس من مذاهبهم، هذا الوجه الأول من الترجيح، والوجه فيه أن الحق واحد وطريقه واحد وإن اختلفت مسالكها، والجاهلون لأهل العلم أعداء، فالعلماء بعضهم لبعض أحباء، وإنما يتنافى الحق والباطل لا الحق في نفسه، وفي ذلك قال قائلهم:

الطُّرُقُ شَتَّى وَطَرِيقُ الحَقِّ مُفْرَدَةٌ ... وَالسَّالِكُونَ طَرِيقَ الحَقِّ أَفْرَادُ
لا يُعْرَفُونَ وَلا تُسْلَكُ مَقَاصِدُهُمْ ... فَهُمْ عَلَى مَهْلٍ يَمْشُونَ قُصَّادُ
وَالنَّاسُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِم ... فَجُلُّهُم عَنْ طَرِيقِ الحَقِّ حُيَّادُ

فأما الحجة الثانية وهي ما ظهر عليهم من خوارق العادة الشاهدة بوجود صدقهم مع الله سبحانه فيما هم فيه، واتباعهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا فيما هم عليه لأن كرامة المتَّبع تصديق للمتَّبَع؛ فهي من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم تسليمًا على من اتبعه لأنها تحقيق لصدق ما جاء به.

وقد قيل: خرق العادة كرامة للمتبع واستدراج للمبتدع يعرف بينهما التوفيق في

سلوك الطريق. وقد علم من القوم التحفظ في الاتباع، فهي كرامة لهم تشهد بصحة طريقتهم في الجملة لا في الأعيان، وثبوتها عنهم تبلغ مبلغ التواتر في النقل والإجماع في الإخبار؛ فلا يحتاج لدليل والله أعلم. ثم توجه لذكر أوصافهم وطريقهم ﭬ فقال ﭬ:

(٦٧) قَـدْ رَفَضُـوا الآثَـامَ وَالعُيوبَـا وَطَهَّـرُوا الأَبْـدَانَ وَالقُلُوبَـا

(٦٨) وَبَلَغُـوا حَقِيقَـةَ الإِيـمَانِ وانْتَهَجُـوا مَنَاهِـجَ الإِحْسَـانِ

قلت: (رَفَضُوا): رموا، وتركوا خلف ظهورهم. (الآثَامَ): أي المعاصي؛ بحيث لم يلتفتوا إليها بعد بوجه ولا بحال. ورفضوا (العُيوبَا) وهي كل ما يوجب نقصًا من الشهوات والغفلات ورديء العبادات؛ فطهروا الأبدان من العيوب والذنوب الظاهرة بوجود التقوى والاستقامة وطهروا القلوب من الأخلاق المذمومة محرمة كانت أو مكروهة بوجود التزكية والرياضة فلم يبق فيهم شيء من الذنوب والعيوب مما يعلمونه، ثم لجئوا لمولاهم في الطهارة مما يعلمونه فكانوا مطهرين بتطهيره الأمري أولًا وبتطهيره الإفضالي آخرا وإن كان هو السابق لهم في الجمع، فللنسب اعتبار فافهم.

وهذا منتهى قيامهم بحق الإسلام الذي مداره على عمل الجوارح، فعندما صح لهم ذلك طلع في قلوبهم مجيء الإيمان الذي يقتضي رؤية ما هم فيه لا بهم ولا منهم لأن الأمر لمولاهم لا لهم فسلموا واستسلموا عملا بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ (لقمان: ٢٢) فإذا تحقق لهم ذلك وقفوا في رياض الإحسان وهو محل المواجهة والعيان.

وقد قال بعض العارفين ﭬ: من بلغ إلى حقيقة الإسلام لم يقدر أن يفتقر عن العمل ومن بلغ إلى حقيقة الإيمان لم يقدر أن يلتفت إلى العمل ومن بلغ إلى حقيقة

الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله تعالى.

قلت: معنى بلوغه لحقيقة الإسلام والإيمان والإحسان هو أن يباشر ما يقتضيه ذلك قلبه مباشرة تقتضي له العمل بما يقتضيه من غير توقف ولا تردد ولا التفات، فالإسلام يقتضي وجود العمل، والإيمان يقتضي التبرؤ من الحول والقوة مع العمل، والإحسان يقتضي وجود الفناء في الحق بكل حال وهو أقصى المراتب وإن كانت له مراتب لا تتناهى، فافهم فهذه معاملات القوم. فأما علومهم فأشار إليها بأن قال رحمه الله:

(٦٩) وَعَلِمُوا مَرَاتِبَ الوُجُودِ كَالأُمِّ وَالوَالِدِ وَالمَوْلُودِ

(٧٠) واسْتَشْعَرُوا شَيئًا سِوىَ الأَبْدَانِ يَدْعُوْنَهُ بِالعَالَمِ الرُّوحَانِي

قلت: أما علمهم بمراتب الوجود فعلى ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: مراتبه من حيث الحكم وذلك حظ العقل من حيث الوجوب والجواز والاستحالة وهو مراد للنفي والإثبات.

الثاني: مراتبه من حيث التركيب ونفيه وذلك حظ القلب الذي شأنه الفهم لما يعرض له من أحد العوالم الثلاثة: الملك والملكوت والجبروت على الجملة والتفصيل وهو لا يتناهى. وقد ذكر منه شيخنا أبو العباس الحضرمي[1] رضي الله عنه في كتابه «صدور المراتب»[2] طرفًا محيطًا بما وراءه، وإن كان لا إحاطة له، فافهم. **الثالث**: مراتبه من حيث

(١) هو الشيخ العارف أحمد بن عقبة الحضرمي المتوفى سنة ٨٥٧هـ وهو شيخ الشارح رحمهما الله، وقد ألف الشيخ زروق كتابا في مناقب شيخه سماه «مناقب الحضرمي»، وقد طبع بتحقيق د محمد عبدالقادر نصار، دارة الكرز، ٢٠٠٨.

(٢) للشيخ زروق شرح على هذا الكتاب يسمى «فتح المواهب وكنز المطالب في التنبيه على بعض ما يتعلق

الذوق والإدراك وهو على ثلاثة أيضًا: ذوق الأرواح، وذوق الأشباح، وذوق الواسطة بينهما وهو الطبع، وقد يقال النفس وكل منها لا يعرف حقيقتة غير ذائقه.

وقوله: (كَالأُمِّ وَالوَالِدِ وَالمَوْلُودِ) يعني أنهم يعرفون من ذلك نتاجه ومنتجه ووجه استنتاجه وعدمه، وتكون معرفتهم له بوجه لا يمكن الشك فيه، كما يعرف الوالد ولده والمولود والده وكذلك الوالدة، فافهم.

وقوله: (واسْتَشْعَرُوا شَيئًا إلخ) يعني أنهم غلب على قلوبهم إيثار عالم الأرواح وهو الطالب للمعاني والكمالات جملةً وتفصيلًا؛ فكانوا في طلب كماله وإيثاره ومن ذلك قول ابن عطاء الله في «الحكم»: وسعك الكون من حيث جسمانيتك ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك. ثم قال: الكائن في الكون ولم يفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته ومحصور في هيكل ذاته. انتهى.

ثم اعلم أنا ندرك من نفوسنا تفصيلًا في القلوب فنسمي لكل وجه معنى فنقول: أدرك بعقله وفهم بقلبه وعلم بسره واشتهى بطبعه وهوى بنفسه وشاهد بروحه، ثم لا ندري: هل ذلك واحد يتنوع أو متعدد؟ إذ لا اطلاع لنا على أصل النشأة، فاعرف ذلك.
ثم أشار إلى ما يدركه الذوق عندهم فقال:

(٧١) ثُـمَّ أَمَـامَ العَـالَمِ المَعْقُـولِ مَعَـارِفٌ تَلْغَـزُ فِي المَنْقُـولِ

بصدور المراتب ونيل المراغب»، ذكره إسماعيل باشا البغدادي في «إيضاح المكنون» (٤/ ١٧٥)، وابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب» (٩/ ٥٤٧)تحت عنوان «شرح صدور الترتيب». ويوجد منه نسخة مخطوطة بالرباط تحت رقم (د٢٢٨٤).

(٧٢) وَفَهِمُــوا[١] أَنَّ لهــم تَمْكِينــا ... يَرْقَــى بِهِــمْ مَرْقَــى الْمُكَاشَــفَينَ

قلت: يعني أن وراء طور العقل ما لا وصول للعقل إليه من حيث ذاته وهي المعارف التي لا يمكن التعبير عنها عن نيل العبارة المنبئة ووضوحها من وراء حجاب الإشارة واللغز، وقد تحقق عند علماء النظر أن في مدرك العقل قصورًا عما وراء طوره وهي رتبته العليا، وأن نهاية عقل العاقل الإقرار بما فوق التعقل لا وجه التعقل بل إيمان وتسليم، فلا يصح إنكار ما أشار إليه وإن صح إنكار إظهاره فافهم.

وقد عُرِف أن لذة العسل لا تدرك بالعقل كما أن لذة الجماع لا تتوقف إلا على لذة الحِسِّ فوراء طور العقل ما لا وصول له من حيث ذاته وإن كان من جنس ما يدركه ويعرفه حق معرفته عند وضوحه، فقد قيل: إذا انطبعت الصور في مرآة الخيال قال العقل: أنا الفلك المكوكب، فقالت الرياضة: الزمني وتعرف قدرك. فإذاً العقل عاقل.

قيل: وإنما سمى عقلًا لأنه عقال عن دَرْكِ الحقائق من حيث ذاتها وإن كان مثبتًا لها من حيث الحكم والتصور الواقع فهو كما قيل:

وَنُــدْرِكُ مِنْهَــا في كَــمَالٍ وجُودِنَــا ... مَــا يُــدْرِكُ الْخُفَّــاشُ مِــنْ بَاهِــرِ الشَّــمْسِ

فلذلك قال بعضهم: الشريعة شيء وراء طور العقل كما أن العقل من وراء طور الحس وإن كان إثباتها إنما هو به. يعني له بعد ثبوتها واجب، فافهم.

وقوله: (وَفَهِمُوا.. إلخ) يعني أنهم أدركوا من وجودهم معنى يقتضي أنهم متمكنون من الوصول إلى المكاشفة بأمره كون أنهم إذا انتهوا إليه كوشفوا بالحقائق

---

(١) وردت بأصل المتن «وعلموا».

فصارت لهم في معرض العيان حتى لو كشف الغطاء ما ازدادوا يقينًا، غير أن لهم حجبًا عن ذلك مانعة من الوصول إليه دون إزالتها كما نبه عليه إذ قال ﷺ:

(٧٣) ثُـمَّ رَأَوْا أَنْ دُونَ ذَاكَ مَانِـعُ ... كَدَفْـتَرٍ نِيـطَ عَلَيـهِ طَابِـعُ
(٧٤) فَالقَـومُ حِـينَ عَلِمُـوا بِـذَاكَا ... وَمَيَّـزوا القُطَّـاعَ والأَشْرَاكَا
(٧٥) سَلُّوا مِـنَ العَـزْمِ لهـمْ قَوَاضِـبْ ... فانْبَـتَّ كُلُّ قَاطِـعٍ وَحَاجِـبْ
(٧٦) وَاحْتَزَمُـوا للطَعْـنِ والنِّـزَالِ ... وَابْتَـدَروا مَيَـادِنَ القِتَـالِ

قلت: يعني أنهم شعروا بحجاب الحقيقة بعد الشعور بها ورأوها مثل حرز عليه ساتر هو عالم النفوس والأبدان، وعرفوا أن ذلك لا يمكنهم الوصول إليه إلا بتمزيقه حتى لا تبقى له نسبة فيهم نفسًا وعقلًا وروحًا وجسمًا، وتمكن ذلك من قلوبهم تمكنًا كليًا حتى إذا تحققوا بذلك توجهوا له بصدق الهمة ليقطعوه عن أنفسهم بالعمل في الأسباب القاطعة من مجاهدة ورياضة وغيرها مما هو سبب زواله.

فكانت هممهم فيه كالقواضب أي السيوف التي تَبُتُّ أي تقطع كل ما وضعت عليه من الأجسام الكثيفة،وهذه مثلها في قطع كل قاطع معنوي من عالم الأبدان وحاجب من عالم النفوس، وذلك يقتضي وجود التشمير من المستأنِف بدلًا من البطالة في السالف، والمبادرة للإجابة قبل فوات وقت الإنابة؛ فأصحابه في حزم الأبد واستعداد لا ينفد، قائلين بلسان حالهم عند توجههم لمعاملاتهم وأعمالهم والتحقق بأحوالهم: السباقَ.. السباقَ[1]. قولًا وفعلًا؛ حذر النفس من حسرة المسبوق.

(١) في (أ): السابق. والمثبت من (ب) أكثر استقامة مع السياق.

(والدَفْتَر) الكتاب، ومعنى (نِيطَ) لُفَّ، (والطَّابِع) ما يختم به و(الأَشْرَاك) جمع شَرك بالفتح وهو ما يُصاد به، والمراد هنا: حِيَلُ النفس والشيطان.

وقد ذكر منها في «المنهاج»[1] سبعة شيطانية[2] تختص بالعبادة وغيرها كثير لا يدركها

---

(١) «منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين» وهو آخر مؤلفات الإمام الغزالي.

(٢) ذكر الإمام الغزالي في «المنهاج» ما نصه «إن مكائد الشيطان مع ابن آدم في الطاعات **سبعة أوجه** :

(الوجه الأول) أن ينهاه عنها ، فإن عصمه الله تعالى ردَّهُ بأن قال : فإني محتاج إلى ذلك العمل جداً ، إذ لا بد من التزود في الدنيا للآخرة التي لا انقضاء لها.

(الوجه الثاني) ثم يأمره بالتسويف ، فإن عصمه الله تعالى ورده قال : ليس أجلي بيدي عَلَيَّ إن سوفت عمل اليوم إلى غد فعمل غد متى أعمله؟ فإن لكل يوم عملا.

(الوجه الثالث) ثم يأمره بالعجلة ، فيقول له عَجِّل عَجِّل لتفرغ لكذا وكذا ، فإن عصمه الله تعالى ورده ، بأن قال : قليل العمل مع التمام خَير مَن كثيره مع النقصان.

(الوجه الرابع) ثم يأمره بإتمام العمل مراءاة للناس ، فإن عصمه الله تعالى ورده ، بأن قال : ما الذي أعمل بمراءات الناس ، أفلا تكفيني رؤية الله تعالى.

(الوجه الخامس) ثم يريد أن يوقعه في العُجب ، فيقول ما أعظمك . وأيقظك وما أفضلك، فإن عصمه الله تعالى ورده ، بأن قال المنة لله تعالى في ذلك دوني ، وهو الذي خصني بتوفيقه وجعل للعمل قيمة بفضله ، ولولا فضله فماذا كان هذا قيمة العمل في جنب نعمة الله عَلَيَّ وجنب معصيتي له؟.

(الوجه السادس) ثم يأتيه من وجه سادس وهو أعظمها : اجتهد أنت في السرّ فإن الله تعالى سيظهره عليك ويلبس كل عامل عمله وأراد بذلك ضربًا من الرياء. فإن عصمه الله ورده ، بأن قال : يا ملعون أنا عبد الله وهو سيدي إن شاء أظهر وإن شاء أخفى ، وإن شاء جعلني خطيرًا ، وإن شاء جعلني حقيرًا ، وذلك إليه ، وما أبالي، أظهر ذلك للناس أولم يظهره ، فليس بأيديهم شيء.

(الوجه السابع) ثم يأتيه من وجه سابع فيقول لا حاجة لك إلى هذا العمل ، لأنك إن خُلِقْتَ سعيداً لم يضرك ترك العمل ، وإن خُلِقْتَ شقياً لم ينفعك فعلك. فإن عصمه الله تعالى ورده ، بأن قال : إنما أنا عبد الله وعلى

إلا حازم يقظان. و(انبتَّ): انقطع انقطاعًا كليًا.

(والنِّزال) عبارة عن أشدِّ المحاربة؛ إذ كانت العرب إذا اشتد حربها نزل كل واحد عن فرسه وقاتل على رجليه فسموه النزال، واستعير هنا للتحامل في المجاهدة على أشد المجالدة بعدم المبالاة في طلب المراد، فافهم.

(والميادين) جميع ميدان، وهو مجال الخيل الذي تتردد فيه، استعارة لتردد الأمرين: القلب والروح في الدفع والجلب، والله أعلم.

ثم ذكر القاطع والموانع والحجب والأشراك بما ذكره حيث قال رحمه الله:

(٧٧) وَعَلِمُوا أَنْ لَيْسَ شَيْءٌ قَاطِعْ كَبَدَنٍ كَاسٍ وَبَطْنٍ شَابِعْ

(٧٨) وَنَظَرُوا الحِجَابَ لِلبَوَاطِنْ فَوَجَدُوه فِي النُّفُوسِ كَامِنْ

(٧٩) فَعَمِلُوا عَلَى جِهَادِ النَّفْسِ حَتَّى أَزَالُوا مَا بِهَا مِنْ لَبْسِ

قلت: أشار بالبدن الكاسي لجميع أسباب البدن التي يتجمل بها عادة لا لمجرد

العَبْدَ امتثال الأمر لعبوديته والرَّبُّ أعلم بربوبيته يحكم ما يشاء ويفعل ما يشاء ؛ ولأنه ينفعني العمل كيف ما كنت لأني إن كنت سعيداً احتجت إليه لزيادة الثواب ، وإن كنت شقيا ، فأنا محتاج إليه كيلا ألوم نفسي ، وعلى أن الله تعالى لا يعاقبني على الطاعة بكل حال ولا يضرني، وعلى أني أن أدخلت النار وأنا مطيع أحب إلي من أدخل النار وأنا عاص. فكيف ووعد الله حق. وقوله صدق؟، وقد وعد الله تعالى على الطاعة بالثواب، فمن لقي الله تعالى على الإيمان والطاعة لم يدخل النار ألبتة ودخل الجنة ، لا لاستحقاقه بعمله الجنة ولكن لوعد الله الصادق تعالى ولهذا المعنى أخبر الله تعالى عن السعداء إذ قال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ (الزمر: ٧٤) فتيقظ رحمك الله، فإن الأمر كما ترى وتسمع، وقس عليه سائر الأفعال والأحوال واستعن بالله تعالى واستعذ به ، فإن الأمر بيده ومنه والتوفيق ولاحول ولا قوة إلا بالله»«منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين»صـ ١١٧ ط الرسالة.

الكسوة؛ إذ هناك ما هو أشد منها، فذكر السبب الضروري للبدن في وجوده الذي يكون كمالًا له من حيث العوائد التي يرجو بها قطع الروح عن عالم الحقيقة لاشتغالها بها تحصيلًا وتحصينًا واستلذاذًا وغير ذلك، فافهم.

والبطن الشابع: حظ الشيطان لقوله: عليه الصلاة والسلام: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مسالكه بالجوع»[1] الحديث، والمراد: مجانبة الشواغل والصوارف المُثَبِّطَة عن المقصود بطريق الإشارة حسبما دلت عليه الشواهد فافهم.

فهذا حجاب الأبدان وحظ الشيطان، أعني ما يكون به الحجب من أسبابها ومرجع ذلك للتزين بالعوائد والامتلاء من الشبع وهما حجابا الظاهر عن التخلق والتخلي ومانعيه من وجود التجلي، أعني: من التخلق بالمحامد والتخلي عن المذامّ، والتحلي بالأعمال، فالأول بالخاء المعجمة، والثاني بالمهملة، فافهم.

فأما حجاب الباطن عن التعلق بالأسماء والتحقق بالأوصاف فليس إلا أخلاق النفس وحركاتها، أعني نتائج الهمم والحقائق الموضوعة المودعة في القلب من البخل وضده والحرص ومقابله والحسد ومُنافيه إلى غير ذلك، فافهم.

ولا يُرَدُّ ذلك كله إلا بالمجاهدة الصادقة، وهي رد النفس عن الهوى ورديء العوائد في عموم الحالات والأوقات بنوع من المدافعة عند نزوغ النفس لما تريده من ذلك حتى تنطبع بالخير وينطبع فيها بدلًا من الشر وانطباعها به، ولا يحمله على ذلك إلا قوة ورع الدين وقوة اليقين.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه برقم (٢٠٣٨)، ومسلم في الصحيح (باب بيان أنه يستحبّ لمن رئى خاليًا بامرأة) برقم (٥٨٠٧). دون زيادة لفظة «فضيقوا مسالكه بالجوع».

فقد قال الشيخ أبو طالب المكي[1] ﷺ: وأضرُّ ما ابتلى به العبد في دينه وأشدُّه يحجبُه ضعفُ يقينه لما وعد بالغيب أو توعد عليه. قال: وقوة اليقين أصل كل عمل صالح. اهـ.

وقد أشار رسول الله ﷺ لذلك بقوله: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه، والمجاهد من جاهد نفسه عن هواها»[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: «ليس الشديد بِالصُّرَعَةِ إنها الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[3] وفي معناه أنشد:

لَيْسَ الشُّجَاعُ الَّذِي يَحْمِي بَيْتَهُ ... يَوْمَ الزِّحَامِ وَنَارُ الحَرْبِ تَشْتَعِلُ
لَكِنَّ مَنْ غَضَّ طَرْفًا أَوْ ثَنَى قَدَمًا ... عَنْ المَحَارِمِ ذَاكَ الفَارِسُ البَطَلُ

(١) هو الشيخ أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي، الإمام الزاهد العارف، صاحب كتاب «قوت القلوب في معاملة المحبوب» المتوفى سنة ٣٨٦هـ.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح برقم (٩) على اختلاف في ألفاظه «عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ عن النبيّ ﷺ قال المُسلمُ من سلم المُسلمُون من لسانه ويده والمُهاجرُ من هجر ما نهى اللهُ عنهُ» وأخرجه الترمذي في الجامع برقم(٢٦٢٧) بلفظ «عن أبي هريرة: قال قال رسول الله ﷺ المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (١١١٢٣) بلفظ «عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: ألا أخبركم بالمؤمن من أمنه الناس على أموالهم و أنفسهم و المسلم من سلم الناس من لسانه و يده و المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله و المهاجر من هجر الخطايا والذنوب».

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦١١٤)، ومسلم برقم (٦٨٠٩).

وفي الحديث: «جئتكم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر يعني جهاد النفس»[1].

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ في شأن النفس: وهي التي لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها. والله أعلم.

ثم أشار لاختلاف الفِرَق وطرقها في المجاهدة فقال رحمه الله تعالى:

(٨٠) وَالقَومُ فِي ذاكَ عَلَى فِرْقَتَيْنِ وَحُكْمُهُمْ فِيهِ عَلَى ضَرْبَيْنِ[2]
(٨١) قَالُوا بِأَنَّ النَّفْسَ كَالمِرْآةِ يَنْطَبِعُ المَاضِي بِهَا وَالآتِ
(٨٢) وَإِنَّمَا يَعُوقُهَا أَشْيَاءُ تَرْكُ المُحَاذَاةِ أَوْ الصَّدَاءُ

قلت: يعني أن للقوم في البحث عن التوصل للحقيقة طريقتان، وهم بحسب ذلك على فرقتين:

الفرقة الأولى: وهي التي بيَّنَ هنا أهل طريقة الجلاء، وهم طائفة يقولون: إن النفس في أصل نشأتها كالمرآة صقيلة نظيفة، يتجلى فيها كل شيء يقابلها من ماضي الوجود وآتيه، لكنها معوقة عن ذلك بأحد أمرين هما: صدؤها بصور الأكوان شهوةً واعتيادًا و استنادًا، وانصرافها بإن المقصود بالتوجه إلى غيره من العلوم والعمليات ونحوها مما يصرفها عن المقصود بانطباعه فيها، فلو تجلت في الأول لأبصرت لرفع حجابها، ولو توجهت في الثاني لرأت لنفي احتجابها، ومادامت متعلقة بأحدهما فهي مصروفة عن المقصود، لا

(١) ذكره الغزالي في الإحياء كتاب «شرح عجائب القلب»، وأخرجه الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء عن البيهقي في كتاب الزهد.

(٢) بعد هذا البيت بيت زائد من شرح الشيخ ابن عجيبة. لم يتعرض له الشارح، وليس في أصل المتن، وهو قوله:

فَفِرْقَةٌ طَرِيقُهُمْ مَبْنِيَّة عَلَى العَقَائِدِ وَحُسْنِ النيَّة

يمكنها الوصول إليه أبدًا.

قال في «الحكم»[1]: كيف يشرق قلبٌ صور الأكوان منطبعة في مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟

وقد قال بعض الحكماء: لا تطمع أن تصحو وبك عيب، ولا تطمع أن تنجو وعليك ذنب. وأنشدوا في ذلك:

وَمَا رُمْتُ الدُّخُولَ عَلَيهِ حَتَّى ... حَلَلْتُ مَحِلَّةَ العَبْدِ الذَّلِيلِ
وَأَغْضَيتُ الجُفُونَ عَلَى قَذَاهَا ... وَصُنْتُ النَّفْسَ عَنْ قَالٍ وَقِيلِ

وتمثيله بالعين أيضًا صحيح؛ فإن النفس فيما تجلى لها من الحقائق والعلوم يوم الميثاق قد يذهلها ما هي به من الأوهام والأسباب فيغور منها كما يغور الماء من العين فيحتاج إلى الحفر عنه بفأس المجاهدة ومسحاة الرياضة حتى يعود كما كان أو أحسن، وبالله التوفيق.

ثم نبه على وجه المعالجة فقال رحمه الله تعالى:

(٨٣) قَالُوا وَإِنَّ العَيْنَ قَدْ تَغُورُ ... وَإِنَّمَا يُخْرِجُهَا الحَفِيرُ
(٨٤) وَأَجْمَعُوا أَنَّ عِلَاجَ الأَصْلِ ... أَقْرَبُ لِلْبُرْءِ مَعاً وَالنَّيْلِ
(٨٥) فَمَا إِلَيْهِ أَبَدًا نُشِيرُ ... هُوْ عِلَاجُ النَّفْسِ وَالتَّطْهِيرُ
(٨٦) وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الإِشْرَاقِ ... كَانَتْ وَتَبْقَى مَا الوُجُودُ بَاقِ

---

(١) «الحكم العطائية»، الحكمة رقم (١٢).

قلت: (وَأَجْمَعُوا) يعني القوم، اكتفى بما تقدم من ذكرهم، (والعِلَاجُ) محاولة الداء بدوائه، وذلك لا يصح إلا بعد معرفة العلة، والعلة إن لم يعرف سببها وأصلها لم يفد عدمها في نفي أصلها، وإن أفاد في تشخيص صورتها، فقد يكون هناك ما هو كامن يقدح في وجه المداواة؛ فإما أن يبطئ لذلك برؤها أو لا يتفق أو يكون على غير قياس وهو غور، فاعرف أصل علتك تظفر ببرئها في أقرب مدة بأدنى معالجة مع الأمن من هيجانها بعد، وأصل كل داء جسماني إنما هو فساد المزاج إلى أن يصير فعله وانفعاله غير المجرى الطبيعي.

فأصل كل داء قلبي إنما هو فساد القصد الذي هو عنوانه الرضا عن النفس حتى يصير فعلها وانفعالها على غير المجرى الشرعي والتحقيقي، بل على وفق الهوى والأوهام الباطلة التي منشؤها ضعف اليقين ورِقَّةِ الديانة، وتفصيل ذلك يطول، وسيأتي منه إن شاء الله في باب التربية.

و(النَّيْلِ): التحصيل.

وقوله: (عِلَاجُ النَّفْسِ) يعني عما تريده من النقائص والغفلات حتى لا تقع فيه، وتطهيرها مما وقعت فيه حتى يزول، فأولًا بالتقوى والاستقامة حتى يثبتان فيها، وثانيًا بالتوجه والإنابة حتى تنصبغ بلوازمها من التقوى والاستقامة ونحوهما.

وقوله: (وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الإِشْرَاقِ كَانَتْ وَتَبْقَى) يعني أنها لا ترتفع أبدًا لكنها تارة تجري بالاصطلاح من الخلوات والتربيات ونحوها، وتارة بحفظ الأصول فقط، وتارة بحفظ الحرمة ليس إلا وتارة بعلو الهمة وقوة الحزم والعزم، وتارة بمجرد التلقي والإلقاء

وهذه أمور لا تزال أبد الآبدين، غير أن الاصطلاح(١) قد انقرض في هذه الأزمنة وارتفع إنتاجه حسبما دلت عليه المعاملات وشهد به الاستقراء.

قال بعض مشايخنا ﷺ(٢): ارتفعت التربية بالاصطلاح في سنة أربع وعشرين وثمانمائة ولم يبق غير الإفادة بالهمة والحال، فعليكم باتباع السنة من غير زيادة ولا نقصان؛ يعني الجادة مع التزام الصدق، وبالله التوفيق، وسماها طريقة الإشراق لأنها عمل في خفاء من غير زائد على ذلك، فافهم.

ثم ذكر الطريقة الثانية فقال رحمه الله:

(٨٧) وَفِرْقَـــةٌ قَالَـــتْ بِـــأَنَّ العِلْـــما ... مِـــنْ خَـــارِجٍ بِالاكْتِسَـــابِ أَسْـــمَى

(٨٨) وَشَرَطُـــوا العُلُـــومَ فِي اصْطِلَاحِـــهِ ... إِذْ لا غِنَـــىً لِلْبَـــابِ عَـــنْ مِفْتَاحِـــهِ

(٨٩) فَلَيْـــسَ لِلطَامِـــعِ فِيـــهِ مَطْمَـــعْ ... مَـــالَمْ تَكُـــنْ فِيـــهِ عُلُـــومٌ أَرْبَـــعْ(٣)

(٩٠) وَهْـــيَ عُلُـــومُ الـــذَّاتِ وَالصِفَـــاتِ ... وَالفِقْـــهِ وَالحَدِيـــثِ وَالحَـــالَاتِ

(٩١) وَهَـــذِهِ طَرِيقَـــةُ(٤) البُرْهَـــانِ ... وَهِـــيَ لِـــكُلِّ حَـــازِمٍ يَقْظَـــانِ

قلت: يعني أن الفرقة الثانية قالت: إن علاج النفس بطريق العلم والعمل وذلك أن ما فيها من الأنوار يتعاضد بما يرد عليه من خارج، فيبقي ما عرض لها من الظلمة أصلًا وفرعًا بقوته، وهذه الطريقة أتم في تحصيل الكمال لأن الأولى غايتها الوصول لما

(١) أي طريقة التربية بالاصطلاح وهي طريقة الصحبة والاقتداء بالشيخ وتأديبه باصطلاحه.

(٢) هو الشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي ﷺ.

(٣) ورد هذا الشطر في أصل المتن «أَوْ يَجْتَمِعْ فِيهِ فيه علوم أربع».

(٤) وردت في شرح الشيخ زروق «حَقِيقَةُ».

في النفس من الكمال دون زائد، بخلاف هذه فإنها تحصل المكتسب مع ما اتصل إليه من المدخر، وهذا معنى كونه أسمى أي أرفع.

وقالت هذه الطائفة: إن العلم مفتاح الفتح لقوله: عليه السلام: «العلم إمام العمل والعمل تابعه»[1] وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يطلب الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه، ومن عمل بما علم؛ ورثه الله علم ما لم يعلم»[2] والعلوم التي يحتاج إليها في ذلك أربعة:

الأول: علم الذات والصفات: يعني التوحيد، وطريق أخذه أن يحقق ترجمة عقيدة مُهذَّبة كعقيدة الإمام أبي حامد الغزالي ويأخذ براهينها بأي وجه أمكنه دون فرض الشبه والإشكالات مع تشوفه لمراد ذلك من الكتاب والسنة، وشواهد الوجود ودلائل الصنع وغيره، ويجعل ذلك نصب عينيه حتى تنصبغ حقيقته به انصباغًا يقتضي له ثبوت اليقين بوجه يجد لذته، فإذا حصل له ذلك استمرت النفس في الجولان في معانيه إلى حد ما قسم لها من غير توقف، وسار بذلك سيرًا مبادرًا[3] يعرفه عند توجهه فلا حاجة إلى وصفه.

(١) جزء من حديث طويل اورده أبو نعيم في الحلية من حديث معاذ بن جبل ﷺ (١/ ٢٣٨)، والغزالي في الإحياء (١/ ١١).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٧٥٨)، والبيهقي في شعب الإيمان بلفظ «عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، من يتحرى الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه، ثلاثٌ من كن فيه لم يسكن الدرجات العلا، ولا أقول لكم الجنة: من تكهن، أو استقسم، أو رده من سفرٍ تطيرٌ» وزيادة الحديث «ومن عمل بما علم؛ ورثه الله علم ما لم يعلم» حديث آخر أورده أبو نعيم في الحلية من حديث أنس (١٠/ ١٥).

(٣) في (ب): مباركًا.

الثاني: علم الفقه: وطريقه فيه أن يأخذه مُسلمًا عن أئمته المعتبرين في وقته، طالبًا صِوره من غير زائد؛ حتى يتصور جملة الأبواب وعقودها من غير زائد لأن الزيادة في المبادئ مشتتة للذهن، حتى إذا عرف ذلك تشوف للوجوه والنظائر بوجه خفيف، ثم للتعاليل والحكم. ومن هنا لم يعرف مواد الوجود ووجوهه وتصرف الحق سبحانه فيه تكليفًا وتعريفًا لأن أحدهما مرتب على الآخر فيطْلُعُ في أفق القلب طالع التعظيم والإجلال لمن أهل له بأن يجعل القلب في ذلك لا فيما لا يعني ولا يقتصر على متعلقات المسائل فقط فإنها مع ذلك مشتتة، لاسيما لمن لا همة له، فافهم.

الثالث: علم الحديث: يعني فقهه لا صورة الأداء وكيفيته، ويستدعي ذلك العلم بالتفسير وهما اللذان تظهر بهما حقائق الأنوار من العِلمين الأولين لكن لمن اتسع نظره إلى حد يفقه به موارد الحكم والحكمة، ولا يخرج عن مقاصد الأئمة بل يرجع إليهم لا لمن يتغير بالمنقول ولا يتصرف بالمعقول أو يستخف بالمقول ولكن كما قيل: قف حيث وقفوا ثم فَسِّرْ.

ومن أخذ علم حاله من نصوص الأئمة كان نوره وفتحه منهم، ومن أخذه من نصوص الكتاب والسنة فذلك إن كان محقا وإلا فالحديث لغير العالم مذلة. ومن فاته الاقتداء فاته الاهتداء، ولذلك لا تجد إمامًا يهمل أقوال السلف بل يتبع آثارهم. ومن خالط الكتاب والسنة وفقهها عرف ما قلناه. وهذا الحرف هو الذي ينبه عليه سيدي أبو عبد الله بن عباد(١) في رسائله عند ذكر البدعة والتقليد فانظره(٢)، وبالله التوفيق.

---

(١) هو الإمام العارف أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن عبّاد النفزي الحميري، صاحب كتاب «غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية» و«الرسائل الكبرى والصغرى» وغيرها توفي رحمه الله بفاس سنة ٧٩٢هـ.

(٢) قال ابن عباد رحمه الله في «الرسائل الصغرى» «واعلم أن هذه الصفة الذميمة –يعني صفة التقليد– قد استطار

الرابع: علم الأحوال والمنازعات، وما يجري فيها من آداب ومعاملات، وذلك هو الذي يختص به أهل هذا الفن، وللناس طريقان: طريق رؤية الحق من أول قدم، والعمل على ذلك بالانحياش إليه وهي طريق الشاذلية ومن نحا نحوهم، وطريق رؤية النفس واطلاع الحق عليها والعمل على ذلك وهي طريقة الغزالي ومن جرى مجراه، وكل منهما مستنده الحديث: «أن تعبد الله كأنك تراه»[1] وهذه للأولين وإلا فإنه يراك وهذه للمتأخرين فافهم.

وقوله: (وَهَذِهِ طَرِيقَةُ البُرْهَانِ)[2] يعني أنه طريق ليس لأحد فيه مطعن، ولا للضلال فيه مدخل ولكن لا يقدر عليه إلا فحول الرجال.

أما طريق العامي فبأن يصحح اعتقاده على عالم يثق بديانته، ويسأل عن علم حاله

في هذا الزمان شررها وعم ضررها؛ فترى المتفقه الغبي إذا قرع سمعه شئ من علوم التحقيق، أو علم أعلام الطريق؛ يلوي خده ويقطب وجهه ويقول لفرط غباوته: لو كان هذا حقا لنص عليه فلان ولتداولته القرون والأزمان . وترى المتصوف الجاهل؛ إذا ذكر عنده مسئلة من مسائل الأحكام ومعالم الحلال والحرام؛ يتنكر لجليسه ويغتر بتزويره وتلبيسه، ويقول لشدة جهالته : هذه ظواهر ورسوم ومخاطبات للعموم وقد كان سيدي فلان لا يقرأ ولا يكتب ولا ينتسب إلى مذهب . وترى الفاجر العَيّار من ذوي الكبائر والإصرار يقتدي بهفوات القدماء وزلات العلماء ويعتد ذلك دينا متينا وحقا مبينا . وقد ينتهي الجهل بأقوام إلى أن لا يروا لأحد فضلا على من قلدوه من أئمتهم، ويستحقرون بذل مهجهم في محامتهم ونصرتهم . وأمثال هؤلاء كثير ولا حاجة إلى تكثير الأمثلة . والمقصود أن تعلم أن مجالسة أمثال هؤلاء تبلد القلوب وتبعد عن الغرض المطلوب ولذلك وقع تحذيرنا إياكم في ما تقدم».

(١) سبق تخريجه.

(٢) إشارة إلى البيت القائل:

وهــــذه طـريـقــة الـبـرهــان ... وهــي لـكــل حـــازم يـقـظـان

بوجه يشفيه وتطمئن نفسه له، ويلتزم التقوى والاستقامة بغاية جهده بعد التبصر فيما يتعلق بحاله؛ فلا يأخذ بما فيه احتمال ولا تأويل، ولا يدخل من قول إمام معتبر غير إمامه. ثم يستند في أحواله لشيخ صالح ولأخ ناصح قد جرب الأمور فيأخذ معه في كل ما يبقى وما يذر، وهذا إن لم يجد شيخًا وإلا فالشيخ أبصر بحاله، إما سلكه على الطريق الأول أو على هذا، أو وقف به في موقف الأدب أو ما ظهر له من ذلك. وسيأتي ذكر الشيخ إن شاء الله تعالى.

ثم ذكر وصف الصوفي وما يدور عليه فقال رحمه الله:

(٩٢) وَنَسَبُوا الصُّوفِيَّ للكَمَالِ ... وَضَرَبُوا مَعْنَاهُ فِي المِثَالِ
(٩٣) فَهُوَ كَالهَوَاءِ فِي العُلُوِّ ... ثُمَّ كَمِثْلِ الأَرْضِ فِي الدُّنُوِّ
(٩٤) ثُمَّ كَمِثْلِ النَّارِ فِي الضِيَاءِ ... ثُمَّ كَمِثْلِ المَاءِ فِي الإِرْوَاءِ
(٩٥) فَهُوَ إِذًا للكَائِنَاتِ حَاصِرْ ... إِذْ صَارَ فِي مَعْنَاهُ كَالعَنَاصِرْ[1]

قلت: الهَوَاء: حار رطب فهو معتدل محيط بالأبدان، به يقع كمالها ونقصها، والصوفي معتدل في حركاته لا فارطًا فروطًا ولا ساقطًا سقوطًا بل متوسطًا في كل شيء، وخير الأمور أوسطها، وبحسب هذا جميع الوجود يأنس به ويرجع إليه ويقع له منه الفعل والأفعال بإذن الله سبحانه، مع ارتفاعه عن كل أبناء جنسه في عين مماسته لهم كما ارتفع الهواء على الماء والتراب عند مخالطته لهما.

والأَرْضُ: بارد يابس فببرودتها تقع لها الملابسة، وبيبوستها تصح لها المماسة، وهو كذلك لعدم استظهاره بالحركات يلابسه الخلق وبوقوعه مع الحق يصح له الصدق،

(١) ورد هذا الشطر في شرح ابن عجيبة على المباحث «إِذْ هُوَ فِي مَعْنَاهُ كَالعَنَاصِرِ».

فيكون له قلب مثل الأرض يطرح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح، وكل ما زيد في زبلها زادت في خيرها. وقد قال عيسى ﷺ لأصحابه: أين تنبت الحبة؟ فقالوا: في الأرض. قال: فكذلك الحكمة لا تنبت إلا في قلبٍ مثل الأرض. وقال سهل بن عبد الله ﷺ: طريقنا هذا لا يصح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل.

ثم النار: حار يابس مضيء محرق، وهو كذلك يحرق ما والاه من أوصاف نفسه ،ويرى ما وراءه من المعارف وحقائق الوجود.

ثم الماء: بارد رطب، وهو كذلك، فمن برودته لا ينتصر لنفسه، ومن رطوبته لا يشق على غيره، مع إرواء من احتاج إليه بما يريده.

وهذه الأربع هي العناصر التي اجتمع منها وجود العالم، وهي أركانه، فهي كلية العالم بمعانيه ومبانيه، فافهم.

وقد قال بعضهم ﷺ: «الصوفي من لا يعرف في الدارين أحدًا غير الله، ولا يشهد مع الله سوى الله، قد سخر له كل شيء ولم يسخر هو لشيء، وسلطه على كل شيء ولم يسلط عليه شيء، فأخذ النصيب من كل شيء ولم يأخذ النصيب منه شيء، يصفو به كَدَر كل شيء ولم يُكَدِّر صفوَه شيءٌ، قد شغله واحد عن كل شيء، وكفاه واحد من كل شيء» أهـ. وهو عين ما يحوم عليه كلام المؤلف وبالله التوفيق.

ثم قال رحمه الله ختمًا للفصل:

(٩٦) وَفَضْلُـه أَشْـهَرُ مِـنْ أَنْ يُجْـلَى[١] وَقَـدْ ذَكَرْنَـا مِنْـهُ نَـزْرًا جُمَّـلَا

(١) وردت في أصل المتن «أكثر من أن يجهلا».

(٩٧) وَفِي بَيَانِ أَصْلِهِ دَلِيلُ يُعْلَمُ مِنْهُ الشَّأْنُ والتَّحْصِيلُ[١]

قلت: يعني أن فضل هذا الفن أشهر من أن يحتاج إلى تعريف، وقد اجتمعت القلوب على حبه لأنه نظيف، والنظيف يتدنس بأدنى شيء، فكل ما نسب له مما ليس منه عُدَّ عليه عند من لا معرفة له به فأنكره، وربما قصد سد الذريعة في شأنه، فإنه لكثرة المدعين؛ جُهِل حال الصادقين، وعمت البلوى مع حب الناس لهذا الفن، وحبك الشيء يعمي ويصم، فوقعوا في جهالة البدع من حيث لا يشعرون، ووقعت الغيرة في قلوب أهل الظاهر فأنكروا عليهم جملة.

وليس الشأن ذلك بل غلاة الصوفية كالمطعون عليهم من الأصوليين والمتفقهين ينكر قولهم وفعلهم، ولا ينكر المذهب الحق لأجلهم لأن فساد الفاسد إليه يعود، ولا يقدح في صلاح الصالحين شيء إلا أن يقول قائلهم: نحن ننكر الجميع حتى يتبين لنا الحق لا نخالفه. لأن الإبقاء في الإنكار يؤدي إلى وجود الاغترار، وإلى هذا ذهب ابن الجوزي وغيره، لكنه أفرط في ذلك بالتعيين والتهجين وتعيين الأئمة والمبالغة في إنكار ما ليس بمنكر؛ إما لقوة عصبية في نفسه وليس فيها خير، أو لقصد حسم الذريعة كما ذكره وحلف عليه.

وقد انقلب به الحال إلى الإهمال عند كل أحد لما أفرط في إنكاره وبالغ في تهجينه، نعم.. وقد يكون الإنكار من عدم الفهم وقلة الإدراك، فيرحم الله القائل:

وكَمْ مِنْ عائبٍ قولًا صحيحًا وآفَتُهُ مِنَ الفهمِ السَّقِيمِ

---

(١) وردت في شرح الشيخ زروق «التفصيل».

وإِنَّـــمَا تأخــذُ الأَذْهَــانُ مِنْــهُ عـــلى قــدْرِ القرائـــحِ والفُهُـــومِ

وما أشار إليه من ذكر بيان أصله، وما فيه من العلم بشأنه وفضله، هو ما تقدم في الفصل الأول، وهو واضح للتأمل، وبالله عز وجل التوفيق.

❁❁❁

الفصل الثالث

في أحكامه وهي تسعة

قلت: يعني الأحكام المختصة بالقوم التي لا مدخل لغيرهم فيها وهي المتعلقة بالآداب والأحوال فإنهم يأخذون في كل شيء بأحسنه.

قال ابن العريف [1] رحمه الله: السر الأعظم في طريق الإرادة ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ (الزمر: ١٨)، وأحسن المذاهب في الاعتقاد مذاهب السلف من اعتقاد التنزيه ونفي التشبيه وتفويض المتشابه، والوقوف مع ما ورد كما ورد ما لم يحتج إلى تقييد فيقيد بما ينفي شبهته من غير زائد. وما تكلموا فيه من وجوه التأويل فمن حيث إنه علم لا أنهم جازمون به بل هو في الاحتمال عندهم كغيره سوى المحال فإنهم يطرحونه للقطع ببطلان إرادته.

وقد قيل: إن اختلاف الأقوال مع طرح المحال هو عين الإصابة. ولهذا توسعوا في بعض العبارات حتى أنكرت عليهم، وكان كلامهم في ذلك أولًا مع من لا يتوهم به وهم أبناء جنسهم فربما ساغ لهم ذلك بحسب الاصطلاح وقصد التقريب على اختلاف فيه بين علماء الكلام؛ إذ كان له شبهه في القرآن والسنة ولكن لدخول الغير عليه وجب التحفظ منه في هذه الأزمنة جملة؛ شفقة على الضعفاء، وحماية عن ظنون السوء بهم، ولما في بعضه من سقوط الحرمة وجب تجنبه أبدًا.

وإن فهم على الصواب مع حسن الظن بقائله، لأن أصل المذهب حسن الظن حتى

---

(١) هو الشيخ الشاعر الصالح أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسي المري، أبو العباس ابن العريف صاحب كتاب «محاسن المجالس» المتوفى سنة ٥٢٦هـ انظر ترجمته في «وفيات الأعيان» لابن خلكان(١: ٥٤).

يأتي الناقض، وحرمة الشريعة واجبة الحفظ في الأقوال كوجوبها في المعاني والأفعال، فافهم.

وأحسن المذاهب في الأحكام مذاهب الفقهاء؛ لرجوعهم للقواعد وعملهم على الأصول وجمعهم بين الأدلة، ولأنا إنما تعبدنا بالمعاني لا بالألفاظ، والشريعة منقولة والنقول مختلفة فلابد من اعتبار المقاصد وهذا شأن الفقهاء؛ فهم يتبعون مذاهبهم مع التقيد بمذهب واحد لأنه أجمع للحقيقة وأقرب للتبصر وداعٍ للتحقيق وأتم في الاعتبار وأسهل للتناول، وعلى هذا درج سلفهم؛ فكان الجنيد تابعًا أبا ثور، والشبلي مالكيًا، والمحاسبي شافعيًّا، والجريري حنفيًّا، وهم أئمة الطريقة لكنهم يأخذون من ذلك بأحسنه، وهو ما يماس الحديث اعتبارًا بنور النبوة ما لم يكن الاحتياط في خلافه، أو القاعدة تقتضي مقابله عند إمامهم بحيث يكون هو المشهور ونحوه ثم إن ترخصوا بمذهب غيره فلضرورة تنالهم أو تشددوا فلورع يقصدونه، والله أعلم.

وأحسن المذاهب في الفضائل مذهب المحدثين؛ إذ لا يأخذون إلا بما صحَّ أو قاربَ الصحيح أو قارب ذلك من الضعيف؛ فلا يأخذون بموضوع مختلف كصلاة الليالي والأيام الفاضلة وصلاة الرغائب ونحوها بل يرون في السنة كفاية عن غيرها.

وقد أشار إلى هذا القشيري في آخر رسالته، ونبه عليه النووي،وذِكْر «الإحياء »و«القوت» وما فيهما من ذلك وأنه لا يجوز اتباعهما فيه ونحوه للطرطوشي والمالكية وابن العربي أشد منه في ذلك وهو مقتضى المذاهب كما ذكر بعض أئمة المتأخرين غير أن مالكًا لا يرى الرواتب محدودة ويراه الشافعي وفيه سعة لأنه مندوب لا ينكر العمل به، وكل ما لا ينكره مذهب يجوز العمل به من غيره، فافهم. وبالله التوفيق.

واختصوا في الآداب والأحوال والحركات بأصل هو اجتماع قلوبهم على مولاهم؛ بحيث ما وجدوا سبب ذلك قالوا به وإن كان مع شبهة خفيفة أو مكروه أو فيه خلاف عالم ما لم يكن محرمًا صريحًا أو خسيسًا متفق عليه أو شبهة يجب اجتنابها فإنه ظلمة، وما كان ظلمة لا يصح أن يكون نورًا. والقوم لا يؤثرون شيئا لا نورانية فيه، فافهم.

ومن هذا الأصل ضل فيهم من أنكر عليهم من غيرهم، وضل بهم من لا يعرف مقصدهم من محبيهم، فتوسع الأول في الإنكار بمطالبتهم فيه بما طالبوا به أنفسهم في الأحكام والفضائل من الاحتياط، وتوسع الثاني في الأحكام والفضائل باتباع الرخص في التأويلات وهو أصل كل ضلال وهلكة، فالحذرَ الحذرَ من الجانبين إلا بحق واضح ووجه لا يمكن الشك فيه علمًا وعملًا، ثم لا يصح ذلك إلا بمعرفة أحكامهم فيه وهي التي دار عليها هذا الفصل، أعني التسعة أحكام التي ذكرها، أولها ما قال الشيخ رحمه الله بأن قال:

الأول: في حكم الشيخ والمشيخة ومعنى الشيخ

قلت: ذكر ثلاثة ألفاظ:

أولها: حكم الشيخ هل هو شرط صحة أو شرط كمال أو لا يحتاج إليه أصلًا.

الثاني: حكم المشيخة ومعنى المشايخ، أي إثبات رتبتهم وتحقيق حكمها في الجملة وذلك راجع للذي قبله.

وقد قال صاحب الإبانة: إن الصوفية يجمعون (الشيخ) على (مَشَايخ) وَ(مَشْيَخَة)، والمحدثين والفقهاء يجمعونه على (شيوخ)، والقراء والنحاة يجمعونه على (أَشْيَاخ). قلت:

وهذا في الغالب وإلا فقد يجمعونه على غير ذلك والله أعلم.وقد يراد بحكم المشيخة ما يراد له الشيخ، وهو الظاهر والله أعلم.

الثالث: معنى الشيخ؛ يعني وصفه المعتبر فيه حتى يتعين اتباعه، ويصح الاقتداء به، والصفة التي يكون بها شيخًا. وإن فقدت فلا يجوز الاقتداء به، والله أعلم.

ثم شرع في مقدمة الأول -أعني حكم الشيخ- بأن قال رحمه الله:

(٩٨) وَإِنَّمَا القَومُ مُسَافِرُونَا لِحَضْرَةِ الحَقِّ وَظَاعِنُونَا

(٩٩) فَافْتَقَرُوا فِيهِ إِلَى دَلِيلِ ذِي بَصَرٍ بِالسَّيْرِ وَالمَقِيلِ

(١٠٠) قَدْ سَلَكَ الطَّرِيقَ ثُمَّ عَادَا لِيُخْبِرَ القَوْمَ بِمَا اسْتَفَادَا

قلت: أما كونهم مسافرين فعن عوالم الأوهام إلى عوالم الحقائق، وذلك في أرض النفوس إذ لا سير ولا سلوك إلا فيها ولا جذب ولا أخذ إلا عنها، ولذلك قال بعض من لقيناه من الفقراء: لا يصح أن يقال في الأنبياء «سالكين» ولا «مجذوبين» لأن الجذب لا يكون إلا عن نفس، والسلوك لا يكون إلا في قطع عقباتها وهم -عليهم السلام- مطهرون من آثار النفوس من أول قدم لهم، مقيمون في بساط الحقيقة قديمًا وحديثًا، وهو كلام عجيب.

وقوله: (لِحَضْرَةِ الحَقِّ) يعني دائرة ولايته؛ حيث يعني في نظرهم من لم يكن ويبقى في شهودهم من لم يزل. والظاعنون: المرتحلون، والمقصود أنهم لا يقرهم قرار دون الوصول إلى العلم به تعالى على سبيل التحقيق القائم مقام العيان.

قال في «الحكم»: فالعاقل من كان بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى؛ يعني قد

أشرق نوره وظهرت تباشيره فصرف عن هذه الدار مغضبًا، وأعرض عنها موليًّا، فلم يتخذها وطنًا، ولا جعلها سكنًا، بل أنهض الهمة عنها إلى الله تعالى، وصار به مستعينا بها[1] في القدوم عليه فمازالت مطية عزمه تسعى لا يقر قرارها دائمًا تَسْيارها؛ إلى أن أناخت بحضرة القدس وبساط الأنس محل الكذا وكذا..، ثم ذكر أمورًا ليس هذا محلها، وهذا منتهى غرضنا، من كلامه هنا وبالله التوفيق.

وقوله: (فَافْتَقَرُوا فِيهِ إِلَىٰ دَلِيلٍ) يعني في سيرهم وظعنهم إلى دليل يعرفهم كيفية السلوك والسير وموارد الطريق ومصادرها لجهلهم بها.

قلت: الدليل في ذلك ثلاثة أشياء:

أحدها: أن يكون عارفًا بالطريق وموارده ومصادره ومكامنه وغير ذلك من الوجوه التي يتوقف عليها وجود السير فيه بانقباض أو انبساط أو تسمر أو احتياط.

الثاني: أن يكون عارفًا بوجوه السير، وأنواع السيارة بحيث يسير من يفتقر إلى الرفق، ومن يحتمل الحزم، ومن يقبل العمل على العزم، ومن تتراجع أحواله، ومن يقدر على المشي راكبًا، ومن لا يقدر عليه إلا راجلًا، ومن يصلح للركوب مرة وللمشي أخرى، ومن يكون الركوب به أولى من غيره وعكسه، وكذلك من يصابر العطش والجوع، ويلاقي مقاساة الطريق من غيره وليعامل كلًّا بما يليق به وإلا أهلك قومًا، وإن وصل آخرين.

الثالث: أن يكون في معرفة ذلك معتمدًا على العلم والتجربة لأن سلوك الطريق دون المعرفة بأعلامه الأرضية والسماوية لا يوثق به لحصول الالتباس يومًا ما فيرجع

---

(١) في (أ): وصار فيها مستغنيا.

للدلائل. والعمل على الدلائل دون سلوك الطريق غير كاف في تعريفه لعدم الإحاطة به عينًا، وليس الخبر كالعيان، وما هو إلا كعلم الطب؛ لا تكفي فيه التجربة عن العلم ولا العكس، وهذا الشيء يكاد أن يكون معدومًا.

ولكن قال ابن عطاء الله في «لطائف المنن» بعد ذكر المربي وصفته: «فإن قلت: فأين مَنْ هذا وصفه؟ لقد دللتني على أغرب من عنقاء مغرب. فاعلم أنه لا يعوزك وجود الدَّالين ولكن وجود الصدق في طلبهم؛ جِدَّ صدقاً تجد مرشدًا، وتجد ذلك في آيتين من كتاب الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (النمل: ٦٢)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ (محمد: ٢١)، ثم قال: فلو اضطررت إلى من يوصلك إلى الله تعالى اضطرار الظمآن إلى الماء، والخائف للأمن لوجدت ذلك أقرب إليك من وجود طلبك، ولو اضطررت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته لوجدت الحق منك قريبًا ولك مجيبا، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك وتوجه الحق سبحانه بتيسير ذلك إليك.

وقال سيدي أبو عبد الله ابن عباد ﷺ: وفي كلامه هذا تنبيه على أنَّ الشيخ من منح الله تعالى، وهداياه للعبد المريد إذا صدق في إرادته وبذل في مناصحة مولاه جهد استطاعته لا على ما قد يتوهمه من لا علم عنده، يعني من أنه لا يشتغل بشيء حتى يجد الشيخ فلا يجده أبدًا، وما هو إلا كالمريض يقول: لا أتداوى حتى أجد الشفاء وهو لا يجد الشفاء حتى يتداوى. فهو لا يتداوى ولا يجد الشفاء. ومن قُسِمَ له شيءٌ وصله على يد أقل الخلق، فإنَّ صِدْقَ المريد أنفعُ له من همة شيخه. وبالله التوفيق.

وقد توسع المؤلف في الشرط الأخير حيث قال:

(١٠١) وَجَـابَ مِنْهَـا الوَهْـدَ وَالآكَامَـا وَرَاضَ مِنْهَـا الرَّمْـلَ وَالرَّغَامَـا
(١٠٢) وَجَـالَ فِيهَـا رَائِحًـا وَغَادِيـا وَسَـارَ كُلَّ فَدْفَـدٍ وَوَادِيـا
(١٠٣) وَعَلِـمَ المَخُـوفَ وَالمَأْمُونَـا وَالجَـدْبَ وَالأَنْهَـارَ وَالعُيونَـا
(١٠٤) قَـدْ قَطَـعَ البَيْـدَاءَ وَالمَفَـاوِزْ وَارْتَـادَ كُلَّ حَابِـسٍ وَحَاجِـزْ
(١٠٥) وَحَـلَّ فِي مَنَـازِلِ المَنَاهِـلْ وَكُلُّ شِرْبٍ فَهْـوَ فِيـهِ نَاهِـلْ

قلت: (وَجَابَ): أي دخل وطاف. (مِنْهَا) أي من طريق السلوك. و(الوَهْدَ): وهو المطمئن الذي يستتر فيه الحال ولا يظهر إلا لمن هو معه. و(الآكَامَ): الذرا والربا المرتفعة التي يظهر فيها كل شيء من حلها لكل من نظر إليها. و(رَاضَ) أي قاسَ واعتبر منها الرمل، وهو الحابس على إسراع السير مع لينه. و(الرَّغَامَ): التراب، وهو كثرته، وقلته والقليل منه معين ، والكثير منه حابس كالرمل بزيادة لين.

وقوله: (جَالَ فِيهَا) يعني من هذه الأمور رائحًا وغاديًا بحيث عرفها أولا وآخرًا، فلم يخف عليه سيرها في توجه ولا رجوع لأن لكل علمًا يخصه أو ذوقًا يقتضيه.

وقوله: (سَارَ كُلَّ فَدْفَدٍ وَوَادِيا) يعني أن كل محل من الطريق عرفه بما فيه من الصفات الملازمة له وهي المتقدمة أو العارضة فيه، وهي المذكورة في قوله: (وَعَلِمَ المَخُوفَ.. الخ) فالمخوف لا يصعد فيه الآكام ولا يتراخى فيه في السير إلا بفقير، والمأمون لا يتراخى في السير فيه ولا عليه في أي محل ظهر. فالأول كالأمور المختصة، والثاني كالفرائض المعلومة والمحرمات المشهورة (وَالجَدْبَ) الذي لا نبات فيه من علم أو عمل أو حال.

(وَالأَنْهَارَ) إشارة إلى العلوم الجارية على الأصول الثابتة التي ينتفع بها الخاص والعام ولا يغيرها سوى الأمر العظيم الخارج عن القياس. و(العُيونَ) ينابيع الحكمة

والمعرفة التي إن خَصَت نجحت وإن ساحت نفعت مع قلتها وانحصارها، وفائدة ذلك أن يتزود من المخصِب للمجدِب، ويحزم في المجدب حتى يصل المخصب، ويروي من أنهاره وعيونه ما يكفيه لنفسه ولمن معه من حيوان محترم[1] دون زيادة في الثقل، ولا تفريط في الحمل؛ ليكون ذلك أعون له على[2] السير وأقرب للسلامة.

وقوله: (**قَدْ قَطَعَ.. الخ**) يعني أنه عرف ذلك مباشرة لا إشارة، وتعليمًا وقياسًا ومشاورةً. و(**البَيْدَاءَ**): الصحراء. و(**المَفَاوِز**)[3]: المواضع الرديئة البعيدة.

وقوله: (**وَارْتَادَ**) يعني تَعَرَّف (**حَابِس**) كالشيطان؛ فإنه حابس بإشغاله عن التوجه أو عن كماله تارة من طريق الدواعي، وتارة من طريق الوسوسة، و(**حَاجِز**) كالنفس؛ فإنها حجاب الوجود لذلك قال بعضهم: سجنك نفسك، إذا خرجت منها وقعت في راحة الأبد.

وقال بعض الأعاجم لبعض المشايخ: النفس سُدَّة الكون، وهي ترجمة جامعة. والحاصل أن يكون عارفًا بحركات النفس والشيطان بوجه من الذوق والتحقيق والعرفان.

وقوله:(**وَحَلَّ فِي مَنَازِلِ المَنَاهِل**) يعني يعرف المناهل وما فيها من المنازل، أي المواضع التي تصلح للنزول فيها من أجل ما فيها من الرعي، والدفء، والغيبة عن العدو، وغير ذلك.

---

(١) الحيوان المحترم هو الذي يحرم قتله.

(٢) وردت في (أ) «عن» والصواب ما أثبتناه من (ب).

(٣) المفاوز: جمع مفازة، وهي الفلاة المهلكة، وإنما سميت مفازة تفاؤلًا.

وقوله: (وَكُلُّ شِرْبٍ هُوَ فِيهِ نَاهِل) يعني أنه شرب من جميع مشارب الطريق سواء قل شربه أو كثر؛ إذ يتحصل له العلم بالحلو والمالح ونحوه ليتزود من هذا ويدع الآخر، فإذا حصل له هذا في نفسه صح له أن يدل غيره عليه عند تعلقه به نصحًا وقيامًا بحق الله فيما أمره به من تأدية العلم لمستحِقّه، ووجب على مريد الطريق أن يقتدي به لأنه شيخ عارف بالمقاصد والمراصد، وسواء كانت له عبارة أم لا، إذا كان يؤدي المقصود بعبارته المعتادة له، وهذا ما أشار إليه المؤلف إذ قال رحمه الله تعالى:

(١٠٦) فَعِنْدَمَا قَامَ بِهذا الخَطْبِ   قَالُوا جَمِيعًا أَنْتَ شَيخُ الرَّكْبِ

قلت: يعني أن هذه الأوصاف أوجبت له أن يكون شيخًا مربيًا بإجماع من القوم وإن لم يكن واسعًا في علم الظاهر إذا كان عنده من العلم ما يكفيه، وعلامة تحققه بذلك **ثلاثة أشياء:**

أحدها: استقامة ظاهره بالتقوى واتباع السنة في غالب أحواله، ولا يضرك ما طرأ عليه من نقص ذلك، وإن كان ضارًّا له في نفسه.

الثاني: أن تسري فيك إشارته وتتسع لك بالمعاني عبارته، فتشهد له ذاتك بالتقديم، وسرك بالتعظيم، وينتقش ما يواجهك فيه بالإرشاد والتعليم.

الثالث: أن تجد الراحة برؤيته، والزيادة بطاعته، والإعانة بتوجهه.

فقد قال في «الحكم»: لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقالُه. وقال فيه أيضًا: تسبق أنوار الحكماء أقوالهم، فحيث صار التنوير وصل التعبير، كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: كل شيخ لا تصل لك منه الفائدة من وراء حجاب فليس بشيخ.

وقال أبو علي الثقفي ﷺ[1]: لو أن رجلًا جمع العلوم وصحب طوائف الناس فلا يقتدى به حتى يأخذ أدبه عن شيخ يرشده فيما فيه. أو كما قال؛ فإني طويل عهد به. وسيأتي من كلام المؤلف ما يدل على ذلك آخر الكتاب إن شاء الله.

وإذا ثبت كونه مستحقًا للمشيخة اتبعه من عرف ذلك وإن كان فوقه في الحال، وشأن القوم الإنصاف، فذلك حالهم كما أشار إليه المؤلف إذ قال ﷺ:

(١٠٧) فَأَحْدَقُوا مِنْ حَوْلِهِ يَمْشُونا ... وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يُوزَعُونَا

(١٠٨) فَرَتَّبَ القَومَ عَلَى مَرَاتِبْ ... مَا بَيْنَ مَاشٍ: رَاجِلٌ وَرَاكِبْ

قلت: (أَحْدَقُوا مِنْ حَوْلِهِ): داروا حواليه ناظرين له بأحداقهم كأنهم الحديقة. ومعنى (يَمْشُون) يسيرون بسيره، أي يتبعون طريقته وما يشهدون من أمره عملًا، أو يسمعون منه علمًا أو أمرًا أو نهيا إلى غير ذلك.

وقوله: (يُوزَعُون): يتعين حقهم عليه كما يتعين حقه عليهم؛ فحقهم عليه ثلاثة أمور أحدها: وجود النصيحة على حسب الوقت والحال والمقصد والفيض والهمة بقدر ما تهديه إليه فراسته ونورانيته في ذلك.

الثاني: وجود الاهتمام في حصول المقصد، والتهمم بالوقائع ووجه التخلص منها؛

(١) هو الشيخ الزاهد أبو علي محمد بن عبد الوهاب الثقفي النيسابوري الشافعي الواعظ. من ذرية الحجاج بن يوسف الثقفي؛ صحب الفراء وابن خزيمة وغيرهم توفي سنة ٣٢٨هـ.

بأن يعمل الفكر في أسباب ذلك مرة، ويدعو الله مرة، ويرفع إليه همته أخرى، ويقوم بالنيابة في محل إمكانها إن أُهِّل لذلك كما فعله الجنيد في الشاب الذي تذكر حتى أنزل إذ تاب عنه من ذلك، والله أعلم.

الثالث: أن يكون محدقًا نحوهم ببصيرته؛ ليعرف الزيادة والنقص، وبهمته ليرفع ويضع، ولذلك ينبغي له أن يخلو بكل مريد أو يوكل من يخلو به في كل يوم مرة ليعرف ما عنده في ذلك، فافهم.

وحقه عليهم ثلاثة أشياء: أحدها: أن يحفظ حرمته شاهدًا وغائبًا؛ إذ بالحرمة ارتفع من ارتفع واتضع بها من اتضع. وقد أشارت إليه الآية الكريمة في حقه عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ (الحجرات: ٣) الآية، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ (الحجرات: ٤) الآية. «والعلماء ورثة الأنبياء» حتى في الحرمة والرحمة وإن كان ما عند جميعهم نسبة حبة رمل من رمال الدنيا بالنسبة إلى أدنى لمحة من لمحاتهم عليهم الصلاة والسلام، فافهم.

الثاني: إلقاء النفس والروح والقلب والجسم والوجود كله بين يديه حتى لا تغيب عنه منها ذرة، فالاختيار حسب إمكانك ينزل من نفسك دون مطالبة منه إلا بالإعلام، إنَّ ذلك أدبٌ فإن لم يصف للطبيب داؤه لم يظفر منه بدوائه. وكما قيل:

ولابد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

هذا الذي المروءة فكيف بالمشايخ؟

الثالث: السمع والطاعة له من غير اعتراض ولا تعليل إلا أن يأمر بصريح

منكر لا خلاف فيه بين علماء الأمة فهو معزول عنه، ولا سبيل إليه مع بقاء حرمته، فافهم.

والمراتب التي يترتب عليها القوم مُرَتَّبَةٌ على ما يعرفه من وجودهم؛ فكل ما غلب على قواه وجد ما يسيره[1] به ولا يتعداه له حتى يعديه حاله.

والماشي إشارة إلى صاحب الأعمال والحركات الجسمانية.

والراكب إشارة إلى المحمول بحال أو علم أو ذكر أو فكر قد توجه له على بساط معرفة، وإنما يفعل بهم ذلك لأن قوى النفس معينة لصاحبها على مراده، والله تعالى ينفع العبد بنيته على قدر همته، فلذلك تجد المسلك واحدًا والفتح مختلفٌ ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ (الرعد: ٤) الآية. هذا في شأن الأشجار النباتية فكيف بالحقائق العرفانية، وما صحب أحد قط وليًّا إلا نال منه ما تقتضيه همته، فإذا وافقت نيته همته حصل الانتظام وإلا وقع الاختلاف والنفع حاصل، والله أعلم.

ثم من مقتضى نظر الشيخ في المسير التسبب فيما يعين على السير، وهذا ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم تسليما بقوله: «أريحوا القلوب ساعة بساعة»[2]. وقال ابن مسعود ﷺ: إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طريق الحكمة.

وهذا ما نبه عليه المؤلف رحمه الله إذ قال:

(١٠٩) وَحَيْثُ كَلَّتْ نُجُبُ الأَبْدانِ قال احْدُهَا يا حَادِيَ الأَظْعَانِ

(١) وردت في (أ) « فكل من غلب على قواه وجد ما يسيره به».

(٢) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٢٩٣) بلفظ «رَوِّحُوا».

(١١٠) فَمِـــنْ هُنَــا يُلَقَّـــبُ القَـــوَّالَا   حَـــادٍ لأَجْـــلِ حَـــدْوِهِ الرِّجَـــالَا

قلت: «الكَلَلُ»: الإعياء، و«النُّجُبُ»: الرواحل، استعارها للأبدان من حيث إنها حوامل الهمم في طريق العمل بمقتضاها؛ إذ ما قصر جسد عن همته.

و«الحُدَاء» القول المهيج للرواحل على السير بحسنه نظمًا وانتظامًا، والحادي القائل للحدا في محله، و«الأَظْعَانِ» الرُّحل، و«الظَّعْنُ» الرحيل.

والحاصل أن من سياسة المشايخ إعانة النفوس بما يقتضيه حالها على ما هو المراد منها، فمن المريدين من تنتعش قواه بالمعارف والعلوم فيزكي له منها ما فوق حاله بوجه يشوقه ولا يشوش عليه في خياله، ومنهم من ينتعش حاله بالتذكير والوعظ فيكون ذكر ذلك له عونًا له عن ما هو به من سلوكه ورفعًا لهمته في حالته، ومنهم من تنتعش قواه بالمذاكرة في العلوم واستخراج دقائق الفهوم فيكون ذلك منهضًا له في حاله.

وهذه حالة ينالها من دخل من باب العلم، فيؤتى كل أحد بما ينعشه كما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥) هذه لقوم وهذه لقوم وهذه لقوم، وذلك جار في الفرع لجريانه في الأصل وبالعكس لأن التذكير على حسب الدخول، والدخول على قدر القِوى، ثم هذه الوجوه من التذكير جُملية، وتفاصيلها بحسب الفراسة والإلقاء والفهم والتوجه، ولذلك كان لكل فريق طريق حتى سلك قوم بالمنطق وقوم بالحكمة وقوم بالطبيعيات، وقوم بالفقه وقوم بالحديث، وهما أقرب إذ هما أحد أركان الطريق المحرر، فافهم.

ثم مع ذلك فللسياق أثر؛ فمن الناس من ينتفع بالحكايات، ومن الناس من يتأثر بالشعر، ومن الناس من يخرج عن ذلك كله، فيراعي لكل أحد ما تقتضيه قواه الطبيعية بعد قواه الحقيقية لأن من سار إلى الله بطبعه كان وصوله أقرب إليه من طبعه، ومن سار إليه بالبعد عن طبعه كان وصوله على قدر بعده عن طبعه، وذلك يقتضي له الاستهلاك قبل الوصول فلا يستقيم برؤية الحق إلا في آخر نَفَسٍ من وجوده إن وجد وإلا فهو بعيد بدعواه محجوب برؤية نفسه.

فلذلك قال الشيخ أبو العباس الحضرمي ﷺ لنا عن بعض العارفات من أهل بلاده أنها كانت تقول العجم بنوا مذهبهم على الاستهلاك فلا يتنعمون بالحق في هذه الدار أبدا؛ وأهل اليمن بنوا أصولهم على رؤية الحق والفناء فيه بأول قدم فهم يتنعمون به من أول قدم، فبحق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما: «الإيمان يماني والحكمة يمانية، إني لأجد نفس الرحمن من ناحية اليمن»[1] الحديث.

وقوله: (فَمِنْ هُنَا يُلَقَّبُ القَوَّالَا.. إلخ) مجرد اصطلاح لا يعترض ولا يترتب عليه حكم سوى ما أشار إليه من الأصل والتنبيه على التشبيه في الحكم وما فيه، والله أعلم.

(١١١) وَالسَّفَرُ المَذْكُورُ بِالقُلُوبِ   وَالشَّيْخُ فِي مَنْزِلَةِ الطَّبِيبِ

قلت: سفر القلوب إلى حضرة علام الغيوب عن عالم الطباع ورذائل العيوب.

قال في «الحكم»[2]: لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين، لا مسافة بينك

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٩١)، وأحمد في مسنده برقم (١٠٩٧٨) على اختلاف في ألفاظه.

(٢) «الحكم العطائية»؛ الحكمة رقم (٢١١).

وبينه حتى تطويها رحلتك، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك.

وقال أيضًا: كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟ انتهى.

وكما أنه مثال شيخ الرَّكْب هو بمثابة الطبيب للمداواة فهو طبيب القلوب لما علم وعرف وشاهد وتحقق، لأن الطب صناعة فعلُها عن العلم والتجربة وحفظُ الصحة وإبراء المرض في باب بدن الإنسان، وهذا في باب قلبه.

وقد أشار إلى ذلك الفضيل[1] رضي الله عنه حيث قال: العالم طبيب الدين ودواء الدنيا داء الدين، فإذا كان الطبيب يجري الداء لنفسه فمتى يبرئ غيره؟ وأنشدوا في ذلك:

وغـير تقـي يأمـر النـاس بالتقـي ... طبيـب يـداوي النـاس وهـو مريـض

---

(١) هو الإمام العارف الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر أبو علي التميمي اليربوعي الخراساني،كان في بداية أمره شاطرا يقطع الطريق على القوافل، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تاليا يتلو ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (الحديد: ١٦).

قال: يارب قد آن فرجع فآواه الليل إلى خربة فاذا فيها رفقة فقال بعضهم: نرتحل وقال قوم: حتى نصبح فان فضيلا على الطريق يقطع علينا قال: ففكرت وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين ههنا يخافونني وما أرى الله ساقنى إليهم الا لأرتدع اللهم انى قد تبت إليك وجعلت توبتى مجاورة البيت الحرام، روى عن الأعمش والثورى ومنصور بن المعتمر، وروى عنه الثورى وابن عيينة والشافعي وابن المبارك ، ومن أقواله رضي الله عنه :«لا يبلغ العبد حقيقة الايمان حتى يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة وحتى لا يحب أن يحمد على عبادة الله»،توفي رحمه الله سنة١٨٧ هـ.

ولكن قد يداوي المريضُ المريضَ، ومن العجائب أعمشٌ كحَّالٌ، والطب مركب من علم وعمل أشار لكليها المؤلف بأمر مجمل حيث قال رحمه الله:

(١١٢) يَعْلَـمُ مِنْهَـا الغَـثَّ والسَّـمِينَ — وَيُـدْرِكُ الصُّلْـبَ بِهـا واللِيـنَ
(١١٣) وَيَعْلَـمُ البَسِـيطَ وَالْمُرَكَّبَـا — مَـا بَـدَا مِنْهَـا عَلَيْـهِ وَاخْتَبَـا
(١١٤) وَالطَّبْـعَ وَالمِـزَاجَ وَالتَّرْطِيبَـا — وَالكَـونَ وَالتَّحْلِيـلَ وَالتَّرْكِيبَـا
(١١٥) قَدْ أَحْكَمَ التَشْرِيحَ وَالمَفَاصِلْ — وَصَـارَ عِلْـمُ الطِّـبِّ فِيـه حَاصِـلْ
(١١٦) وَكَانَ عَشَّـابًا وصَيْـدُلَانِي — قَدْحًـا وَكَحَّـالًا وَمَارِسْـتَانِي
(١١٧) أَمْهَـرَ فِي الأَعْـرَاضِ والأَخْـلاطِ — مِـنْ أَسْـقَلا جَالَيْنُـوس أَوْ بُقْـرَاطِ

قلت: الإشارة بقوله (مِنْهَا) إلى القلوب. و(الغَثَّ) المهزول الذي لا شحم فيه، وهو وزان القلب الخالي من المعاني. و(السَّمِينَ) الذي فيه الشحم وزانه القلب العامر؛ بما يخايله من علم أو معرفة أو حقيقة.

و(الصُّلْبَ) القاسي، (اللِين) ضد الصلب، و(البَسِيطَ) الفرد الذي لا يضم إلى غيره، و(وَالْمُرَكَّبَ) ما أضيف إلى سواه و(مَا بَدَا) ظهر منها -أي من القلوب- عليها كالرياء الجلي وما اختبأ وكان كامنًا فيها كالشرك الخفي والشهوة الخفية ونحوها، و(الطَّبْعَ) ما جُبِل الإنسان عليه ورُكِبَّ [1] فيه، و(المِزَاجَ) ما رُكِبَّ منه، والمراد بهما هنا ما بُني عليه الشيء وبني منه.

و(التَّرْطِيبَ) ما تنشأ عنه الرطوبة إذا استعمل فتزول القساوة مثل الذكر والتلاوة

(١) من قوله «وكان كامنًا» إلى قوله «ركب فيه» سقط من (أ) مثبت من (ب).

بالتربي والدعاء في الأسحار ونحو ذلك، و(الكَوْنَ) يعني الحالة التي القلب كائن بها من صحة أو مرض أو ما بينهما، و(التَّحْلِيلَ) يعني ما يتوصل به لتفصيل المنتظم المتناسب حتى يزول من ذنوب وعيوب وغيرها، و(التَّرْكِيبَ) إضافة الشيء إلى الشيء حتى يصير منهما شيءٌ واحدٌ مركبٌ من ذلك الشيء؛ كالذكر والفكر يصير منهما الجمع، والله أعلم.

و(التَشْرِيحَ) إشارة إلى تعريف ما في باطن الأعضاء وكيفية التركيب والتجربة فيها، وفائدة العلم بأصل العلة المداواة، و«العلم بالمفاصل» من التشريح، وقد يريد به الأوقات اللائقة بطب العلة وغيرها.

وقوله: (وَصَارَ عِلْمُ الطِّبِّ فِيه حَاصِلْ) يعني معرفة الطبيعيات السبعة والضروريات الستة والأمور الخارجة عنها وهي ثلاثة، ويجري ذلك كله في القلوب كجريانه في الأبدان فيجعل الاستقصاء بمنزلة أركان الإسلام الأربعة، والشهادتين بمنزلة القوى الداخلة في كلها، ويجعل الطبيعيات الستة بمنزلة قواعد الإيمان الستة، ويجعل الضروريات مثل شعائر الدين التي لا يتم وجوده إلا بها، ويجعل الكفر والفسوق والعصيان هي الثلاثة الخارجة، ولكل واحدة مبدأ وعلامة ودليل وحقيقة وسبب وعرض.

وقوله: (وَكَانَ عَشَّابًا) يعني أنه يعرف أعيان الأشياء التي يداوي بها، مشاهدةً وذوقًا وتجربةً وفهمًا صحيحًا. وقوله: (وَصَيْدُلَانِي) يعني شراباني؛ لأنه إن لم يعرف الأعشاب قد يضر بما يراه نافعًا، وإن أخذه من العارف به فلا يكفي علمه وحده؛ لاحتمال إرادته إهلاك من يريد طبه، وإن لم يكن صيدلاني قد يحتاج إلى التركيب فلا يجد له سبيلًا فيتعذر عليه ما يراد به وهذا في وجه الأعمال والأذكار ونحوها، فافهم.

وقوله: (قَدْحًا) يعني أن ذلك كله قد تعدم له معرفته ومزاولته لأن المزاولة هي الأصل في التحقيق لا الأقيسة والأنظار ولذلك قالوا: لا يكون الطبيب طبيباً حتى يقتل بمداواته مقبرة. و«**الكحال**» يختص بعلم العين ومداواتها وهي البصيرة فيما نحن بسبيله، و«**المارستاني**» الذي يعاين أنواعًا من أمراض مختلفة في أشخاص، و«**الماهر**» المتوسع في العلم، و«**الأعراض**» ما يدل على وجود المرض الباطن، و«**الأخلاط**» ما اجتمع من كيفيات متفاعلة.

والمراد هنا أعراض أمراض القلب، كالحرص دليل عدم الثقة بالله، والأخلاط كالطمع يتولد من سوء الظن بالله وضعف اليقين وقوة الوهم إلى غير ذلك، فاعرف هذا المثال حقه وتأمله في حقائق صاحبه لا في لسانه تجد الهداية.

واعلم أن الطبيب الحاذق هو الذي يعرف العلة قبل صاحبها، بمبادئها، ويدرك خفيها في حال انتهائه، فإذا شكوت له مبادئ علتك أخبرك بباقيها بما في نفسك فإن كان كذلك فهو ماهر وإلا فلا، فاعرف ذلك تعرف به حقائق الرجال، وبالله التوفيق.

وإذا كانت هذه الخصال فيه صح أن نقصد الاستشفاء بطبه كما نبه عليه المؤلف رحمه الله إذ قال:

(١١٨) فَعِنْدَمَا صَحَّ لَهُ التَحْصِيلُ ... يَمَّمَهُ السَّقِيمُ وَالعَلِيلُ

(١١٩) فَكَانَ يُبْرِيهِم مِنَ الأَمْرَاضِ ... وَالسَّاخِطُ القَلْبِ يَعُودُ رَاضِ

قلت: يعني بـ(التَّحْصِيلُ) الحصول على العلم المذكور بوجوهه. و(السَّقِيمُ) المتشابه المرض الذي لم ينته مرضه ولا تناهت صحته وهي رتبة الناقد، وقد يريد به ما

بعده ويكون من حيز المترادف مع العليل، و(العَلِيلُ) هو المريض.

وقوله: (فَكَانَ يُبْرِيهِم) أي يتسبب في إبرائهم؛ إذ حقيقة الإبراء لا تدخل تحت قوة البشر ولا سببه، و«الأمراض» المذكورة أمراض القلوب ومدارها على فقد الرضا عن الله تعالى فالذي برأ من مرضه قد عاد قلبه راضيًا بحكم مولاه تكليفًا أو تعريفًا. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا»(١).

قال في «التنوير»: فمن رضي بالله ربًّا استسلم له، ومن رضي بمحمد رسولًا اتبعه، ومن رضي بالإسلام دينًا عمل به. قلت: وهذه كلية ما تدور عليه الحقائق العملية بل والعلمية والحالية عند كل ذي فطرة إيمانية.

وسئل ذو النون المصري ﷺ(٢) عن وصف الأبدال فقال:

سألت عن دياجي الظلم لأكشف لك عنها، هم قوم ذكروا الله بقلوبهم تعظيمًا لربهم، لمعرفتهم بجلاله فهم حجج الله تعالى على خلقه، ألبسهم الله النورَ الساطعَ من محبته، ورفع لهم أعلامَ الهداية إلى مواصلته، وأقامهم مقام الأبطال لإرادته، وأفرغ عليهم الصبر عن مخالفته، وطهر أبدانهم بمراقبته، وطيبهم بطيب أهل معاملته، وكساهم حللًا من نسج مودته، ووضع على رؤوسهم تيجان مبرته، ثم أودع القلب من ذخائر الغيوب

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٦٠)، والترمذي في الجامع برقم (٢٦٢٣).

(٢) هو العارف الكبير الشيخ أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصري المتوفى سنة ٢٤٥ هـ. انظر ترجمته حلية الأولياء(٩/ ٣٣١)، الرسالة القشيرية(١/ ٣٨).

فهي معلقة بمواصلته، فهومهم إليه ثائرة، وعيونهم إليه بالغيب ناظرة، قد أقامهم على باب النطق من قربه، وأجلسهم على كراسي أطباء معرفته.

ثم قال: إن أتاكم عليل من فقري فداووه، أو مريض من مرضي فعالجوه، أو خائف مني فآمنوه، أو آمنٌ مني فحذروه، أو راغب في مواصلتي فَحِنُّوه، أو راحل نحوي فزودوه، أو جبان في مجاورتي فشجعوه، أو آيس من فضلي فَعِدُوه، أو راج لإحساني فبشروه، أو حسن الظن بي فباسطوه، أو محب لي فواطئوه، أو معظم لقدري فعظموه، أو مسيء بعد إحسان فعاتبوه، أو مسترشد فأرشدوه.

انتهى ما وجدته من كلامه ﷺ، وهي ترجمة المقصود في الأمر العزيز المفقود، وبالله التوفيق.

ثم نبه المؤلف على مقصوده بذكر الطب ووجوه علومه وأعماله فقال رحمه الله:

(١٢٠) وَلَيسَ هَذَا الطِّبُّ جَالَيْنُوسْ ... وَإِنَّمَا يَخْتَصُّ بِالنُّفُوسْ
(١٢١) فَهَكَذَا الشُّيوخُ قِدْمًا كَانُوا ... يَا حَسْرَتِي إِذْ سَلَفُوا وَبَانُوا

قلت: قد تقدم التنبيه على بعض تلك الوجوه بالمداواة، وتحسره على فقد المشايخ في الوقت واضح، وبالله التوفيق.

الثاني: في حكم الاجتماع

قلت: يعني حكم اجتماع المريدين مع الشيخ، واجتماع بعضهم مع بعض، وذكر فائدة ذلك وآفته، ومن يُصْحَب، ومن لا يُصْحَب، ودليل ذلك ووجهه، والله أعلم. وهو مرتب على ما قبله فلذلك عطف على ما قبله بأن قال رحمه الله:

(١٢٢) فَكَانَ إِذْ ذَاكَ اجْتِمَاعُ القَوْمِ ... لَهُ لِعِلْمِ عَمَلٍ عَنْ عِلْمِ

قلت: إذ ذاك يعني حين حصل لهم العلم بالشيخ ورأوا شواهد المشيخة فيه اجتمعوا بحيث صاروا يأوون إليه، ويجتمعون بحضرته في كل وقت وحين.

وقوله: (لَهُ) يعني للشيخ. وقوله: (لَهُ لِعِلْمِ عَمَلٍ عَنْ عِلْمِ) يعني أن قصدهم باجتماعهم عليه تعلم علم العمل بالعلم أي كيفية العلم بما علموه، بحيث يتعرفون مواقع العلم من نفوسهم، وحقائقه من قلوبهم، وشواهده في جوارحهم، فيأخذون مما يليق بهم، ويدعون لغيرهم مما يليق به، وذلك بحسب نظر الشيخ فيهم لأن الإنسان مبتلى بنفسه فتوقعه في إفراط أو تفريط، أو تخرج به لخلاف المقصود، فإذا رجع لرأي من هو أعلم منه وأنصح له لم تبق فيه بقية لمفارقة الحق إن شاء الله، وبحسب هذا يكون نظرهم عند الشيخ كل واحد على انفراده؛ لاختصاص كل أحد بحاله، ونظر الشيخ فيه على حسب حاله، وهذا ما أشار إليه المؤلف رحمه الله إذ قال:

(١٢٣) وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَنْ رَوِيَّةْ ... إِذْ يَحْضُرُ القَوْمُ عَلَى السَّوِيَّةْ

قلت: يعني أنه لا يكون حضورهم معلوم الوقت بحيث لا يحضرون إلا في وقت واحد دون ما سواه لأن ذلك يؤدي لاستوائهم في التلقي وذلك غير لائق بهم، بل

ينبغي للشيخ أن يكون له مجلس يختص به كل مريد في نفسه فيسأله عن حقائق ما عنده وينبهه على ما يحتاج إليه، ومجلس يعم فيه مريديه فيذكرهم ويحكي لهم أحوال الصالحين الصادقين ويعلمهم ما يلزم كل واحد في نفسه مما يشترك الكل فيه وينبههم على ذلك بحسب ما يقتضه له الحال.

ومجلس مع الله سبحانه يتضرع إليه في إصلاح شأنه وشأن من تعلق به ليكون ناصحًا لهم في الباطن كما نصحهم في الظاهر، ولأنه مفتقر في شأنه وشأنهم لما يصلح الجميع من علم وعمل وحال وتوفيق؛ فيجب عليه من الطلب ما يجب عليهم بل أمره في ذلك آكد، فأما مجلسه مع العوام والمجانبين[1] للطريقة فله حكم يخصه ووجه ليس هذا محله وبالله التوفيق.

وسن آفات الاجتماع أن يكون مقصودًا للأكل والتلهي ونحوه وهذا ما نبه عليه إذ قال رحمه الله:

(١٢٤) وَلَمْ يَكُنْ أَيْضًا لَدَى العِشَاءِ إِذْ فِيهِ نَهْيٌ وَهُوَ للإِغْفَاءِ

قلت: يعني أن اجتماعهم أيضًا لا يكون عند العَشَاء ونحوها من الأمور العادية لأنها تسقط الحرمة إلا من قلب متمكن من الحب والاعتقاد، ثم هي حركة من أمر مباح حيث يطلب الأمر الجمع المندوب فتؤدي إلى تفرقة القلب عن التوجه في غير ذلك الوقت. وحق المريد أن يدخل على الشيخ بالهمة و يقعد عنده بالحرمة ويخرج من عنده بالخدمة والعزيمة. ثم قصد العَشَاء قد يكون معوقًا عن المقصود، وجالبًا للتكلف والتكليف الموجب للطرد والإبعاد.

---

(١) وردت في (أ) «المجانين» والمثبت من (ب)، وهو أنسب لسياق الكلام.

ومعنى (هُوَ للإِغْفَاءِ) يعني للنوم أي معين على النوم والغفلة، اللهم إلا أن يأتي لما هو الأصل فيصادف عشاء الشيخ أو غيره فيدعوه فليعمل في ذلك على ما يقتضيه شاهد الحال من انبساط أو ترك؛ فإنه غير مقصود وافق، وبالله التوفيق.

ثم ذكر فائدة اجتماع الجماعة في نفسها بأن قال رحمه الله:

(١٢٥) وَافْتَقَرُوا أَيضاً للائتِلافِ لِيَعْلَمَ الْمُسْتَوْفِي حَالَ الوَافِي

قلت: يعني أنهم مفتقرون للاجتماع ليرى بعضهم بعضًا في حاله فيعرف كل واحد منزلته، فالمستوفي الذي هو ناقص[1] تنعشه رؤية الوافي، والعلم بحاله لاشتعاره نقصه بذلك، وقصوره دون رتبة صاحبه وتعرفه مقدار نفسه، والوافي يعرف قدر منة الله عليه فيما وصل له من الكمالات اللائقة به في الحال، ويجنح بهمته لما هو أعلى فيوصله الله إليه؛ فإنَّ المريد لا ينتقل عن حاله إلا بهمته.

قال أبو هادي رضي الله عنه[2] لأصحابه يومًا: بمَ يرتفع المريد إلى رتبة أعلى من رتبته؟ فقالوا: من عند الشيخ. قال: يخلق الله همة أعلى من همته فيرتفع بها إلى رتبة أعلى من رتبته.

قال بعض المتقدمين من السادات: كنا إذا فترنا نظرنا إلى محمد بن واسع[3] فعملنا

(١) في (ب): الناقص.

(٢) انظر «الحقائق والرقائق» للمَقَّري صـ ١٥٢، ولعله الشيخ أبو هادي مصباح بن سعيد الصنهاجي من علماء الجزائر المتوفى بقسطنطينة سنة ٧٤٧هـ ذكره ابن قنفذ في كتابه «الوفيات».

(٣) هوالإمام الرباني ، القدوة ، أبو بكر ، ويقال : أبو عبد الله محمد بن واسع الأزدي البصري،ومن أقواله رضي الله عنه :«إذا أقبل العبد بقلبه على الله ، أقبل الله بقلوب العباد عليه . وقال : يكفي من الدعاء مع الورع يسير العمل»، ومن مناقبه انه عندما تجهز قتيبة بن مسلم لقتال الترك ، وهاله أمرهم ، سأل عن محمد بن واسع .

عليه أسبوعًا. فالمشاهدة ترفع الهمة وتقوي العزمة وبالعكس. والمؤمن مرآة أخيه فما في المحاذي ينطبع في المرآة. وبالله التوفيق.

ثم استدل بالحديث وذكر معناه إذ قال رحمه الله:

(١٢٦) لاَ خَيْرَ فِيمَنْ لَمْ يَكُنْ أَلُوفَا ... وَلَمْ يَكُنْ لِغَيْرِهِ مَأْلُوفَا

قلت: أشار لحديث «المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[1]. وقال عليه الصلاة والسلام: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا الموطئون أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون»[2] الحديث.

ويرحم الله أبا الحسن الششتري حيث يقول في بعض مقطعاته التي رد فيها على منكري حال الفقراء في الاجتماع ونحوه.

وقلتم المصالح/ في العشرة راتب

إبليس لذلك رائح/ يقصده عن صاحب

المؤمن الناصح/ ألف مألوف طالب

من عند علم الراح / للغير أو أكمل

فقيل: هو ذاك في الميمنة جامح على قوسه، يبصبص بأصبعه نحو السماء. قال: تلك الأصبع أحب إلي من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير، توفي رحمه الله سنة ١٢٣هـ.(أنظر ترجمته) «سير أعلام النبلاء للذهبي» (٦/ ١١٩) ط الرسالة.

(١) أخرجه أحمد في المسند برقم (٩١٩٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٠٨).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٧٦٩٧) واللفظ له، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٧٩٨٣).

خل الجبال والحجارة/ المؤمنين أفضل

شيطان جاء في الواحد/ نعم وفي الاثنين

وقل لمن قال أين/ الصالح العابد

فلا ترد زائد / نرد نراه بالعين

يقال لو من استراح / عن كل ما أمل

تراه في التجار/ بسوق يخض بجهل

ثم كون الإنسان إلفًا مألوفًا يقضي باستئناس النفوس به، من جنسه وغير جنسه فيتعين أن يجاهل غير جنسه ولا يصحب غير جنسه وهذا ما نبه عليه المؤلف رحمه الله تعالى إذ قال رحمه الله:

(١٢٧) وَمَن يَكُنْ يَصْحَبُ غَيْرَ جِنْسِهِ فَجَاهِلٌ تَاللهِ قَدْرَ نَفْسِهِ

قلت: وذلك لَأَنْ صاحبَ الإنسان رقعةٌ من ثوبه فلا يصح أن يكون مخالفًا له في نوعه، ومتى كان خلاف ذلك كان هجنة به وضررًا عليه في دينه ودنياه إذ «المرء على دين خليله»[1] والطبع يسرق من الطبع من حيث لا يشعر، والمرء مقاس بصديقه ومعروف به فهو وجهه، ويرحم الله القائل:

فَلا تَصْحَبْ أَخَا الجَهْلِ وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ
فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرْدَى حَلِيمًا حِينَ آخَاهُ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم (٨٠٢٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٩٩٠)، والحاكم في المستدرك (٧٣١٩).

يُقَاسُ المَرْءُ بالمَرْءِ إِذَا مَا هُو مَاشَاهُ
وللشَّيءِ مِنْ الشَّيءِ مَقَايِيسٌ وَأشْبَاهُ
وَللقَلْبِ عَلَى القَلْبِ دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ

قلت: وقدجمع الناس في آداب الصحبة ومن يصحب ومن لا يصحب ما لا تمكن الإحاطة به، آكد ما في ذلك قول سهل بن عبد الله رضي الله عنه: «احذر صحبة ثلاثة من أصناف الناس: الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والصوفية الجاهلين».

وقال بعض المشايخ: كل من لم يوافقك على طريقك فهو حدث وإن كان ابن سبعين سنة. وفيها أوحى الله إلى موسى عليه السلام: يا ابن عمران كن يقظانًا وارتد لنفسك إخوانًا، وكل أخ لا يوافقك على مسرتي فهو لك عدو ويقسي قلبك ويباعدك مني.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: أوصاني حبيبي: لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالبًا من معصية الله، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله، ولا تصطفِ لنفسك إلا من تزداد يقينًا، وقليل ما هم. انتهى

وهو عجيب وإنما كان مصاحبُ غير جنسهِ جاهلًا قدر نفسه لأنه يضعها في محل لا يليق بها فتُهان؛ وذلك من عدم معرفته بحقها، والله سبحانه أعلم، ثم أشار لحديث ورد في الجليس فقال رحمه الله:

(١٢٨) أَفضَلُ للمَرْءِ جُلُوسٌ وَحْدَهُ وَلا يَكُنْ جَليسُ سُوءٍ عِنْدَهُ

قلت نبه على الحديث أعني قوله عليه الصلاة والسلام: «الجليس الصالح خير من

الوحدة، والوحدة خير من الجليس السوء، والجليس الصالح مثل العطار إن لم تنل من طيبه أصبت من ريحه، والجليس السوء مثل الحداد إن لم يصبك من شرره أصابك من نتنه»[1].

وفي معنى ذلك قيل:

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيارَهُم ... وَلا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي

عَنْ المَرْءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِه ... فَكُلُّ قَرِينٍ بالمُقَارَنِ يَقْتَدِي

على هذا اختلفت طرق الناس فَمَنْ مؤثرٌ العزلة للسلامة، ومن مؤثرٌ الخلطة للغنيمة، والحق في ذلك النظر بالتفصيل، والجليس السوء هو الذي جمع ثلاث خصال:

الأولى الرضا عن نفسه؛ بحيث يرى لها الحق على الناس، ويرى الناس كلهم دونه وهذه صفة الجبابرة الغافلين.

الثانية: الاسترسال في الغيبة، وتزكية النفس، وتعظيم ذنب الغير، واحتقار ذنب نفسه؛ فلا يقبل عثرة ولا يغفر زلة ولا يعذر في حاله، وهذه صفة القراء المداهنين.

الثالثة: وجود الدعاوى والطمع وحب الرياسة والبدع وهذه صفة المتصوفة الجاهلين. فأما العوام فلا حديث عليهم إلا محب صادق أو منتسب محق أو عاقل متمسك.

وقد قيل الإخوان ثلاثة: أخ لآخرتك فلا تراع فيه إلا الدين، وأخ لدنياك فلا تراع فيه إلا حسن الخلق، وأخ لتأنس[2] به فلا تراع فيه إلا السلامة من شره. وهو كلام جامع مفيد، وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (٣٤٨١٩) وأورده البيهقي في الأربعين الصغرى ، وأورده الرامهرمزي في أمثال الحديث .على اختلاف في بعض الفاظه.

(٢) في (أ): للتأنس، والمثبت من (ب).

ثم عاد لفائدة الاجتماع على الشيخ منبهًا على ملازمتها فقال رحمه الله:

(١٢٩) قَدْ يُرْتَجَى الشِّفَاءُ للسَّقِيمِ   مَهْمَا يَكُنْ مُلازِمَ الحَكِيمِ

قلت: وذلك لأنه بالملازمة يُعْرف صدقه في طلب دوائه، ويظهر حاله في وجه الشفاء من دائه بمعرفة وجه العلة وسببها الذي لا يعرف غالبًا إلا بالمزاولة وبذلك يقع العطف عليه في الدعاء وغيره، وهذا معنى ما وقع لشيخ المشايخ سيدي أبي مدين رضي الله عنه في قصيدة العقارية حيث يقول:

وَرَاقِبْ الشَّيْخَ فِي أَحْوَالِهِ فَعَسَى   يُرى عَليكَ مِنْ اسْتِحْسَانِه أَثَرا
مَعْ رِضَاهُ رِضَا البَارِي وَطَاعَتُهُ   يَرْضَى عَليكَ فَكُنْ مِنْ تَرْكِهَا حَذِرا

والمراد بـ(الحَكِيمِ) هنا الطبيب المداوي للعلل؛ وهو عبارة عن الشيخ المربي، والله أعلم. ثم نبه على حال المنكرين على الفقراء في اجتماعهم وأتى بدليل واضح في ذلك وهو ما ذكره إذ قال رحمه الله:

(١٣٠) فَمَنْ يُنَازِعْ فَاطْرَحَنْ نِزَاعَهْ   فَالدِّينُ مَبْنِيٌّ عَلَى الجَمَاعَةْ

قلت: يعني لقوله عليه الصلاة والسلام: «الجماعة رحمة والفرقة عذاب»[1]، وقوله ﷺ: «يد الله مع الجماعة»[2] وقوله عليه السلام: «من فارق الجماعة قيد شبر مات ميتة جاهلية»[3] إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في ذلك ثم قال رحمه الله:

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد في مسنده (١٨٤٤٩)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٥).

(٢) جزء من حديث أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٩٨)، والترمذي في الجامع (٢١٦٦).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٧٠٥٤)، ومسلم برقم (١٨٤٩).

الثالث: في حكم اللباس

قلت: يعني ما يختاره القوم من اللباس وما يتركونه ولا يكون ذلك قادحًا في طريقهم أصلًا ولا فصلًا، وأول ذلك الحكم العام وهو الذي ذكره بأن قال رحمه الله:

(١٣١) وَقَدْ أَبَاحُوا سَائِرَ الأَثْوَابِ　　وَتَرْكُهَا أَقْرَبُ لِلثَّوَابِ
(١٣٢) إِذْ فِي لِبَاسِ حِلِّهَا الحِسَابُ　　أَيْضًا وَفِي حَرَامِهَا العِقَابُ

قلت: يعني أن القوم لم يمتازوا من بين المسلمين بزي في اللباس بل يلبسون كل ما أباحه الشارع صلى الله عليه وسلم تسليمًا، وقد لبس صلى الله عليه وسلم تسليمًا الأحمر والأصفر والأخضر والمُحَبَّر والأسود والأبيض والقُبَاء[1] والجبة والكساء والقميص والعصابة والرداء والبردة وغير ذلك، واشترى السراويل. وذكر البُرْنُس: ولم يرد عنه لباس الأزرق ولا أنكره؛ فجميع الألوان مباحة اللباس ويفْضُلُها الأخضر؛ فإنه لباس أهل الجنة والأبيض لقوله عليه الصلاة والسلام: «إن من خير ثيابكم البياض ليلبسها أحياؤكم وكفنوا فيها موتاكم»[2] فلذلك اختارها جماعة من العجم وزادوا كونها صوفًا؛ لما في الصوف من رقة القلب وخفة المؤنة، ولأن موسى عليه السلام يوم نَاجَى ربه كانت عليه ثيابٌ كلها صوف، وهذا لا على سبيل التحجير بل على سبيل الأَولَوية به.

وقوله (تَرْكَهَا) أي ترك ألوان الثياب والتقلب فيها لا تركها رأسًا لأن التعري حرام. وقوله (فِي لِبَاسِ حِلِّهَا الحِسَابُ) عن أصلها وقصدها ومصيرها وحرامها فيه

---

(١) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب او القميص ويتمنطق به.(المعجم الوسيط/ ج٢-ط٣).

(٢) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٢٥٣)، الطبراني في الأوسط (٣٤٧١)،والحاكم في المستدرك (١٣٠٨).

والعقاب من حيث مناولة ما حرم الله، وهذا جار في كل أمر متوسع فيه من الدنيا كذا قال جماعة من العلماء. وتعقبه آخرون بأن ما أبيح لا يكون سببًا في الحبس والحساب وتحقيق كلامهما يطول غير أن التقلل من الدنيا، والنفور عن زهرتها مطلوب في الجملة والتفصيل، وبالله التوفيق.

ثم ذكر فوائد المرقعة ولباسها فقال:

(١٣٣) وَالقَـومُ مَـا اخْتَـارُوا المُرَقَّعَـاتِ إِلَّا لأَوْصَـافٍ وَسَـوْفَ تَـاتِي

(١٣٤) أَوْلُهَـا فِيهَـا إِطِّـرَاحُ الكِـبْرِ وَمَنْعُهَـا للـبَرْدِ ثُـمَّ الحَـرِّ

(١٣٥) وَخِفَّـةُ التَكْلِيـفِ ثُـمَّ فِيهَـا قِلَّـةُ طَمَـعِ الطَّامِعِـينَ فِيهَـا

(١٣٦) وَذِلَـةُ النَفْـسِ وَتَطْوِيـلُ العُمُـرْ وَالصَـبْرُ ثُـمَّ الاقْتِـدَاءُ بِعُمَـرْ

(١٣٧) أَلا تَـرَى لابِسَـهَا كالخَاشِـعِ فَهِـي إِذًا أَقْـرَبُ للتَّوَاضُـعِ

قلت (المُرَقَّعَاتِ) جمع مرقعة وهو الثوب الملفق من رقاع شتى، واختارها القوم على سواها من الثياب لوجوه عشرة:

أحدها: إن الكبر معها منتف باعتبار صورته، بعيدٌ باعتبار حقيقته إلا أن يقصد ذلك من حيث إنها لباس من يعتبر[1] في الدين ويرى لنفسه قدرًا بلباسها، فينقلب الأمر في ذلك.

الثاني: أنها تمنع الحر بتناسبها وبرودتها؛ لاجتماع أجزائها دون تخلخل. وتمنع القرَّ[2]، أي: البرد بتكاثفها وغلظها.

(١) في (أ):يفتى وما أثبتناه من (ب).

(٢) قرَّ اليوم قرًّا أي برد. (المعجم الوسيط).

الثالث: عدم الكلفة في التحصيل لا من قبل المسألة ولا من قبل المكسب فإنها من الخرق الملقاة على المزابل التي لا يضر إعطاؤها من طلبه منه ولا تنال الذلة من طلبها.

الرابع: قلة الطمع فيها عند السُّلَّابَة[1] وغيرهم من حيث ما تحتوي عليه؛ فإذا جاء بها الفقير لهم واختبروها لم يكن لهم اهتمام بل يردونها[2] عليه، ويستغفرون في حقه كما هو مشاهد معلوم. ولبسها للاحترام جائز.

الخامس: إنَّ في لباسها منع الشرور باعتبار الاحترام لتشبه لابسها بأهل الخير وذلك جائز في الدفع لا في الجلب لقوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ (الأحزاب: ٥٩).

السادس: فيها ذلة النفس بين الجنس والأقران لأن صاحبها لا يعرف بالتَّقِيَّة ولا يُرى بالأمور العلية بل إذا غاب لا يُنتظر وإذا حضر لا يُشاور.

السابع: فيها رفع الهمة، وقلة المبالاة بالخلق؛ فإن المعتقد لا يزيده ذلك إلا خيرًا والمنتقد لا يبالي به صاحبها. وقد قال بعض المشايخ لبعض[3] الشباب: إياكم وهذه المرقعات فإنكم تكرمون لأجلها. فقال الشاب: إنما نكرم بها من أجل الله؟ قال: نعم. قال: حبذا من نكرم من أجله. قال: بارك الله فيك.

الثامن: فيها -بالخاصية- طول العمر، وأظن ذلك من قلة الاهتمام ووجود الثقة

---

(١) أي اللصوص.

(٢) في المخطوط: يردوها، وهو خطأ نحوي.

(٣) ورد كثيرا استخدام لفظة (بعض) والمقصود منه: أحد.

بالله تعالى. وقد يكون من طريق أن صاحبها لا ينام إلا غلبة؛ لما يصحبه فيها من الحيوانات المؤذية، والله أعلم.

التاسع: فيها جمع الخاطر الذي لبسها لأجله عمر ﵁؛ فإنه كانت له مرقعة بين كتفيها ثلاث عشرة رقعة إحداها من جلد، فلما طرحها يوم فتح القدس بإشارة المسلمين ولبس غيرها قال: «أنكرت نفسي» وعاد إليها. ولقد قال لي بعض الناس: إنما لبسها عمر ﵁ ضرورةً. قلت: إنما لبسها ﵁ قناعةً وتواضعًا. فقال: من أين؟ فذكرت له ما خلف في تركته، وما كان بيده من المال الخاص به فأنصف.

العاشر: فيها الوقاية من ارتكاب الكبائر المشهورة إذ يعاب ذلك على صاحبها ولا يتمكن منه بحال، فهي عصمة من عظائم الكبائر. وبالله سبحانه التوفيق.

فائدة:

ينبغي لمن أوسع الله عليه في الدنيا أن يظهر عليه من أثر نعمة الله باستعمالها على وجه مباح، ولا يخل بالحق ولا بالحقيقة بل يلبس أحسن لباس جنسه أو أوسطه، ويتخذ مرقعة إن أمكنه يجعلها عدته وأصل لباسه، فمادام غنيًّا عنها استغنى وإلا فهو المرجع عنده، كذا[(١)] أشار علينا شيخنا أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري ثم الزواوي ﵁[(٢)] وهو من أعظم الناس اتباعًا للسنة وأكبرهم حالًا في الورع ﵀.

(١) ساقط من (أ)، والمثبت من (ب).

(٢) هو الشيخ الفقيه شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي صاحب منظومة «كفاية المريد» المشهورة بـ«الجزائرية في العقائد الإيمانية» شرحها الإمام السنوسي. توفي رحمه الله سنة ٨٨٤هـ أنظر ترجمته في «الضوء اللامع» (١: ٣٧٤)

الرابع: في حكم الأكل

قلت: ذكر في هذه الترجمة حكم الأكل، ومقدار الأكل وصفته وآدابه، وآداب تحصيل القوت والعمل به بعد حصوله، وكيفية العمل في تصريف ما يصرف منه، والتنبيه على أمور في ذلك مهمة، وابتدأ ذلك بأن قال رحمه الله:

(١٣٨) وَالأَكْلُ فِيهِ تَرْكُهُ مَشْرُوطُ إِلَّا اضْطِرَارًا قَدْرَ مَا يَحُوطُ
(١٣٩) فَإِن يَكُنْ فَحَسَنٌ وَإِلَّا فَتَرْكُهُ عِنْدَ الجَمِيعِ أَوْلَى

قلت: يعني أن الغفلة عن الأكل وعدم الالتفات إليه بكل حال من شرط المريد عند القوم؛ لأن من كانت همته بطنه كانت قيمته ما خرج منها، فلذلك لا يأكلون إلا اضطرارًا واحتياجًا، وبقدر ما يسد الخلة، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا: «ما ملأ ابن آدم وعاءا شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان ولابد فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس»[١] الحديث. وحدُّ الاحتياج أن يشتهي الإنسان خبزه المعتاد وحده، وحدُّ الاضطرار أن يشتهي كل خبز بل كل مأكول بأي نوع كان.

والجوع الكذاب أن يشتهي مع الخبز شهوة ما. قال المشايخ: وعلامة أخذ الحاجة من الطعام تغير طعم الطعام في الفم والاحتياج في تسويغه لشرب الماء بوجه لا يمكن دونه أو يمكن مع تَكَرُّتٍ[٢] والإحساس بالثقل. والله أعلم.

وقوله: (فِيهِ) يعني في الطريق. وقوله: (قَدْرَ مَا يَحُوطُ) يعني قدر ما يحفظ القوة اد

(١) أخرجه ابن ماجة (٣٣٤٩)، والترمذي (٢٣٨٠)، وأحمد في المسند (١٧١٨٦) واللفظ له.

(٢) كرا (الأمر) يكروه ويكريه كرواو كريا (أعاده مرارا) أي مرة بعد أخرى. (تاج العروس/ فصل الكاف).

لا يجوز لأحد أن يجيع نفسه لحد يخل قوته أو يفسد فكرته بل بين الأمرين، كما أشار إليه صاحب البردة رحمه الله إذ قال:

وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ   فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ

وقوله (فإن يَكُنْ) يعني فإن حصلت الضرورة والحاجة فالأكل حسنة[1] وإلا فتركه أولى عند كافة أهل الطريق. وبالله التوفيق ثم قال رحمه الله:

(١٤٠) وَأَدَبُ القَوْمِ لَدَى الطَّعَامِ   جَمٌّ فَمِنْهُ تَرْكُ الاهْتِمَامِ

(١٤١) وَقِلَّةُ الذِكْرِ لَهُ إِنْ غَابَا   لِكَوْنِهِ عِنْدَهُمْ حِجَابَا

قلت: «الأَدَبُ» في الشرعيات: ما كان جاريًا في العادات بطريق الندب، وهو عند القوم يعني الصوفية ما يقتضي حفظ الحرمتين من قول أو فعل أو حال، وعليه مبنى أمرهم، فلهم فيه ما ليس لغيرهم في كل وجه ومن ذلك أدبهم لدى الطعام، أي عنده.

وهو (جَمٌّ) أي كثير غزيرٌ؛ فمنه عدم اهتمامهم به قبل الحاجة إليه لأن الاهتمام دليل عزته عليهم وعزته دليل تعلق النفس به، وذلك من قوة الأوصاف البهيمية عليها. (وَقِلَّةُ الذِكْرِ لَهُ إِنْ غَابَا) أي ولو كانت بهم حاجة لأن ذكره دليل تعلق النفس به ومن أحب شيئًا أكثر من ذكره، ولأن ذكره يثير الشهوة وتسلط النفس على الطلب فيؤدي إلى الاهتمام أو يكون علامة عليه، وإنما أهملوه اهتمامًا.

وقوله: (لِكَوْنِهِ عِنْدَهُمْ حِجَابًا) عن الحقائق باشتغال النفس به؛ لولوعها به طلبًا وذكرًا إذا ألفت ذلك وتعينها الطبيعة والعادة، فيقوى الحجاب حتى يصير لحدٌ لا يمكن رفعه لتمكنه.

---

(١) في (أ): شبع، والمثبت من (ب)، وهو أكثر اتساقا مع المعنى.

وقوله: (بَلْ أَنْزَلُوه..إلخ) هو الذي يتعين على كل عاقل في الطعام والشراب؛ أن ينزله منزلة الدواء ولا يتناوله إلا عند الحاجة، ويقف منه على قدرها ولا يذكره ولا يهتم به أصلًا ولا فصلًا بل يكون الاستغناء أهم عليه من مناولته، والسكوت عنه أثر من ذكره، والله أعلم.

ومن فروع ذلك ما ذكر بأن قال رحمه الله:

(١٤٢) بَلْ أَنْزَلُوه مَنْزِلَ الدَّوَاءِ عِنْدَ العَلِيلِ بُغْيَةَ الشِّفَاءِ
(١٤٣) وَلَمْ يَكُنْ هَمُّهُمْ بجَمْعِهِ وَكَسْبِهِ وَفَضْلِهِ وَمَنْعِهِ
(١٤٤) وَلَا اسْتَقَلُّوهُ وَلا عَابُوهُ وَلَمْ يَكُنْ قَصْدًا فَيطْلُبُوهُ

قلت: يعني أنهم جعلوه في حيز المهمل الذي لا قدوم لهم عليه إلا عند الضرورة، وما علل بالضرورة تقيد بقدرها فهم لا يجمعونه ولا يشتغلون بتكسبه ولا يشتغلون بأفضاله ولا يمنعونه عن مستحقه، وإن فعلوا شيئًا من ذلك فلا من حيث يظنه الناس بل من حيث العبودية في إقامة الأسباب على وجه أنهم خُزان المملكة؛ يترصدون سدَّ الخلل، ويمسكون ما أمروا بإمساكه، ويرسلون ما أمروا بإرساله.

وقد سئل الشبلي ﷺ في خمس من الإبل قال: أما الواجب فشاة وأما عندنا فكلها لله. فقيل له: ما دليلك على ذلك؟ فقال: أبو بكر ﷺ حين خرج عن ماله كله لله ورسوله، فمن خرج عن كل شيء فإمامه أبو بكر، ومن أعطى بعضًا وأمسك بعضًا فإمامه عمر، ومن أعطى لله ومنع لله فإمامه عثمان، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علي، وكل علم لا يدل على ترك الدنيا فليس بعلم.

وكان شيخنا أبو العباس الحضرمي ﷺ يقول: ليس الرجل الذي يعرف كيفية تفريق الدنيا فيفرقها إنما الرجل الذي يعرف كيفية إمساكها فيمسكها. قلت: وذلك لأنها حيّةٌ وليس الشأن قتل الحية إنما الشأن في إمساكها حيَّةً.

وقال الشيخ أبو محمد عبد القادر ﷺ[1] لما سئل عن الدنيا: أخرجها من قلبك واجعلها في يدك فإنها لا تضرك. وقال الشيخ أبو مدين ﷺ: الدنيا جرادةٌ إذا قطع رأسها حلت، ورأسها حبها. انتهى وأظنه تقدم أول الكتاب.

وقوله: (وَلَا اسْتَقَلُّوهُ...إلخ) البيت. هو من لازم ما تقدم لأن من اهتم بالشيء طلبه، ومن كان مطلبه الإكثار استقل، ومن فرق بين شيء وشيء دلَّ على تمييزه فيه، وليس مقصود القوم إلا سد الخلة كما قال بعضهم: إنما هي فورةُ جوع لا أبالي بما سددتها.

وقال آخر: ليس لها علينا إلا كفايتها فلا يُبَالَى فيها بطيب ولا رديء، وهذا ما لم يكن حرامًا أو مضرًّا بوجه واضح؛ إذ لا يجوز الإقدام عليه، ورَدُّ المضر ليس من قوادح التوكل لأنه جرى مع سنة الله، وما وقع في بعض الحكايات صاحبُه يتكلم من بساط الحال فلا يقتدى به والله أعلم. ثم قال رحمه الله:

(١٤٥) وَالقَـومُ لَمْ يَدَّخِـروا طَعَامَـا بَـلْ تَرَكُـوا الحَـلالَ وَالحَرَامَـا

(١٤٦) إِلَّا يَسِـيرًا قَـدْرَ مَـا تَيَـسَّرَا إِذْ الحَـلَالُ المَحْـضُ قَـدْ تَعَـذَّرَا

قلت: يعني أنهم لا يدخرون فضلة الطعام المستهلك بما فيه من طول الأمل وتعلق النفس وعدم استحقاقه في القوت.

---

(١) لعله الشيخ القطب الرباني، عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١هـ

حتى كان إبراهيم الخواص ﷺ إذا حضر مائدةً فرأى فيها خبزًا باردًا قام ولم يأكل ويقول: هذا طعام نُسِيَ حق الله فيه إذ بات مع وجود المحتاجين. وهذا شيء اعتبره من حيث الاختصاص بمعنى أنَّ صاحبه لو كان عمله فيه لله كان أعطى المساكين الفضلة بدل تأخيره عن قصد زائد في حق الخواص ونحوه، فلذلك أُنِف. و لأنه دائر بين الصرف والتضييع بوجود الزائد وإبقائه حتى تستثقله النفوس، وإن كان ذلك أيضًا فعل لضرورة واضحة فصاحبه معذور، والله أعلم.

وقوله (تَرَكُوا الحَلالَ وَالحَرَامَا) يعني لأن تركهم للحلال زهد وتركهم للحرام تقوى وتركهم للشبه ورع، وهم يطالبون أنفسهم بحقائق ذلك.

وقوله (إِلَّا يَسِيرًا..إلخ) يعني أنهم يأخذون اليسير الواقع على وجه التيسير وسواء كان ذلك بتكسب أو بغير تكسب؛ لأن أخذ ذلك لابدَّ لهم منه لوجود الضرورة شرعًا عادة، ودخول المكلف ليس من شأن الفقير بل أموره كلها على التيسير؛ فلا يكلف ولا يتكلف لقوله عليه الصلاة والسلام: «أنا وأتقياء أمتي برآء من التكلف»[1]، ولأن التكليف ينافي التوكل، وترك الأسباب ينافي الأدب ولكن كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما: «تغدو خماصًا وتروح بطانا»[2] الحديث.

---

(١) أورده الغزالي في الإحياء وقال عن الحافظ الزبيدي في إتحاف السادة المتقين رواه الدار قطني في الافراد من حديث الزبير بن العوام «إلا أني بريئ من التكلف وصالحوا أمتي» واسناده ضعيف قلت ونقل الحافظ السخاوي عن النووي أنه قال ليس بثابت يعني بلفظ المصنف ويروى من قول عمر ﷺ نهينا عن التكلف أخرجه البخاري من حديث انس بن مالك ﷺ.

(٢) جزء من حديث أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٨٩٤)، والترمذي في الجامع (٢٣٤٤)، وأحمد في المسند (٢٠٥).

وقوله: (إِذْ الحَلَالُ المَحْضُ.. إلخ) يعني بـ«المحض» الخالص الذي لا شوب فيه ولا شائبة اختلافٍ، فأما ما يجري على اختلاف العلماء والراجح والمرجوح فغير موجود.

وقال العلماء: إذا فُقِد [1] رأسًا، أقيم من عشرة أشياء: تجارة بصدق، وأجرة بنصح، وأعشاب الأرض غير المملوكة، وهدية من أخ صالح، وصيد البر حيث يباح، وصيد البحر، ومهور النساء، وقسمة المغنم، والميراث عن أصل مجهول، والسؤال عند الحاجة. وكثير ما يجري على ألسنة المدينين أن الحلال ضالة مفقودة وهو أمر يجعلونه عكازًا للاسترسال وأخذ كل ما والاهم، بل الحلال موجود في كل زمان لما كلفنا بطلبه؛ ولانقطع أولياء الله لأنه قوتهم وذلك باطل. وأيضًا إذا كانت حرمت للكل حلت للكل، وكل [2] من بيده شيء يستأنف، فيه حكم الله الآن.

وقد كان شيخنا أبو عبد الله القَوْري [3] يقول في ذلك قولا بليغًا، ويقول: من كان بيده شيء لا يعرف فيه دخل بالأصالة ولا معاملة قبيحة مقصودة فمن أين يحرم ماله؟ وما غلب على الناس من الجهل وقلة الديانة لا يحرم ما بأيديهم لأن الإنسان لا يخاطب إلا بما في علمه لا بما في علم الله.

---

(١) أي الحلال.

(٢) سقط من(أ) مثبت من(ب).

(٣) هو الإمام العالم، الحُجّة، آخر حفاظ المدونة بفاس، محمد بن قاسم بن محمد بن أحمد اللَّخمي، المكناسي القَوْري واشتهر بالقَوْري، وهي بفتح القاف وسكون الواو ثم راء، نسبة لبلدة قريبة من إشبيلية ولد بمكناسة الزيتون سنة ٨٠٤هـ وتوفي سنة ٨٧٢هـ بمدينة فاس انظر ترجمته الضوء اللامع للسخاوي (٨/ ٢٨٠)، نيل الابتهاج لأحمد بابا التنبكتي(٥٤٨)، شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف (٢٦١)..

وناولني مرة كتابًا في الحلال والحرام فرأيت فيه أن الله خلق المال حلالًا كما خلق الماء طهورًا؛ فكما لا ينجس هذا إلا ما غُيِّر لا يحرم هذا إلا ما غُيِّر.

إلا أن السلف ﷺ لمعرفتهم بكمائن النفوس تساهلوا في الطهارة لحرص أنفسهم على التحفظ وشددوا في باب الكسب لتساهل النفوس فيها حتى جرى من قواعدهم في باب الطهارة أن الأصل مقدم على الغالب، وفي باب الحلال والحرام الغالب مقدم على الأصل وهي مسألة اختلاف.

وقد أهمل الناس في هذه الأزمنة باب الحلال والحرام لاسيما في البلاد المشرقية فليكن الفقير من ذلك على بال، ومن يصحب العلم لا يضل ولا يضيق عليه الواسع بل لا يزال في فسحة ما لم يتعين.

وكان شيخنا أبو العباس الزواوي رحمه الله يقول: الحلال اليوم أسهل على المتجردين وغيرهم لأنه إنما يجب عليه تحقق الوجه الذي يأخذ به الواجب من زكاة أو مال مستغرق أو غيره فقط بخلاف غيره.

وأشار ابن الفاكهاني [1] إلى أنه ينبغي عدم التعرض للبحث في هذه الأزمنة والوقوف مع ظواهر الأحوال لأن البحث لا يجب حيث لا علامة، ووجوده لا يكشف عن خير، وأكثر العلماء على أن الحلال: ما جُهل أصلُه. فالحمد لله الذي جعل في الأمر سعة.

---

(١) هو عمر بن على بن سالم اللخمى المالكى الشهير بتاج الدين الفاكهانى من فضلاء المالكية توفي سنة ٧٣٤هـ. انظر ترجمته في «الديباج المذهب» لابن فرحون(٢/ ٨٠).

وقد أشار هنا لطرف من ذلك فقال رحمه الله:

(١٤٧) فَإِنْ أَتَى شَيْءٌ بِلا تَكْلِيفِ ابْتَدَءوا بِالجَارِ وَالضَّعِيفِ

(١٤٨) وَجَنَّبُوا طَعَامَ أَهْلِ الظُّلْمِ وَالبَغْيِ وَالفَسَادِ خَوفَ الإِثْمِ

(١٤٩) بَلْ أَكَلُوا مِمَّا اسْتَبَانُوا حِلَّهُ غَيْرَ الذي لا يَعْرِفُونَ أَصْلَهُ

قلت: يعني أن ما يُفتح عليهم به دون تكلف وكان فاضلًا عنهم سواء حصلوه عن سبب أو عن غير سبب قدموا في تصرفه الأهم فالأهم لحديث «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»(١) قال رجل يا رسول الله: عندي دينار، قال: أنفقه على نفسك. فإن عندي آخر؟ قال: أنفقه على عيالك، قال عندي آخر؟: قال صل به ذوي رحمك، قال: عندي آخر؟ قال: اصنع به ما شئت»(٢) الحديث.

وقوله (ابْتَدَءوا بِالجَارِ وَالضَّعِيفِ) وحق الجار معلوم من الدين فيؤثرونه على غيره بعد المراتب المذكورة، ويؤثرون من الجيران أحوجهم، فإن استووا فأقربهم إليك بابًا، وإن كان هناك ضعيف لا جوار له والجيران أغنياء قدموه لأن سد الخلل مقدم على الإبرار والإخوة مقدمة على مراتبها، هذا كله في الفضلة والإيثار لا في باب الإضرار.

فإن الإضرار: هو أن يعطي ما إذا أعطاه هلك أو اختلت بقيته أو ضعف عن العبادة وذلك ممنوع. والإيثار: ما يحتاج إلى الصبر عند إعطائه من غير اختلال بقوته ولا ضرر فادح يدركه. والتفضيل: ما لا يلحقه معه شيء من ذلك، فافهم.

(١) قال عنه الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» «لم أره هكذا بل في الصّحيحين من حديث أبي هريرة ﷺأفضل الصّدقة ما كان عن ظهر غنًى واليد العليا خيرٌ من اليد السّفلى وابدأ بمن تعول».

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٢٣٢٧)، وأبو داود (١٦٩١)، وأحمد في المسند (٧٤١٩).

فأما تجنبهم لطعام الظَّلَمة ونحوهم، فلوجوه:

أحدها: ما في إرضائهم من الموالاة والتي لا تحل مع ما هم عليه من الظلم ما لم يخش الضرر الواضح.

الثاني: ما فيه من إغرائهم على المتسببين إما بسوء الظن بالجهل لاعتقادهم حرمة ما بأيديهم وأن من يأكله لا خلاق[1] له فيستهينون بهذا الشخص بل بكل جنسه لأجل ذلك وإما بجعله حجة على غيره مما لا يقدر أن يتوسع توسعه لورع أو ضيق حضيرة[2] فيؤذى لذلك.

الثالث: ما فيه من إعانتهم على ما هم به إذ يرون أنفسهم من أهل الخير ويقولون: نحن كذا، ونحن كذا، ولو رأى فينا فلان ما يكره ما أكل طعامنا. إلى غير ذلك لاسيما إن وجد لهم وجهًا في إباحة ذلك أو تجرأ على الله بنسبتهم إلى أهل الله من أجل ذلك كما يفعله بعض من وهن الإيمان في قلبه والعياذ بالله.

الرابع: ما في ذلك من ميل النفس لهم ومحبتهم فقد قال عليه السلام: «اللهم لا تجعل لمنافق علي يدًا فتحبه نفسي»[3].

وحكى أبو نعيم في «حليته» أن ابن المبارك دخل على الخليفة فوعظه، وذكره فأعطاه مالاً فاشترى به عبيدًا وأعتقهم فقال له محمد بن واسع في ذلك، فقال: ذكَّرْتُهم

---

(١) رجل ليس له خلاق أي حظ من الخير. انظر: (أساس البلاغة/ خ ل ل).

(٢) والحَضِيرَةُ: الجَماعَةُ. انظر: (المحيط في اللغة/ ضَبَنَ).

(٣) أوره الغزالي في الإحياء بلفظ «اللهم لا تجعل لكافر علي يدا فيحبه قلبي» وعزاه الحافظ العراقي لأبي منصور الديلمي في «مسند الفردوس» وابن مردوية في التفسير من رواية كثير بن عطية .

بالله ووعظتُهم وأخذتُ منهم من مال الله وصرفتُه في وجهه، فقال له محمد بن واسع: الله !قلبك الآن لهم كما كان قبل ذلك؟ قال: لا. ثم استغفر. رضي الله عنهما بمنه.

الخامس: ما في ذلك من تناول الشبهة لغير ضرورة، وقد قال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ: من كان من فقراء هذا الزمان مؤثرًا للسماع أو أكولًا لأموال الظلمة ففيه نزغة يهودية. قال الله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ (المائدة: ٤٢) انتهى باختصار.

السادس: ما يلحقه بسبب ذلك من الزلة وتغير الحال كما اتفق لكثير من الناس واتخذه بعضهم سياسة، فإذا رأوا الفقير مستظهرًا عليهم بالقوة وخافوا منه دعوة أو غيرها وقَّروه وأحسنوا إليه حتى يدخل في جملتهم ولا يمكنه التعزز عليهم.

وقد كان بعض مشايخ المغرب يقول: الفقير لا يمشي بالليل ولا يهرب بالنهار إن رأى ما يخاف ولا يأكل طعام الظلمة. قلت: لأن هذه كلها تورثه الذل.

السابع: ما في ذلك من قبح باب التشويش باعتقاد الناس أن له عندهم جاهًا فيتوجهون له بطلب الشفاعة، وذلك أمر لا يمكنه استيفاؤه وقلما يتعلَّق به رجل فسلم في ديانته، والله أعلم.

هذا كله ما لم تكن ضرورة أو تلجئ حاجة فالمرء فقيه نفسه.

وقد حدثنا الشيخ أبو عبد الله القوري رحمه الله ورضي عنه بما بلغه أن السلطان أبا الحسن صنع طعامًا لجماعة من أهل الخير في وقته ودعاهم له فكان منهم من أكل ولم يتوقف، ومنهم من استظهر بالصوم، ومنهم من أخرج خبزه وأيدم بإدام الملك، ومنهم

من أكل وقلل، ومنهم من قال: أنا صائم ولكن هاتوا من طعام الأسير على وجه البركة. فسألهم الشيخ عن ذلك؟

فقال الأول: طعام مستهلك قد ثبتت القيمة في ذمة مستهلكه بمجرد التصرف فيه، وقد مكنني منه عن طيب نفسه فبأي وجه أتركه؟

وقال الثاني: تجنبت محل الشبهة بجميع وجوهه.

وقال الثالث: عملت على القول بإباحة القِلَّة للغاصب.

وقال الرابع: هو مال مجهول الأرباب يجب فيه التصرف بالقيمة فكنت تأخذ وتقدر.

وقال الخامس: طعام مستحق للمساكين قدرت على استخلاص بعضه فاستخلصت ما قدرت عليه، وخرجت به لأربابه، فمما ذكر عنه أنه غسل مزوده بما تعلق بها من الإدام وشق عليه إخراج ما تعلق بها من الزعفران، فأرسلها مع النهر لغلبة الحال في كراهتها عليه.

ومن هذا النوع ما يذكر أن ابن عباد رحمه الله أعطاه السلطان كسوة وأعطى الشيخ الركراكي كسوة، وأخبرهما أنه إنما عملها من الجزية، فقبلها ابن عباد وردَّهَا الركراكي رضي الله عنهما، فقيل لبعض أهل الوقت ممن له بصيرة فقال: الورع مستحب بإجماع، وجبر قلب الملك واجب بإجماع، وأنتم ترون من وافق الصواب المتعلق بالواجب أو بالمستحب.

ثم قال: أرأيتم لو أخذناه بالردّ ثم جاءه أمر من المسلمين فلا يرده على خلاف

الصواب لذلك، في ذمة من يكون هذا ما وقع في الأمر الظاهر؟ ولما بعث له بدواء ممسك لعلة كانت به صبَّه في المرحاض ولم ينتفع به، فاعرف هذه الجملة، وانظر بدقيق النظر؛ فللرد آفةٌ كما للأخذ.

وآفات الأخذ لا تحصى، والوَرِعُ من ورعه الله، وإنما يورعه إذا علم صدقه في ورعه، فَمَا صَدَقَ أحدٌ في شيء إلا أُعينَ عليه، وبالله التوفيق.

واستيفاء بعض أحكام الحلال والحرام في كتابه من الإحياء، فعليك به.

ورأيت بخط شيخنا أبي عبد الله القوري رحمه الله عن بعض الصالحين أنه سأل بعض المشارقة هل للمالكية كتاب في الحلال والحرام فقال لا إلا ما للفقيه راشد[1] وتبع فيه أصول الغزالي وأكثرها لا يسلم له أو يسلم له. انتهى.

ولما فرغ المؤلف رحمه الله من التنبيه على أدبهم في الكسب توجه لأدبهم في التناول فقال:

(١٥٠) وَلَمْ يَكُونُوا كَرَّهُوا الكَلامَ عَلَيهِ لَكِنْ كَرَّهُوا الإِرْغَامَ

قلت: يعني أن القوم لا يكرهون الكلام على الطعام لأن السنة جاءت باستحبابه من غير إكثار ولا خروج عن الحق؛ لما فيه من الإيناس والاشتغال عن الشعور بمقدار المأكول في حق الغير وكثرته. وقد ذكر عن بعض المشايخ أنه استحب أن يسمي الله عند كل لقمة ويحمد عند ابتلاعها.

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن راشد القفصي صاحب كتاب «المذهب في ضبط مسائل المذهب» المتوفى سنة٧٣٦هـ..

قال ابن الحاج: وهذا أمر حسن ولكن السنة لم ترد به وهي أحسن من كل شيء سواها. أو كلامًا هذا معناه فذكرته لبعض الصالحين من أهل بلادنا. وقلت: إنه معارض لسنة التحدث على الطعام. فقال: يفعله إن أكل وحده. فقبلته، ثم بدا لي بعد أن مقاصد الشارع فيما يعم ويغلب التعميم، ولا يُعتبر الصور النادرة.وغالب الأمر: أكلُ الإنسان مع الناس بل السنة ذلك فكان المطلوب التسمية بكل حال سواء وجد المقصود أو تعذر كالقصر في السفر ونحوه، وانظر تحرير ذلك في القواعد، وبالله التوفيق.

وقوله: (**كَرَّهُوا الإِرْغَامَ**) يعني أنهم يكرهون التحتم على الإخوان في الأكل لأنه لا يخلو عن تكلف في الفرع والأصل. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أنا وأتقياء أمتي برآء من التكلف»[1] الحديث، لكن لكل شيء وجه واحد وسوقف، فقد صح للضيف جائزته يوم وليلة؛ يعني انتخاب الضيافة والقيام بوجوه الإكرام. وفي خبر: لكل داخل دهشة فابدءوا بالسلام ولكل طاعم وحشة فابدءوا باليمين وهذا فيه ما فيه من جهة الأمر باليمين للنهي عن الإكثار منها، وعدم التعرض لمواقف الحنث لها لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٤) فينبغي عوض ذلك التأكيدُ بالعزيمة قيامًا بحق الضعيف في الإكرام، وبحق الإيمان في عدم تعريضها للحنث والله أعلم.

ثم قال رحمه الله:

(١٥١) وَيَكْرَهُونَ الأَكْلَ مَرَّتَيْنِ فِي اليَوْمِ وَالمَرَّةَ فِي اليَوْمَيْنِ

قلت: يعني أنهم يكرهون تكرار الأكل في اليوم مرتين أي بياض النهار لأن ذلك

---

(١) سبق تخريجه.

يشغل الأعضاء ويبطئ الهضم ويفسد الطعام في المعدة، فيجمع الإسراف والإضرار والتثاقل عن العبادة، وشغل الفكرة بالإدخال والإخراج، وفي معنى ذلك يقول ابن سينا عفا الله عنه في وصية له: واجعل طعامك كل يوم مرة، واحذر طعامًا ما قبل هضم طعام.

وقال غيره في معنى ذلك مجموعًا إلى غيره من أسباب الأذى والضرر الطبيعي والإكمال مع فساد الطبيعة:

ثَلاثٌ هِيَ أَسْبَابُ المَنَايَا ... وَدَاعِيَةُ الجُسُومِ إلى الحِمَامِ
نِكَاحٌ مُسْتَدَامٌ وَكُثْرُ نَوْمٍ ... وَإِدْخَالُ الطَّعَامِ عَلَى الطَّعَامِ

وقيل لسهل بن عبد الله ﷺ: أكلةٌ في اليوم؟ قال: أكلة الصالحين. قال: وأكلتين؟ قال أكلة المؤمنين. فقيل: فثلاث؟ فقال: يا هذا، مُرْ أهلك يناولك معلاقًا. انتهى.

وهذا حكم من اعتدل مزاجه وقارب[1]، فأما من انحرف إلى حدّ الإفراط والتفريط فلا ينبغي أن يهمل حكمة الله في وجوده بل يعمل بما يصلحه من غير إخلال ولا تعد للحق، فإن الشبع المفرط الذي يفسد المعدة ويضيع الطعام من غير احتياج محرم، والذي يثقل الأعضاء ولا يفسد شيئًا مكروه على خلاف فيه، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

والأولى في الشخص ألا يأكل حتى يجوع جوعًا متوسطًا؛ وهو الذي يشتهي معه فأدة[2] من معتاد طعامه؛ ولا يفرط إلى أن يشتهي كل خبز فإنه مضر بالفكرة، مخل بالقوة، ولا يفرط حتى يأكل بالتشهي وهو طلب الطعام مقرونًا بالشهوات.

(١) في (ب): أو قارب.

(٢) الخبز، انظر: الوسيط ج٢/ ط٣..

ويرحم الله صاحب البردة حيث يقول:

وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ   فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌ مِنَ التُّخَمِ

قلت: من آداب الطعام: كثرة الأيدي عليه فإنها معها البركة وبها يحصل الأنس في التناول، وهذا ما نبه عليه المؤلف رحمه الله إذ قال:

(١٥٢) وَفَضَّلُوا الجَمْعَ عَلَى الإِفْرَادِ   فِيهِ لأَجْلِ كَثْرَةِ الأَيَادِ

قلت: يعني أنهم استحبوا الاجتماع على الطعام لما قدمناه آنفًا، ولأن أكل الإنسان وحده يعلم النذالة والبخل، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا: «شر الناس من أكل وحده وضرب عبده ومنع رفده»[1]. وكان عليه السلام: لا يأكل طعامًا إلا على ضعف، يعني كثرة الأيادي. وكان للخليل عليه السلام قبة، ينظر مدَّ بصره من كل ناحية لأجل الضيفان، وربما روي أنه كان يمشي الأميال في طلب من يأكل معه، نقلت هذه الحكاية بالمعنى فانظرها، وبالله التوفيق.

ومن آداب القوم في الأكل: ألا يلقم بعضهم لبعض، ولا يجيل بصره في أصحابه كما نبه عليه المؤلف رحمه الله إذ قال:

(١٥٣) وَلَمْ يُلَقِّمْ بَعْضُهُم لِبَعْضِ   وَلَمْ يُجِلْ بَصَرَهْ بَلْ يُغْضِ

قلت: يعني لا يلقم لبعض على جهة الإكرام لأنه إن كان في أول الطعام أحشمه عن الانبساط فيه؛ لإشعاره برؤيته، وأضر بنفسه في الأكل معه؛ لاشتغاله بمناولته إما بعد الاستيفاء إن قام مع الناس أو بالإخلال بالمروءة إن تأخر عنهم، وإن كان في آخر

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٣/ ٢٢)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٨١٢).

الطعام فهو مضرٌّ بصاحبه إن كان للغير أو تصرف بغير حق لاسيما على القول بأن الضيف لا يملك إلا ما يتناول بقدر الحاجة وهو الصحيح عند أهل مذهب مالك رحمه الله عليه، فيكون تصرفه في الزائد ممنوعًا.

فأما من قال: يملكه[1] بوضعه بين يديه، فلا يجري فيه ذلك، ومن اعتبر العرف وشواهد الأحوال يجيز ما تسمح به النفوس غالبًا ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والوجوه وهو الذي جرى عليه الناس اليوم وإن كان في وسط الطعام فهو أيضًا تنبيه على الإقلاع، وربما كان ذلك مضرًّا به وهو جائع ومنبهًا للغير على ما جرى منه من انقباض أو انبساط لائق به، وقد لا يليق بغيره فيخجله أو يخجل غيره.

فأما تلقيم الخادم لتطييب نفسه فقد وردت السنة بطلبه إذ قد عم قوله عليه السلام: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين فإنه ولي حَرِّه وعلاجه»[2] الحديث. وأما مناولة اللقمة على وجه التبرك بالأثر فللمتأخرين من المشايخ فيه أسانيد وطرق معروفة.

وقد يستدل لهم بحديث المرأة التي سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا أن يناولها مما يأكل فناولها مما بين يديه فقالت: لا أريد إلا من الذي في فيك فناولها»[3] الحديث. وهذا على أصل من يرى التبرك بالإيثار من غيره عليه السلام وهو أصل مضطرب الأدلة كما حررناه في غير هذا الموضع، والله أعلم.

(١) في (ب): إنه يملكه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٥٧)، ومسلم (١٦٦٣).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير عن أبي امامة برقم (٧٩٠٣)..

فأما «إجالة البصر في الحضور» ففيه من إخجالهم واشتغالهم وقلة المروءة معهم ما لا خفاء به، والمطلوب من الإنسان في حال الجمع وجودُ الاحتشام والتوقر، فاعرف ذلك وانظر كتب الأدب تجده مستوفى إن شاء الله، وبالله التوفيق.

ومن آدابهم في الأكل: يقدم للحاضرين ولا يُنْظر الغائب كما نبه عليه المؤلف رحمه الله حيث قال:

(١٥٤) وَلَمْ يَـرَوا فِيـهِ بالانْتِظَـار فَيَذْهَـبُ الوَقْـتُ بِـلا تَـذْكَار

قلت: يعني أنهم لا ينتظرون الغائب من إخوانهم بالطعام عند حضوره لما في ذلك من التكلف وإهانة الطعام بابتذاله وشغل بال الجائع منهم به لاسيما وهم لا يأكلون، إلا عند احتياج، ولأن الحاضر مقدم في كل أمر يتعلق حقه به.

وقوله (فَيَذْهَبُ الوَقْتُ بلا تَذْكَار) أشار به إلى أن القوم أهل جد، وأوقات المباحات عندهم أوقات ضرورة فلا يصح منهم التوسع فيها لأن ذلك يفوتهم ما هم فيه من الجد و[نحوه][1]، والله أعلم.

ثم قال رحمه الله:

(١٥٥) وَكَرِّهُـوا البِطْنَـةَ للإخْـوانِ فَالبَطْـنُ كالوِعَـاءِ للشَّـيطَانِ

قلت: يعني أنهم يكرهون التوسع في الأكل إلى حد يتجاوز الشبع المعتاد إلى ما فوقه وإن كان لا يضر بالمعدة ولا يفسد الطعام لأنه يثقل عن العبادة. وقد قال لقمان

(١) وردت في الأصلين «ضده» ولا معنى له.

عليه السلام لابنه: إذا مُلِئَ البطن نامت الفطنة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة. وفي الخبر قال عليه الصلاة والسلام: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه حسب المؤمن أكلات يقمن صلبه فإن كان ولابد فثلث للطعام وثلث للماء وثلث للنفس»[١] الحديث. وفي حديث آخر: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مسالكه بالجوع»[٢].

ويقال: إن البطن إذا شبع جاع سائر الجسد، وإذا جاع شبع سائر الجسد. بمعنى أنه إذا جاع سكن كلُّ عضو عن الفضول، وإذا شبع تحرك كل عضو لطلب الفضول. وقال بعض السادات: من كانت همته بطنه كانت قيمته ما يخرج منها. وأفضل الأحوال أن ترجع يدك من الطعام وأنت تشتهيه؛ بمعنى أنك لا تمله ولا تستثقل أكله ولا لَوْكَه ولا غير ذلك، فإن تغير طعمه في فيك أو احتجت فيه إلى وجود مُسَوِغٍ فقد جاوزت الحدَّ منه.

وقال سفيان ﷺ: كُلْ ما شئت ولا تشرب. وأجمع رأي جماعة من أهل الولاية على أن كثرة النوم من كثرة شرب الماء. وما ورد في حديث أبي هريرة ﷺ من قوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا: «والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلكا»[٣] حمله بعضهم على

(١) أخرجه الترمذي في الجامع (٢٣٨٠)، وأحمد في المسند (١٧١٨٦) واللفظ له ، والنسائي في السنن (٦٧٣٧).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) جزء من حديث طويل رواه خلق كثيرون ، أخرجه البخاري (٦٤٥٢) وهذا نصه «أنّ أبا هريرة، كان يقول: والله الّذي لا إله إلّا هو، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشدّ الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يومًا على طريقهم الّذي يخرجون منه، فمرّ أبو بكرٍ، فسألته عن آيةٍ من كتاب الله،

إطلاقه الظاهر فأجاز الشبع، وحمله آخرون على معتاده وأنه لا يجد له مسلكًا في معتاده فكره ما زاد عليها، وعليهما الخلاف في التجشؤ: هل هو مقتض للحمد من حيث إن الشبع نعمة مباحة، أو مقتض للاستغفار لأنه نشأ عن ممنوع؟

وقد يعتبر ذلك بالأحوال كما قال بعضهم: نأكل أكل الجمال ونصبر صبر الجبال. فقد روي أن عمر ﷺ أكل صاعين من التمر بمشقة في مجلس واحد وكان قوته في كل جمعة صاعين، فدَلّ ذلك على اختلاف الأمر باختلاف الأحوال.

ما سألته إلّا ليشبعني، فمرّ ولم يفعل، ثمّ مرّ بي عمر، فسألته عن آيةٍ من كتاب اللهّ، ما سألته إلّا ليشبعني، فمرّ فلم يفعل، ثمّ مرّ بي أبو القاسم ﷺ، فتبسّم حين رآني، وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثمّ قال: «يا أبا هرٍّ» قلت: لبّيك يا رسول اللهّ، قال: «الحق» ومضى فتبعته، فدخل، فاستأذن، فأذن لي، فدخل، فوجد لبنًا في قدحٍ، فقال: «من أين هذا اللّبن؟» قالوا: أهداه لك فلانٌ أو فلانة، قال: «أبا هرٍّ» قلت: لبّيك يا رسول اللهّ، قال: «الحق إلى أهل الصّفّة فادعهم لي» قال: وأهل الصّفّة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهلٍ ولا مالٍ ولا على أحدٍ، إذا أتته صدقةٌ بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هديّةٌ أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك، فقلت: وما هذا اللّبن في أهل الصّفّة، كنت أحقّ أنا أن أصيب من هذا اللّبن شربةً أتقوّى بها، فإذا جاء أمرني، فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللّبن، ولم يكن من طاعة اللهّ وطاعة رسوله ﷺ بدٌّ، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا، فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: «يا أبا هرٍّ» قلت: لبّيك يا رسول اللهّ، قال: «خذ فأعطهم» قال: فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرّجل فيشرب حتّى يروى، ثمّ يردّ عليّ القدح، فأعطيه الرّجل فيشرب حتّى يروى، ثمّ يردّ عليّ القدح فيشرب حتّى يروى، ثمّ يردّ عليّ القدح، حتّى انتهيت إلى النّبيّ ﷺ وقد روي القوم كلّهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إليّ فتبسّم، فقال: «أبا هرٍّ» قلت: لبّيك يا رسول اللهّ، قال: «بقيت أنا وأنت» قلت: صدقت يا رسول اللهّ، قال: «اقعد فاشرب» فقعدت فشربت، فقال: «اشرب» فشربت، فما زال يقول: «اشرب» حتّى قلت: لا والّذي بعثك بالحقّ، ما أجد له مسلكًا، قال: «فأرني» فأعطيته القدح، فحمد اللهّ وسمّى وشرب الفضلة»، وأخرجه الترمذي أيضا برقم (٢٤٧٧).

وذكر القاضي أبو بكر ابن العربي ﷺ أن أعدل الغذاء أربعٌ وعشرون أوقية في اليوم والليلة يقسمها على ثلاثين لقمة، وسواء أكلها في مرة أو مرات، والله أعلم، ثم قال المؤلف رحمه الله:

(١٥٦) قَالُوا ولا يُمْسِكْ يدًا مَادامُوا ... فِي الأَكْلِ، وَلْيَقُمْ مَتَى مَا قَامُوا

قلت: وذلك لأن إمساك يده وهم يأكلون لاسيما في أثناء الأكل منفر لهم عن الاسترسال، أو مخجل لهم، أو موجب لإمساكهم. وربما كان فيهم محتاجٌ فيتضرر بإمساكه إن أمسك أو بالاستخفاف به إن استرسل أو بخجلته إن لم يكن هناك من يستخف به. ولا ينبغي إذا قام الناس أن يبقى بعدهم لأن ذلك هجنة له ونذالة في حقه وإن كان محتاجًا، إلا في محل لا يدركه شيء من ذلك. وينبغي لكبير القوم أن يراعي ضعيفهم فلا يرفع يده حتى يحس باكتفائه.

قالوا: ومن السنة الجهر بالتسمية لأنها إغراء على الطعام وإخفاء الحمدلة لأنها إشعار بالختام؛ فإذا جهر بها كان تنبيهًا للحاضرين على الختم وربما أضرَّ بهم بأحد الوجوه المتقدمة.

وينبغي أن يراعي في كل موقف ما يليق به؛ فطعام الفقراء يأخذ منه على قدر حاجته سواء قلت أو كثرت، وطعام المتفقهة يأخذ منه بمقدار لا يخل بمروءته ولا يقدح عندهم في ديانته لأنه إن قلل قالوا مراءٍ متصنع وإن كثر قالوا نَهم متوسع.

ومن راءى في أكله فقد ستر نفسه، كذا قال بعض المشايخ لمن رآه يأكل أكلًا عنيفًا فنهاه فقال الآكل: من راءى في الأكل فقد راءى في دينه. وطعام العامة من المحبين

والمتسببين يؤخذ منه على قدر شاهد الحال. وقد كان حمدون القصار[1] إذا دُعي هو وأصحابه إلى دعوة أشبعهم قبل الإجابة ليتناولوا بالعز[2]، وكان الشيخ أبو مدين ﷺ: يفعل ذلك ويغديهم عنده بأطيب الطعام.

ومن آدابهم في الطعام: السخاء به والتوسط في تناوله والإيثار في وجوده والرفق بالحاضرين فيه، وذلك ما بينه إذا قال ﷺ:

(١٥٧) وَأَمَـرُوا فِيـهِ بِفَتْـحِ البَـابِ وَأَكَلُـوا بالقَصْـدِ والآدَابِ
(١٥٨) وَفَتَحُـوا البَـابَ لِـكُلِّ سَـارِ وأَكَلُـوا بالرِفْـقِ والإِيثَـارِ

قلت: يعني أنهم يفتحون الباب عند مناولة الطعام بحيث إنهم لا يدفعون من يأتيهم بل يقبلونه ويفرحون به، وربما رأوا له المِنَّة عليهم في أكله معهم بل يعتقدون أنه هدية من الله تعالى لهم لاسيما إن كان من إخوانهم أو من ذوي الفاقات لقوله عليه الصلاة والسلام: «السائل على باب أحدكم هدية من الله تعالى»[3] أو كما قال.

وسمعت شيخنا أبا عبد الله القوري ﷺ يقول: رأيت بعض العلماء قال: أنه يجب على الإنسان إذا وقف السائل وهو يأكل أن يناوله، فقلت: يجب؟ قال: نعم..

(١) هو الشيخ العارف الملامتي أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصّار النيسابوري،صحب أبا تراب النخشبي وأبا حفص النيسابوري، من أقواله ﷺ:«استعانة المخلوق بالمخلوق كاستعانة المسجون بالمسجون»، توفي ﷺ سنة ٢٧١هـ.أنظر ترجمته «الرسالة القشيرية»(١/ ٧٦).

(٢) أي ليأكلوه بتعفف، ولأجل إجابة الدعوة لأنهم قد شبعوا في الأصل.

(٣) لم أجده بلفظه لكن أخرج القضاعي في مسند الشهاب (١٤٩) عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «هدية الله إلى المؤمن السائل على بابه».

مثل الصلاة. فاستغربته وسألت عنه جماعةً من علماء المشرق والمغرب فلم يعرفه أحد، واستدل له بأن عائشة رضي الله عنها أعطته حبة عنب وذكرت حديث: «ردوا السائل ولو بشق تمرة»(١). وفي الاستدلال به للوجوب نظر.

و«**الأكل بالقصد**» وهو التوسط يكون في الصفة، والمقدار المخرَّج، والقدر المتناول؛ لأن إبقاء الجوع مضر، والخروج لحد الشبع مكروه، وكلٌّ منهما مضر، فخير الأمور الوسط إذ لا ضرر فيه. وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ (الإسراء: ٢٩) الآية. وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ (الفرقان: ٦٧) الآية. وقال عليه السلام: «ما عال من اقتصد»(٢) وقال ﷺ: «ثلاث منجيات فذكر منها القصد في الغناء والفقر»(٣).

وقال وهب بن منبه رضي الله عنه: من لم يقتصد في معيشته مات قبل أجله، يعني أنه يذهب تصرفه على وجه الاختيار لفقره آخرًا أو لبخله أولًا فاعرف ذلك.

والآداب المشار إليها في كلام المؤلف هي آداب الأكل المذكورة عند العلماء الخارجة عن المقدار والصفة ونحوها مثل الأكل باليمين بدلًا من اليسار، إلا أن يكون

---

(١) لم أجده بلفظه لكن أخرج النسائي في سننه برقم (٢٥٦٥) عن ابن بُجَيدٍ الأنصاريّ، عن جدّته، أنّ رسُول الله ﷺ قال: «رُدُّوا السّائل ولوْ بِظِلْفٍ - فِي حَدِيثِ هَارُونَ - مُحْرَقٍ» وأيضا برقم (٢٥٧٤) عن عبد الرحمن بن بجيد، عن جدته أم بجيد - وكانت ممن بايعت رسول الله ﷺ - أنها قالت لرسول الله ﷺ: إن المسكين ليقوم على بابي فما أجد له شيئًا أعطيه إياه، فقال لها رسول الله ﷺ: «إن لم تجدي شيئًا تعطينه إياه، إلا ظلفًا محرقًا، فادفعيه إليه» وأخرجه أحمد في المسند (٢٣٢٣٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند(٤٢٦٩)، والطبراني في الكبير (١٠١١٨)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٦٦٠٤).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٢٥٢)، والطبراني في الأوسط (٥٤٥٢)، والقضاعي في مسند الشهاب

في هذه طعام وفي هذه إدام كما وقع لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه إذ كان في إحدى يديه خبز وفي الأخرى شواء، وكالأكل مما يليه إلا أن يكون مع أهله وولده وحيث يباح له الجولان، وعدم الْقِرَانِ[1] مثلًا في التمر إلا أن يكون مع قوم أطعمهم إلى غير ذلك.

و(**الرِّفْقِ**) المذكور، وهو التأني في الأكل بحيث يصغر اللقم، ويكثر المضغ، ويلوك الطعام إلى أن ينعمه، والله أعلم. و(**الإِيثَار**) بذلُ ما تمس الحاجة إليه دون ضرر لاحق في الحال ولا في المال، فإن بذلَ المضر بذلُ إضرار، وقد مرَّ الكلام في ذلك، وبالله التوفيق.

۞۞۞

(١) أي: لا يقرن بين تمرتين. وفي الحديث« في أكل التمر لا قران ولا تفتيش ». انظر (أساس البلاغة / ق ر و).

الخامس: فيما يلزمهم من الآداب عند الاجتماع

قلت: وحاصل هذه الترجمة، الكلام في آداب المعاشرة وهي ثلاثة: صدق الوداد، وبذل النصيحة، واستعمال الخلق الجميل، وذلك يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال ويتوجه بقدر التوجهات والمنازل، فافهم ثم قال رحمه الله:

(١٥٩) وَللطَّرِيقِ ظَاهِرٌ وَبَاطِنْ   يُعْرَفُ مِنْهُ صِحَّةُ البَوَاطِنِ
(١٦٠) ظَاهِرُهُ الآدَابُ والأَخْلَاقُ   مَعَ كُلِّ خَلْقٍ مَا لَهُ خَلَاقُ
(١٦١) بَاطِنُهُ مَنَازِلُ الأَحْوَالِ   مَعَ المَقَامَاتِ لِذِي الجَلَالِ

قلت: يعني أن طريق القوم محتوٍ على ظاهر وباطن، وأنَّ كلًّا منهما تعرف به حقيقة ما تحقق به صاحبه في باطنه؛ إذ ما استودع في غيب السرائر ظهر في[1] شهادة الظواهر كما قاله ابن عطاء الله في حكمه.

و(الآدَابُ) عبارة عن جهد جميل الخلال في التصرف بالوجوه المكتسبة. و(الأَخْلَاقُ) عبارة عن الأوصاف الثابتة للعبد الجارية منه في معاملته الخلق، وعبَّر عنه الغزالي بمِلْك النفس عند الشهوة والغضب وعليه مداره، ومظهر ذلك بأن تعامِل الخلق بما تحب أن تعامَل به أو أوفى.

وقوله: (مَعَ كُلِّ خَلْقٍ مَا لَهُ خَلَاقُ) يحتمل أن يريد مع كل الخَلْق[2] وهو بعيد، ويحتمل أن يريد مع من لا عبرة به من الخلق لأن التأدب والتخلق لذوي المراتب

(١) ساقطة في (أ) مثبتة من (ب)

(٢) في هذا الموضع: (أي لا خلاق لهم) وهي عبارة غير مفهومة في مكانها واالسياق بدونها أكثر استقامة، كما أنها غير موجودة في (ب).

الدينية أو الدنيوية وذوي الإحسان أمر جبلت عليه النفوس بخلاف غيرهم. وأيضًا فالتخلق والتأدب مع من لا يعتبر يتضمن المعتبر ضرورة، ومرجع ذلك لقوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩). قال ﷺ حين نزلت: «أمرني ربي أن أصل من قطعني، وأعطي من حرمني وأعفو عن من ظلمني»[(١)] الحديث.

قالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويغضب لغضبه»[(٢)] وذكرت الآية المتقدمة. ومدار ذلك على أربع: كف الأذى، وحمل الأذى، وبذل الندى، والإنصاف من النفس فيما ظهر عليها وبدا.

وقوله (**بَاطِنُهُ مَنَازِلُ الأَحْوَال.. إلخ**) إنما كانت هذه باطنه لأنها أمور لا يطلع عليها إلا الله تعالى بخلاف الأول فإن لها غرضًا في الخارج. والمقام عمل بموجبه حتى تمكن في النفس بالرياضة وإعمال الفكر ونحو ذلك. و(**الأَحْوَال**) ما حل[(٣)] بالقلب من حقائق المعارف ثم ارتحل. وكل منهما لا عبرة به ما لم يثمر أدبًا أو يثمر خلقًا جميلًا.

قال في «الحكم»[(٤)]: لا تزكين واردًا لا تعرف ثمرته فليس المراد من السحابة الأمطار وإنما المراد منها وجود الإثمار. فافهم هذا حقه.

---

(١) حديث مرفوع، أخرجه ابن الأثير في «جامع الأصول» (٩٣١٧)، والخطيب التبريزي في «مشكاة المصابيح» (٥٣٥٨).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في ب: ما جال.

(٤) «الحكم العطائية»، الحكمة رقم (١٩٤).

ثم قال المؤلف رحمه الله:

(١٦٢) وَالأَدَبُ الظَّاهِرِ للعَيَانِ دَلالَةُ البَاطِنِ فِي الإِنْسَانِ
(١٦٣) وَهْوَ أَيضًا للفَقِيرِ سَنَدُ وللغَنِيِّ زِينَةٌ وسُؤْدَدُ
(١٦٤) وَقِيلَ مَنْ يُحْرَمُ سُلْطَانَ الأَدَب فَهْوَ بَعِيدٌ مَا تَدَانَى واقْتَرَب
(١٦٥) وَقِيلَ مَنْ تَحْبِسُهُ الأَنْسَابُ فَإِنَّمَا تُطْلِقُهُ الآدَابُ

قلت: أشار بالبيت الأول لحكاية الجنيد لما دخل على أبي حفص[1] بنيسابور فقال: أدبت أصحابك آداب الملوك؟ قال: لا يا أبا القاسم ولكن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن.

ومراده بـ(الفَقِير): من لا شيء له، وكون الأدب سنده واضح؛ فإنَّ النفوس تأنف من الفقر وأهله وتألف الفضائل النفسانية فإذا وجدتها لم تبال بغيرها، وجامعها الظهور بالأدب وحسن الخلق، وكونه زينة للغني ظاهر لأن الغنى محبوب بالطباع فإذا كان أديبًا زاده ذلك محبة وهو مهاب، فإذا كان أديبًا زاده الأدب هيبة، فإذا حضر شُوورَ وإذا غاب انْتُظِرَ.

وإذا كان ينكر الأدبَ لفظتَه نفوسُ الفضلاء لكونها موقوفة على الفضائل، ولم يتعلق به سوى الأنذال والأرذال، وكفاه نقصًا حب الأشرار له. وقد قيل: خير ما أعطي الإنسان عقل يزجره، فإن لم يكن فحياء يمنعه، فإن لم يكن فمال يستره، فإن لم يكن

(١) هو الشيخ العارف أبو حفص عمرو بن مسلَمة الحداد النيسابوري، كان من أكابر أهل وقته، صحب أحمد بن خضرويه، وأخذ عنه أبو عثمان الحيري، وأبو جعفر بن حمدان، وحمدون القصار، توفي رحمه الله سنة ٢٦٤هـ أنظر ترجمته «الرسالة القشيرية» (١/ ٧٦).

فصاعقة تحرقه، فتريح منه البلاد والعباد.

وقوله: (**وَقِيلَ مَنْ يُحْرَمُ سُلْطَانَ الأَدَب.. إلخ**) سمى الأدب سلطانًا لكونه حاكمًا على الشخص في نفسه من الجنوح للنقائص وعلى غيره من استنقاصه.

وأشار بذلك لقول أبي حفص ﷺ: التصوف كله أدب؛ لكل وقت أدب، ولكل حال أدب، ولكل مقام أدب، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يظن القبول.

قال في «الحكم»: من جَهْلِ المريدِ أن يسيءَ الأدبَ فتؤخر العقوبة فيقول لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد وأوجب الإبعاد، فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر، ولو لم يكن إلا منع المزيد، وقد تقام مقام البعد من حيث لا تدري، ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد. انتهى.

فأما قوله: (**مَنْ تَحْبِسُهُ الأَنْسَابُ..إلخ**) فواضح ومراده أن الناس أبناء أخلاقهم وآدابهم. فمن كان ضعيف النفس قليل الحسب بلغ رتبة ذوي الأحساب بأخلاقه وآدابه، قيل لبعض الملوك في بعض الكُتَّاب[1]: إنه ليس بحسيب. فكلمه الملك في ذلك فقال: أنا حَسَبٌ لأولادي وفي معناه قيل:

كُـنْ حَلِيـمًا وَاجْمَـعِ الحِلْـمَ عِلْـمًا   كُنْ حَكِيمًا وَدَعْ «كُنْ ابـنَ مَـنْ كَانَ»
لا تَكُـنْ سُـكَّرًا فَتَأْكُلُـك النَّـا   سُ لا وَلا حَنْظَـلًا تُـذَاقُ فَتُرْمَـى

رزقنا الله حسن الأدب معه ومع عباده كلًّا بما يليق به على الوجه اللائق به ظاهرًا وباطنًا آمين.

(١) أي عن أحد الكُتَّاب.

(١٦٦) وَالقَومُ بِالآدَابِ حقًّا سَادُوا ... مِنْهُ اسْتَفَادَ القَوْمُ مَا اسْتَفَادُوا

قلت معنى (سَادُوا) شرفوا؛ لأن السؤدد: هو الشرف الكامل الذي إذا حضر صاحبه شُوور وإذا غاب انْتُظِرَ، وإذا وجه عُظِّم، وإذا تكلم احترِمَ وإذا توجه أُكرِمَ، فأدبهم مع مولاهم بلّغهم السُّؤْدُد[1] على الوجود كله، وبأدبهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا بلغُوا السؤدد على[2] جميع الخلق، وبأدبهم مع أولياء الله فتحت لهم الكرامات، وبأدبهم مع نفوسهم نزلوا الأحوال والمقامات.

ومدار ذلك كله على حفظ الحرمة وعلو الهمة؛ فبالحرمة ارتفعوا وبعلو الهمة انتفعوا، إذ علو الهمة من الإيمان، وحفظ حرمة أولياء الله تعالى حفظ لحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا، وحفظ حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا حفظ لحرمة الله، وحفظ حرمة الله مفتاح لكل خير.

وكما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨) فعزة المؤمنين بالاتباع والأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا، وعزة رسول الله من عزة الله لأن بها يدل لله قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ (الفتح: ١٠)، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ (المائدة: ٥٦) فافهم.

وكل نسبة لا أدب فيها فصاحبها كاذب لأن عنوان الصدق وجود الموافقة، وإن كانت الفلتة مع حفظ الأصل غير قادحة.

---

(١) السُّؤْدُدُ، والسُّؤْدَدُ بضم الدال وفتحها كقُنْفُذ: السِّيادَةُ انظر القاموس المحيط مادة (سود)

(٢) ساقطة من (أ).

فقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: كل سوء أدب يثمر أدبًا فليس بإساءة أدب؛ يعني من حيث الواقع لا من حيث القصد، فتأمل ذلك وبالله التوفيق.

ثم ذكر المؤلف بعض تفاصيل الأدب فقال ؒ:

(١٦٧) إِذْ نَصَحُوا الأَحْـدَاثَ والأَصَاغِرْ وَحَفِظُـوا السَّـادَاتِ وَالأَكَابِـرْ

قلت: **(الأَحْدَاثَ)** جمع حَدَث، ومرادهم به: مَنْ لا ثَبَاتَ له وهم ثلاثة:

الحدث سنًّا: وهو الصغير الذي لم يميز حقائق الأمور وله ولوع بكل ما يراه أو يسمعه من مستحسن فلا تؤمن غائلته في الانقلاب، ثم للنفوس ولوع به من حيث الجمال الصوري أو من حيث التعلق الروحاني أو من حيث وجود الاستغراب والرحمة، وقد يكون ذلك من حيث لا يشعر به الشخص، وقد يكون من حيث شعوره بصحبتهم آفة حاضرة من حيث شغل البال بحفظه، ثم من حيث اشتغال النفس بالميل إليه، ثم من حيث كون العذر في النفوس بصحبته ولا خير فيها.

ولابد من نصحه عند إقباله: بتعريف الأصول، وتذكيره بترك الفضول، وتنبيههم على ما هم فيه من الأسباب والفضول.

ثم الحدث عقلًا: وهو الذي لايثبت على حقيقة ولا ينتهج طريقة؛ بل تارة تراه في الحوت وتارة تراه في البهموت يتبع كل ناعق ويتنسم كل ناشق، وهذا أعظم ضررًا من الذي قبله لفقدان الحقيقة منه وانتفاء قائلها عنه.

ونصحه: بتعريف الوجوه والحقائق وبيان الحق والبرهان، وقد يحتاج معه للتنبيه على بعض الطرق والأشخاص ووجه فساد ما هم عليه ليرجع أو يتوقف، وقلَّ ما يقبل

ذلك، وهذا النوع أكثر ما تجده في فقراء البوادي، ومن خالط علم القوم على حقيقة ينضبط بها قلبه، والله أعلم.

ثم **الحدث دينًا**: وهو الذي يكون مع كل قوم بما هم فيه، ونصحه بدعواه إفراد الوجوه، وتذكيره بما في ذلك من المضار. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا: «في كل واد من قلب ابن آدم شعبة فمن تتبع قلبه تلك الشعاب لم يبال الله في أي واد أهلكه»[1]. وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: ما سلم من النفاق عبد يعمل على الوفاق. انتهى.

وهذا النوع غالبه يوجد في أهل البلاد المشرقية؛ لغلبة الاصطلاح عليهم، وقل ما يدخل على من له حقيقة إلا من حيث التأويل وهو أمر يستدرك بالخلوة والانفراد، والله أعلم.

والمراد بـ(**الأَصَاغِر**) صغار السن الذين لم يبلغوا سن الحداثة والتمكن فيها، **ونصحهم**: بغرس الخير في قلوبهم كما قال في رسالة ابن أبي زيد: واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه، وأولى ما عنى به الناصحون ورغب في أجره الراغبون إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين؛ ليرسخ فيها... إلى آخر كلامه ﷺ.

وقد يريد بـ«**أصاغر القوم**» وهم أهل البدايات،

ونصحهم: بإلقاء الحق لهم، وتعريفهم التحقيق وتعريجهم على التحقق من غير

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٤١٦٦)، والقضاعي في مسند الشهاب (١١٤٥).

إلمام بالحقائق حتى تفيض عليهم من أنوار الحق؛ فإنَّ قلوب أهل البدايات تقبل كل نقش ثم لا يخرج منها إلى الأبد، وما سوى أصول علم العبودية إذا أخذه المريد من غيره تقيد به فمَنْعُ الفتح فيه بتوقفه معه، فافهم.

وقوله: (وَحَفِظُوا السَّادَاتِ) فهم أهل العبادة والزهادة والإرادة الذين لم يبلغوا مرتبة المشيخة، وكذا فضلاء أهل العلم الذين لم يصلوا إلى مرتبة الرد والقبول وحفظهم بإعطاء الرتبة حقها من كل وجه، فقد قال في «الحكم»: إذا رأيت عبدًا أقامه الله بوجود الأوراد وأدامه عليها مع طول الأمداد؛ فلا تستحقرن ما منحه مولاه، لأنك لم تر عليه سِيمَاءَ العارفين ولا بهجة المحبين؛ فلولا وارد ما كان ورد. قوم أقامهم الحق لخدمته وقوم اختصهم لمحبته ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: ٢٠). انتهى.

ويدخل فيه حتى طلبة العلم لأنهم حملة الشريعة والقائمين بتعريف أحكام الله؛ فهم عمال الله بل خزان الأسباب الموصلة إليه. وبالله التوفيق.

و(الأَكَابِر) هم المشايخ وحفظهم بثلاث: اتباع ما رسموه إن وافق الحق بأي وجه كان وعدم التعليل لما جاءوا به إلا من حيث الفهم والاحتكام، فإن من قال لأستاذه: لِمَ؟ لا يعلم أبدًا. وموالاة من والاهم، ومعاداة من عاداهم ما لم يكن له مانع شرعي أو يؤدي إلى منكر في الحال والمال.

وقد استوفى ذلك صاحب (١) «الأمر المحكم المربوط فيما يلزمُ الشيخَ والمريدَ من الشروط»، وذكر منه أبو حامد الغزالي جملة صالحة في «الإحياء» و«بداية الهداية» وهو

(١) هو الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي المتوفى سنة ٦٣٨هـ.

كافٍ لمن التزمه، وأفرد أبو عبد الرحمن لذلك جزءًا وبالله التوفيق.

ثم قال رحمه الله:

(١٦٨) وَاجْتَنَبُوا مَا يُؤْلِمُ القُلُوبَ وَابْتَدَرُوا الوَاجِبَ وَالمَنْدُوبَ
(١٦٩) وَخَدَمُوا الشُّيُوخَ وَالإِخْوانَ وَبَذَلُوا النُّفُوسَ وَالأَبْدَانَ

قلت: يعني أنهم عاملوا الخلق بأتم ما يعاملون به فلا يواجهونهم بما يكرهون ولا يذكرون فيهم ما لا يحبون لأن جبر القلوب في جبر القلوب وكسر القلوب في كسر القلوب ويرحم الله القائل[1]:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا وَدِينُكَ سَالِمٌ وَحَظُّك مَوفُور وعِرْضُك صَيِّنُ
لِسَانُكَ لا تَذْكُر بِهِ عَوْرَةَ امْرِئٍ فَعِنْدَكَ عَوْرَاتٌ وللنَّاسِ أَلْسُنُ
وَإِنْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ عَيْبًا فَقُل لَهَا أَيَا عَيْنُ لا تَنْظُرِ فَللنَّاسِ أَعْيُنُ
وَعَاشِر بِمَعْروفٍ وجَانِبْ مَنْ اعْتَدَا وَفَارِقْ وَلَكِنْ بالتي هِي أَحْسَنُ

وهذه الأبيات جامعة لجميع ما يؤلم القلوب بطريق الاجتناب فمن عمل عليها سلم من هذه الآفة التي أصلها كلها التجسس[2] فمن أحب ألا يفوته خير لم يفته شيء. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا: «ثلاثة لا يخلو منها ابن آدم الحسد والطيرة والظن فإذا حسدتَ فلا تبغِ وإذا ظننتَ فلا تحقق وإذا تطيرت فامضِ»[3]. وقال

---

(١) أصل القصيدة للإمام الشافعي رحمه الله وهو في ديوانه رحمه الله.

(٢) في الأصل: التجسيس، والمثبت هنا أدق نحوًا، فهو المصدر القياسي من الفعل تجسس.

(٣) أورده الغزالي في الإحياء بلفظه، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣٢٢٧) «عن حارثة بن النعمان،

عليه السلام: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»[1]. «وكان عليه السلام لا يواجه أحدًا بما يكره إلا أن تنتهك[2] حرمة الله»[3] الحديث.

وقوله: (وَابْتَدَرُوا الوَاجِبَ وَالمَنْدُوبَ) فلقيدهم بحق العبودية لما قُصِد لها أولما رغب فيه من أجلها وهو الثواب عاجلًا كان أو آجلًا، فأول البيت جامع لمعاملة الخلق، والثاني لمعاملة الحق سبحانه.

وقوله (وَخَدَمُوا الشُّيُوخَ..إلخ) خدمة الشيوخ أمر زائد على احترامهم وكذا الإخوان. قال الشيخ أبو عبدالرحمن[4] السلمي ﷺ: رأيت جدي إسماعيل بن نجيد رحمه الله في النوم يقول لي: ألست تعلم شيئا من العلوم؟ فقلت: ربما أعلم شيئًا. فقال: أليس سئلت بالأمس عن خدمة الفقراء فقلت نعم؟ فقال: كتبت ما كتبت ولست تحتاج إليه، إنما هي ثلاث كلمات وهي: أن تخدم مَنْ فوقك بالحرمة، وإخوانك بالنصيحة، ومن دونك بالشفقة، وانتبهتُ. انتهى، وذكر في آخر كتابه المذكور فوقه.

وقوله (وَبَذَلُوا.. الخ) يعني لخدمة من ذكر، لما قامت في قلوبهم من محبته وتعظيمه، وكذلك مع الربوبية وهو المقصود الأعظم والمقصود المتوجه إليه أولًا وآخرًا، وقد ذكر

قال: قال رسول الله ﷺ: « ثلاثٌ لازماتٌ لأمتي: الطيرة، والحسد، وسوء الظن ». فقال رجلٌ: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هو فيه؟ قال: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض».

(١) جزء من حديث طويل أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٦١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٠٧٩).

(٢) في (أ): تنهك، والمثبت من (ب).

(٣) أخرجه النسائي في السنن (٩٩٩٤)، وأبو داود (٤١٨٢).

(٤) وردت بلفظ «عبدالله» وهو وهم من الناسخ.

في الأبيات الثلاثة جمل الآداب في حضرة الحقائق والخلائق ثم توجه لآدابهم في العلم والعمل فقال رحمه الله:

(١٧٠) وَأَنْصِتُوا عِنْدَ الْمُذَاكَرَاتِ وَاحْتَرِمُوا الْمَاضِي مَعًا وَالآتِ
(١٧١) وَسَأَلُوا الشُّيوخَ عَمَّا جَهِلُواْ وَوَقَفُوا مِنْ دُونِ مَا لَمْ يَصِلُواْ
(١٧٢) وَعَمِلُوا بِكُلِّ مَا قَدْ عَلِمُواْ وَآثَرُوا وَاغْتَفَرُوا وَاحْتَشَمُواْ

قلت: أما «إنصاتهم عند المذاكرات» فلأن الكلام بآخره وسماع الكلام من المروءة، وقد قال بعضهم لمن رآه يتكلم ولا يستمع: يا هذا أَنْصِتْ أذنيك من لسانك فإن الله تعالى ما خلق لك الأذنين إلا لتسمع ضعف ما تتكلم. ثم إكرام الجليس في ثلاث: استماع حديثه، وترك معارضته، ومجاملته في الأمور ما لم يتعلق به حق واجب أو يجُرّ إلى محرم.

وقوله (وَاحْتَرِمُوا الْمَاضِي) من سلف الأمة ألا يُذكر إلا بأحسن ذكر، ويُلتمس له المخرج الحسن، ويرحم الله الشيخ محيى الدين النووي لما سئل عن ابن عربي وكلامه: ما تقول فيه؟ حيث وقع في ذلك أن قال: الكلام كلام صوفي ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٣٤).

و«احترام الآتي» بأن لا يقال: انقطعت المادة.. وارتفعت البركة من الناس[١]، وقد كان الناس.... وليس هذا بزمن كذا...، وربما يجوز بعضهم الوقوع وينكر الأعيان إلى غير ذلك، فافهم.

وأما «سؤال الشيوخ» فلأن طلب العلم واجب على كل مسلم وهو معلوم من

(١) سقط من (أ)، مثبت من (ب).

الدين ضرورة، وإنما يسألون فيما يتعلق به العمل أو الحال أو المقام أو غير ذلك مما واجههم وهم محتاجون إليه لا غير ذلك وهو مراده بقوله: (وَقَفُوا مِنْ دُونِ مَا لَمْ يَصِلُوا) يعني دون الذي لم يلحقوه بالمنازلة؛ فلا يسألون عنه لأنه لا تدركه عقولهم وإن أدركته اتصلت به على غير وجه التحقق فكان ضرره أكثر من نفعه، وفي آخر وصية رسالة القشيري الكلام على بعض ذلك فانظره إن شئت.

وقوله (وَعَمِلُوا..إلخ) واضح لأن العلم يهتف بالعمل فإن وجده وإلا ارتحل، وعلم بلا عمل وسيلة بلا غاية، وعمل بلا علم جناية، و«من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»[1]. والعلم إذا أيد بالعمل تحصن ثم أنتج نورًا تامًّا ينتج ذلك النور حكمة فيكون كل شيء من صاحبه علمًا، والله أعلم.

وقوله (وَآثَرُوا وَاحْتَشَمُوا) يعني في المحاورات والتقديم في المحافل وغيرها يؤثرون إخوانهم على أنفسهم و(اغْتَفَرُوا) الجفوة من السائل والمذاكر وغيره. (احْتَشَمُوا) بمعنى أنهم تركوا المنازعة، أما في علمهم فلأنه لا يقبل النزاع، وأما في غيره فالنزاع يؤدي إلى الشرور سواء في الحق أو في الباطل. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «من ترك المراء وهو محق بني له بيت في أعلى الجنة، ومن ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في رَبَض الجنة»[2] رواه الترمذي. والكلام في هذا الباب كثير واسع، وفي «الإحياء» منه وغيره كثير فانظره إن شئت.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن ماجة في السنن (٥١)، والترمذي (١٩٩٣).

ثم توجه لآدابهم في المعاشرة فقال رحمه الله:

(١٧٣) وَاحْتَكَمُوا بالعَدْلِ والإِنْصَافِ   فَوَرَدُوا كُلَّ مَعِينٍ صَافِ
(١٧٤) وبَعْضُهُم كَانَ لبَعْضٍ عَوْنَا   يَلْقَى لَدِيهِ دَعَةً وَأَمْنَا
(١٧٥) يَنْصُرُهُ فِي الحَقِّ حَيْثُ كَانَا   فَإِنْ أَسَا قَارَضَهُ إِحْسَانَا

قلت: أما «احتكامهم بالعدل» لأن أصل طريقهم مبنية على طلب الحق للحق، وحقيقة العدل: إعطاء الحق من غير مناقصة.

و(الإِنْصَاف): الاعتراف به من غير توقف. ويقال: الإنصافُ من شيم الأشراف.

قال الشيخ أبو العباس ابن العريف رحمه الله: لابدَّ لكل طالب علم حقيقي من معرفة الإنصاف ولزومه بالأوصاف، ومن عجيب ما يُسْمَع في ذلك أن ابن الحاج حكى في مدخله أنه لما طلب شيخه سيدي أبا محمد عبد الله بن أبي جمرة في أن يقرأ عليه قال له: وتترك القضاة الأكابر الذين كنت تقرأ عليهم وتقرأ على أمثالي؟ فقال: عزمت؟ قال: استخر الله تعالى، قال: فاستخرتُ ثم جئته من الغد، فقال: عزمت؟ قلت: نعم. قال: لا يخطر ببالك أنك جلست بين يدي عالم، ولا أني عالم ولا أنت متعلم ولكنا قوم اجتمعنا نطلب أحكام الله فإن وجدنا الحق على لسان صبي من صبيان المكتب اتبعناه. قلت: وهذا الأمر الذي كان عليه سلف الأمة وإلا لما صح مخالفة متأخرهم للمتقدم منهم، والله أعلم.

ثم المنصف هو الذي لا يبالي كان شيخًا أو تلميذًا أو عالمًا أو متعلمًا ظهر الحق على لسانه أو على لسان غيره؛ لأنه مقصود دون ما سواه وقليل ما هم.

وقوله (فَوَرَدُوا..الخ) أشار به إلى أن من كان وصفه الإنصاف حصل له من العلم أصفاه وأوفاه، وكان في حاله على أحسن الأمور وأوفاها لأن النفس إذا استمرت على المكابرة لم تؤمن من الانتصار في الباطل لتعذر الإصابة دائمًا، وإذا مرنت على الحق جاءت بكل جميل وحسن ولذلك قيل: تَعَلَّم «لا أدري» فإنك إن قلت «أدري» سألوك حتى لا تدري، وإن قلت «لا أدري» علموك حتى تدري.

وفي ترجمة الشيخ أبي محمد عبد العزيز المهدوي ﷺ إنه كان يقول: فيما لا يدري «لا أدري»، وفيما يدري «أحب أن أسمعه من غيري» نفع الله به بمنه.

وقوله (وبَعْضُهُم كَانَ لِبَعْضٍ عَوْنَا) معاونة بعضهم لبعض من باب التعاون على البر والتقوى إذ هي مقصد جميعهم، فيعين أخاه بماله وجاهه ونفسه وعلمه وعمله وهمته وحالته ومناصحته وموادته ومصافاته إلى غير ذلك حتى يبقى كل واحد منهم في دعة أي راحة مما يعاينه عند توجه أخيه له، وفي أمن من فوات مقصده بسببه.

ولذلك قال ﷺ: «مثل المؤمنين كمثل اليدين تغسل أحداهما الأخرى، وكمثل البنيان يشد بعضه بعضا»[1] وهذا جعله عليه السلام مثلًا للمؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم. وفي معناه قيل:

إِنَّ أَخَاكَ الحَقَّ مَنْ كَانَ مَعْكْ ... وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنفَعَكْ
وَمَنْ إِذَا رَيْبُ الزَّمَانِ صَدَعَكْ ... شَتَّتَ فِيكَ شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكْ

وقوله (يَنْصُرُهُ..إلخ) أشار به لحديث «أنصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، قالوا: يا

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٦٤١١)، وأروده ابن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال (٤٣٣).

رسول الله هذا ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالمًا فقال تأخذ يده فترده عن الظلم»[1].

وقيل في معناه:

انصر أخاك إذا أمر به نزلًا ... واحكم له إن يكن قد جار أو اعتدلا

إن جار فاردده للنهج القويم وإن ... جير عليه فلا تتركه مختذلا

وقال حمدون القصار ﷺ: لا تزال الصوفية بخير ما تنافروا، فإذا اصطلحوا قل دينهم، والعفو عن زلات الإخوان مطلوب، ولا خير في صحبة من لا يرى لك من الخير مثل ما ترى له. وهنا انتهى ما فَصَّل من الآداب ومداره على ما في كتاب آداب الصحبة للإمام أبي حامد وأبي طالب وغيره.

ثم قال رحمه الله:

(١٧٦) وَلَيْسَ حَطُّ الرَّأْسِ مِنْ آدَابِهْ ... بَلِ الصَّوَابُ كَانَ فِي اجْتِنَابِهْ

(١٧٧) إِذْ كَانَ مَبْنِيًّا[2] عَلَى القِصَاصِ ... لِمَنْ أَرَادَ حِسْبَةَ الخَلَاصِ

(١٧٨) وَلَيْسَ فِي قِيَامِ الاسْتِغْفَارِ ... أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاصْطِلَاحٌ جَارِ

(١٧٩) وَالقَصْدُ مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ الأَدَبُ ... فِي كُلِّ حَالٍ مِنْهُ: هَذَا المَذْهَبُ

قلت: (حَطُّ الرَّأْسِ) عندهم عبارة عن تنكيسه عند قصد الإنصاف للمنتصِف ليصل إلى حقه في صاحبه وهو لم يرد شرعًا ولا فائدة فيه طبعًا إلا زيادة اصطلاح، وأهل الصدق يتبرؤون من كل اصطلاح لا معنى فيه ولا حاجة إليه لأنه تكلف.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٤)، والترمذي (٢٥٥٥)، وأحمد في المسند (١٣٠٧٩).

(٢) وردت في أصل المتن «بل هو مبني».

وقوله (إِذْ كَانَ مَبْنِيًّا عَلَى القِصَاصِ..إلخ) يعني أن أصل حط الرأس عند من عمل به من باب تمكين النفس من القصاص لمن احتسب في تخليص نفسه، وربما احتجوا فيه بحديث عكاشة وليس فيه حجة إلا من حيث تمكين النفس من الحق خاصة، والله أعلم.

وأما (قِيامِ الاسْتِغْفَارِ) فهو أن الفقير إذا أساء في حق الفقراء وغيرهم وأراد الاستغفار قام على رؤوس الفقراء معترفًا بذنبه ومظهرًا للاستغفار بصورة اصطلاح[١] لها كل حق، على حسب حالهم، ولا يعرفها أهل المغرب ولا وردت على أئمة القوم ولا مستند له من السنة، فتركها أولى إلا لموجب يؤدي تركه لضرر في الدين أو الدنيا. فللضرورات أحكام، والله أعلم.

وقوله (وَالقَصْدُ مِنْ هَذَا الطَرِيقِ الأَدَبُ) معناه دائر على ما تقدم من كلام أبي حفص ﷺ حيث قال: التصوف كله أدب وقد تقدم.

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: أربعة آداب إذا خلا الفقير المتسبب[٢] منها فلا تَعْبَأَنَّ به، وإن كان [٣]أعلم البرية: مجانبة الظلمة، وإيثار أهل الآخرة، ومواساة ذوي الفاقة، ومواظبة الخمس في الجماعة. وأربعة آداب إذا خلا الفقير المتجرد منها فاجعلوه والتراب سواء: الرحمة للأصاغر، والحرمة للأكابر، والإنصاف من نفسه، وترك الإنصاف لها.

---

(١) في (ب): اصطلح.

(٢) وردت في (أ) «المتسبب»، والمثبت من (ب) أصح

(٣) زادت لفظة « أحدهم» في (أ) ولا معنى لها في العبارة

وقال الشيخ محيى الدين في خاتمة «التدبيرات»[1]: أربعة من حازها فقد حاز الخير كله: تعظيم حرمات المسلمين، وخدمة الفقراء، والإنصاف من نفسك، وترك الإنصاف لها. انتهى بمعناه والله أعلم.

۞۞۞

السادس: في حكم السماع

وحاصل هذه الترجمة: الكلام في السماع من حيث حكمه ثم من حيث أحكامه وآدابه وفوائده. قال رحمه الله:

(١٨٠) وَللأَنَـامِ فِي السَّـمَاعِ خَـوضُ ... لَكِـنْ لِهَـذَا الحِـزْبِ فِيـهِ رَوْضُ
(١٨١) قَـالَ العِرَاقِيـونَ بالتَّحْرِيـمِ ... قَـالَ الحِجَازِيـونَ بالتَّسْـلِيمِ

قلت: إنما خاض الناس في السماع من حيث حكمه لكونه لا نص فيه من الشارع بإباحة ولا منع، وعمل به قوم من مشايخ الأمة؛ فمن قائل بالإباحة بناء على أن الأصل الإباحة حتى يأتي المحَرِّم، ومن قائل بالتحريم حتى يأتي المبيح، ومن قائل بالوقف لتعارض الأدلة، وهذا كله ما لم يقترن به سبب محرم كاجتماع الرجال والنساء أو حضور ما يدعو حضوره إلى هوى ومعصية حالًا أو مثالًا أو يكون خليًّا عن محل الاشتباه كسماع الشعر مجردًا من غير ألحان ولا أوزان مع سلامته من الموهمات والمحرمات ودعاوى الهوى ومحركات الشهوة فيمنع في الأول باتفاق ويذم في الثاني باتفاق [2]، وإنما الخلاف

(١) «التدبيرات الالهيه في اصلاح المملكه الانسانيه».

(٢) سقط في (أ) والمثبت من (ب).

حيث خلا عن الموضعين فكان بصورة من اللهو ومعنى من الحقيقة دون اقتران سبب ممنوع، والله أعلم.

والمراد بـ(العِرَاقِيين): أصحاب الرأي من الحنفية ونحوهم، هذا هو الظاهر والله أعلم

وقوله: (قَالَ الحِجَازِيونَ) الشافعي ومالك رضي الله عنهما، ويحتمل أن يكون مراده بـ(بالتَّسْلِيمِ): الوقف، ويحتمل الإباحة، والظاهر أنه لا يوجد لهم نص بمطلق الإباحة ولكنها ظواهر بعضها من طريق القول وبعضها من طريق الفعل؛ فقد روى أبو مصعب أن مالكًا سئل عنه فقال: لم يبلغني فيه شيء إلا أن أهل بلدنا لا يقعدون عنه. أو كلامًا هذا معناه، وعند القرطبي أن أصل مذهب مالك فيه المنع وهو الأشبه بقواعد مذهبه إذا كان مبنيًا على سد الذرائع وأخذ جوازه من المدونة من كراهة الأجرة عليه، ذكره البراذعي وفيه ما فيه.

ثم قد اختلف فيه المشايخ قديمًا بالأقوال الثلاثة؛ فهي شبهة في الحقائق كالأحكام وسيأتي بعض ذلك. وقد اتفق مشايخ المتأخرين من القوم على منعه لما حدث فيه من الفساد حتى قال الشيخ محيى الدين رحمه الله: السماع في هذا الزمان لا يقول به مسلم ولا يُقتدى بشيخ يعمل السماع أو يقول به. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: سألت أستاذي رحمه الله عن السماع فأجابني بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ (الصافات: ٦٩ - ٧٠).

وقال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ في قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾(المائدة: ٤٢) نزلت في اليهود، ومن كان من فقراء هذا الزمان مؤثرًا للسماع

بهواه أكلًا لما حرمه مولاه فهو نزغة يهودية لأن القوَّال يذكر العشق وما هو بعاشق، ويذكر المحبة وما هو بمحب، والوجد وما هو بمتواجد، فالقوال يقول الكذب والمستمع سماع له، ومن أكل من الفقراء طعام الظلمة حين يدعى إلى السماع فهو يصدق عليه قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ (المائدة: ٤٢).

قال وعبَر بعض الصحابة على[1] بعض اليهود فسمعوهم يقرؤون التوراة فتخشعوا، فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا نزل عليه جبريل عليه السلام فقال: «اقرأ. قال: وما أقرأ قال: اقرأ ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ (العنكبوت: ٥١) فعوتبوا إذ تخشعوا من غيره، وهم إنما خشعوا من التوراة وهي كلام الله تعالى فما ظنك بهذا أعرض عن كتاب الله وتخشع من الملاهي والغناء. انتهى.

وقوله: (هذا الحِزْبِ..الخ)، الحزب: الجماعة، والروض معلوم؛ استعارة لما يجدونه من التنزه والتنعم والله أعلم، وسيأتي ذكر بعضه إن شاء الله تعالى.

ثم قال رحمه الله:

(١٨٢) وَإِنَّ للشُّيُوخِ فِيهِ فَنَّا إِذْ جَعَلُوه للطَرِيقِ رُكْنَا

قلت: يعني يأوي إليه لا ركنًا يعتمد عليه لأن ظاهر نصوصهم على أنه رخصة، وصرح بذلك السهروردي رحمه الله في آخر كتابه «آداب المريدين».

وقال الشيخ أبو إسحاق الشاطبي أحد علماء الأندلس ومحققيهم في وقته: ليس

(١) في (أ): عن، والمثبت من (ب).

السماع من التصوف بالأصالة ولا بالعرض. وسئل الجنيد رحمه الله عن السماع: أمباح هو؟ فقال: كل ما يجمع العبد مع مولاه فهو مباح.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله: سألت أبا علي الدَّقَاق عنه مرارًا أرجو أن يرخص لي [1] فيه شيئًا فآخر ما قال: لا أدري إلا أني سمعتهم يقولون: كل ما يجمع العبد على مولاه فهو مباح. انتهى.

قلت: فإجابته مشروطة بالجمع، والجمع فيه أبعد من كل شيء إلا لكامل، أو مقارب والله أعلم. وإنما يأوون إليه عند الضرورة من عارض غلبة أو فائدة أو استفادة أو اختبار حال وعليه يحمل سماع كل من سمع من المشايخ، والله أعلم.

وأحسن الطرق عندهم في حكمه التفصيلُ، كما نبه عليه المؤلف رحمه الله إذ قال:

(١٨٣) وَإِنَّمَا أُبِيحَ لِلزُّهَّادِ ... وَنَدْبُه إِلى الشُّيوخِ بَادِ
(١٨٤) وَهْوَ عَلَى العَوامِ كالحَرَامِ ... عِنْدَ الشُّيُوخِ الجِلَّةِ الأَعْلَامِ

قلت: أما إباحته للزهاد الذين لا أَرَبَ لهم في الشهوات والمستلذات، ولم يبلغوا رتبة التحقق والذوق فلأنهم لا يضرهم فيمنع ولا ينفعهم فيُنبذ.

وقوله (وَنَدْبُه إِلى الشُّيوخِ بَادِ) وأما الشيوخ فإنه يؤثر منهم الحقائق فتنتشر في عوالم الأجسام ثم تتسع في ميادين الحضرة فيكون للحاضر منها نصيب لأن من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها، وكل ما أفضى إلى الكمال فهو كمال، وأما تحريمه على العوام فهو من جهة أنه يثير نفوسهم ويحرك شهواتهم وغير ذلك من الطبائع والعوائد الرديئة، وهذا فيما

(١) غير موجودة في (أ). مثبت (ب).

يحتمل بذاته وصورته، وفيما يوافق الحق بمعناه من حيث الطباع لأن الشعر من محامد النفس فهو يقويها ما لم تكن ميتة.

وفي ذلك قالوا: إن الغناء مرقاة الزنا، وإنه ينبت النفاق في القلب. وقيل: السماع راح تشربه الأرواح بكئوس الآذان على معاني الألحان لكل امرئ ما نوى، ماء زمزم لما شرب له وهذا لما سمع له.

وقيل أيضًا: من سمعه بتزندق[1] تزندقَ، ومن سمعه بتحقيق تحقَّقَ. والكلام في ذلك والنقل فيه أمدٌ واسع فانظره إن شئت وإلا فلا حاجة، وبالله التوفيق.

ثم ذكر فوائده فقال رحمه الله:

(١٨٥) وَفِيهِ كَانَ مَيْلَقُ الأَحْوَالِ ... كَيمَا يَبِينَ سَافِلٌ وَ عَالِ

(١٨٦) وَهُوَ صِرَاطٌ عِنْدَهُمْ مَحْدُودُ ... يَعْبُرُهُ الوَاجِدُ وَالفَقِيدُ

(١٨٧) فَعَابِرٌ يُحِلُّهُ عِلِّيِّينْ ... وَآخَرٌ يَحُطُّهُ سِجِّينْ

(١٨٨) وَهُوَ سُرُورٌ سَاعَةٍ يَزُولُ ... نَعَمْ، وَسُمٌّ سَاعَةٍ قَتُولُ

(١٨٩) وَهُوَ قِيَاسُ العَقْلِ نَقَّاشُ القُلُوبْ ... إِنْ يَنْزِلِ الحَالُ بِهِ ثُمَّ يَؤُوبْ

(١٩٠) وَآثَارُهُ فِي عَرَصَاتِ القَلْبِ ... كَالوَبْلِ فِي الغُصْنِ القَوِيمِ الرَّطْبِ

قلت: أشار بالبيت الأول إلى أن من فوائده معرفة الشخص أو شيخه بحقيقة همته، وما احتوى عليه من دواعي الحق من رجاء أو خوف أو هيبة أو أنس أو حياء أو تعظيم أو جلال أو غير ذلك، فتعرف به الحقائق لأنها محرك لما في القلب غير جالية له،

(١) في الأصلين: بتزنديق، وما أثبتنا أدق، فهو المصدر القياسي من الفعل تزندق.

فإذا بانت تلك الحالة فرآها صاحبها أو شيخه بما يراه مناسبًا لها، ويعرف ذلك بما يظهر عليه من أثر التأثر[1] بقول القوال، فافهم.

وبالبيت الثاني: أنه يبين عن حقائق الأشخاص ممن ادعى شيئًا واستظهر به ثم حضر السماع بانت حقيقته فيه؛ فإن كان عاطلًا كان ذلك أمكن له في حاله، وإن كان مثبتًا كان ذلك موجبًا للتهمم به، إلى غير ذلك.

والبيت الثالث: من كمال الذي قبله وهو واضح ومدار ذلك على أنه موضح أو فاضح، والله أعلم، ثم مع هذا كله فهو خطر على غير حاصل كما دل عليه البيت الرابع، وإنما كان سمًّا قتالًا من جهة أنس النفس به واستلذاذها إياه وتقويتها به. وقال: ما واظب عليه شخص إلا وهز عزمه وشتت همه ووقع في حبالة التأويل.

قال الإمام محيي الدين: وكل من سمع من الشيوخ فهو على أحد أمرين: إما قبل أن تحصل له مرتبة التمكين فالسماع عندنا حرام في ذلك الوقت، أو سمع بعد التمكن بشروطه المعروفة التي قد ذكرناها في غير هذا الموضع فيعلم من هذا أنه قد نزل من المقام الأعلى إلى مقام هو أسفل وأدنى لحظ نفس.

ثم ذكر سر السماع، وأنه نزول كله وأن من لم يجد حاله إلا في السماع وفقده -إذا فقده- فقد مُكِر به واستُدْرِج فليبك على نفسه وليبحث على ما جنت يده فيجد ضرورة لابد من ذلك.

ثم قال: والله يلبسنا وإياكم العافية ويحلنا وإياكم المراتب السامية[2] ولا يجعلنا

---

(١) في (ب): آثار التأثير.

(٢) وردت في (أ) «الشافية» والمثبت من (ب).

وإياكم ممن له إلى سماع السماع أذنٌ واعية فيكون من أهل القلوب الناهية أهـ. وسيأتي من كلامه ما فيه كفاية بعد إن شاء الله.

وقوله: (وَهُوَ قِياسُ العَقْلِ) يعني يعرف به الكامل للعقل من القاصر؛ وذلك من شواهد الحركات والمحركات فمن زاده طيشًا فذلك دليل نقصه وعكسه عكسه، وما بينهما بينهما، ونقشه للقلوب بما يثير من الأحوال المضرة له في الحال وهو معنى الشطر الثاني.

والمثال المذكور في البيت الأخير على وفق ذلك؛ لأن الحال تنزل ساحة القلب كالمطر فتسري في لين أراضيه، فيهيئ أفنانَ أشجارِ أغصانِ البدنِ سريانُها، ثم تعود إلى محالها. وقد بين ذلك في «التنوير» أتمَّ بيان على وجه لا أستحضر نصه فيه الآن.

وأشار إليه في «الحكم» بقوله: لا تزكينَّ واردًا لا تعرف ثمرته فليس المراد من السحابة الإمطار وإنما المراد منها وجود الإثمار. قلت: وهذا معنى قولهم: من لم يؤثر فيه السماع زيادة من عنده فهو نقص في حقه لأن الواردات لا تراد لذاتها وإنما تراد لغيرها، فافهم.

ثم ذكر من آداب السماع جملة فقال رحمه الله:

(١٩١) وَلا يَجُوزُ عِنْدَهُ التَكَلُّمُ ... وَلا التَلَهِي لا وَلا التَبَسُّمُ

(١٩٢) وَيُمْنَعُ الأَحْدَاثُ مِنْ حُضُورِهِ ... فَإِنْ يَكُنْ ذَاكَ فَمِنْ ظُهُورِهِ

(١٩٣) وَالرَّقْصُ فِيهِ دُونَ هَجْمِ الحَالِ ... لَيْسَ عَلَى طَرِيقَةِ الرِجَالِ

(١٩٤) وَمَنْ يَكُنْ يَقْوَى عَلَى السُّكُونِ ... فَإِنَّهُ أَسْلَمَ للظُّنُونِ

قلت: وذلك لأنه قريب من رتبة الباطل فإذا عضد بصورة منه عاد إليه سريعًا لأن الرجوع للأصل بأدنى سبب، فالتكلم فيه يتلف عن الحقيقة المقصودة والتلهي يجعله من

حيز الملاهي والتبسم يؤدي لإساءة الأدب مع الجماعة ويدعو لانبساط النفس من حيث الطباع والمطلوب خلافه. و«**حضور الأحداث فيه**» أما أحداث السن فلما تثير مشاهدتهم من الفتنة لاسيما مع دواعي ذلك من الشعر والأوزان والعمل بالأصوات الحسان، والنفس لها في ذلك الميدان مجال عظيم وتمكن كبير.

وقوله: (**فَإِنْ يَكُنْ..إلخ**) يعني أن الأحداث إذا حضروا وألجأت الضرورة إلى حضورهم فليكونوا صفًّا من خلف الناس خافضين أصواتهم، ولا يجوز إحضارهم بغير ضرورة أصلًا لأن ذلك مضر للنفس ومضر بالأرواح من حيث الالتفات، ومتلف عن الحقائق بالضرر، وداعية الفساد والحرمان، وقد شاهدنا من ذلك في بعض الناس ما يقضي بتحريمه أصلًا وفصلًا.

وأما الرقص والتصفيق وهزُّ الرأس والتحرك، فإن كان بغلبة فالمغلوب معذور، وإن كان بغير غلبة وهو الإيهام فهو حرام؛ لما دخله من الرياء والتصنع والتظاهر بما ليس له حقيقة عنده، وإن كان مع بيان الحال بحيث يعلم الحاضرون أنه غير مغلوب وإنما أراد راحة نفسه أو هزها ونحوه فهو للباطل أقرب، وليس من الحق في شيء.

ولذلك سئل بعض العلماء عمن يفعل ذلك ضحك حتى بدت أنيابه ثم قال: أمجانين هم؟ وسيأتي إن شاء الله من هذا المعنى في آخر الكتاب.

وقوله: (**فَإِنَّهُ أَسْلَمَ للظُّنُون**) يعني أنه أسلم له من أن يظن فيه السوء، وإن كان مغلوبًا، ثم المغلوب قد تكون له بقية يدرك بها وقد لا، والكل معذور والله أعلم. وهذا كله على القول بجوازه حيث أجيز والله أعلم.

ثم ذكر موجبات السماع وتوابعه فقال رحمه الله:

(١٩٥) وَلَيْسَ يَحْتَاجُ إِلى السَّمَاعِ إلا أَخُو الضَّعْفِ القَصِيرِ البَاعِ
(١٩٦) وَالزَّعَقَاتِ فِيهِ والتَمْزِيقِ ضَعْفٌ وَهَزُّ الرَأْسِ وَالتَّصْفِيقِ
(١٩٧) وَلَمْ يَكُنْ لأَجْلِهُ اجْتِمَاعُ وَلا لَدَى غَيْبَتِهِ انْصِدَاعُ

قلت: السماع بطالة ترتاح إليه نفوس أهل البطالة ليأنسوا بحقائق ما يجدونه عنه فأما أهل الحقائق فالحقائق شاغلة لهم عن صور كثيرة من الحق الذي لا يجب عليهم فكيف بما يشبه الباطل؟! وذلك لم يكن عند أئمة الإسلام والمتقدمين منه شيء مع قدرتهم على النظم والنثر ووجوه التعبير، ولهذا قالوا: إذا رأيت المريد يميل إلى السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة.

فأما الزعقات والوحيات وما يشبهها فمن ضعف قوى الروح عن حمل التجليات مع وجود البقايا النفسانية فيقع الاضطراب بين الداعيتين فيحدث منه ما ذكر، ولو كانت حقيقة الروح خلية عن المنازع لكان ذلك مؤديًا للاستلقاء ونحوه فافهم. هذا إن كان غلبة ومن بساط الحقيقة وإلا فلا عبرة، وسيأتي منه إن شاء الله.

وقوله (وَلَمْ يَكُنْ لأَجْلِهُ..الخ) يعني أن من طريقة القوم فيه أن لا يقصدوه بل حتى إذا تيسرت لأحدهم حالة دعاهم إليها فعملوا له ما يليق، وكذا إن أراد أحد الأسباب التي يراد لها لأنهم رضي الله عنهم لا يقدمون على شيء إلا بعد تحقيق القصد إن كان حقًّا واضحًا، فكيف بما لا يباح إلا لضرورة؟ فاعرف ذلك.

ثم قال رحمه الله:

(١٩٨) وَلَمْ يَكُـنْ فِيـهِ مَرَاسِـنُونَا ... وَلا طَنَابِـيرُ وَمُسْـمِعُونَا
(١٩٩) وَلَيْـسَ أَيْضًـا كَانَ فِيـهِ طَـارُ ... وَلا مَزَاهِـرٌ عَلَيْهَـا نِقَـارُ[١]
(٢٠٠) وَالشَّـمْعُ وَالفُـرُوشُ وَالتَّكَالُـفْ ... أُقْسِـمُ مَـا كَانَـتْ يَمِـينَ الحَالِـفْ[٢]

قلت (المَرَاسِنُونَ): الطائفة التي تجيب القوال بالدنادن والهاهات ونحوها، وذلك من شأن المسمعين أهل اللهو والفساد، فالتشبه بهم هجنة وركس في الحظ.

و(الطَّنَابِير): جمع طنبور، وهو يشبه العود في صورته، والمسمعون هم المرصدون للغناء في الولائم وغيرها، وإنما يسمع القوم من أمثالهم ويصحبهم في السماع صادق أو صديق أو نديم غير خارج عن رأيهم؛ لأن السماع عورة، ولذلك قالوا إنه: يحتاج السماع إلى المكان والزمان والإخوان.

وقد قيل للجنيد رحمه الله: كنت تسمع فلِمَ تركته؟ قال: ممن؟ قيل: مِنْ الله. قال: مع من؟ فسكت السائل. و(الطَّار) معلوم وهو أخ الدف والغربال المباحان في الولائم والأعراس، وقد رأى بعض الناس إباحته، وهو بعيد لتخلف العلة الجامعة في الحكم، ونسب بعض الناس للشافعي جوازه وأنكره المزني، وأنشد في ذلك أبياتًا ذكرها ابن الحاج في مدخله أحفظ منها بعض ما هو قوله:

(١) ورد هذا الشطر في أصل المتن «ولا مزاهر ولاتنقار».

(٢) وردت في شرح الشيخ ابن عجيبة (حالف).

حاشا الإمام الشافعي النَّبِيه أن يتبع غير معاني نبيه
أو يتخذ طَارًا أو شُبَّابَة لناسك في دينه يقتديه
إن ولي الله لا يرتضي إلا بما الله به يرتضيه
إنما الزهد بعلم وتُقى وآخر الليل لمستغفريه

انظر بقية تحقيقه فقد طال عهدي به.

ذكر بعضهم عن ابن عمر أنه أباح ضرب الجهالين[1] وليس كذلك بل سمع من يفعله فجعل إصبعيه في أذنيه ومعه نافع ولم يأمره بذلك فاحتمل تحقيقه أو أنه لا يتأثر به فلا يلزمه فيه شيء، وعلى كل حال فهي واقعة غير مقصودة فلا تكن حجة في الأمر المقصود، والله أعلم.

و(المزَاهِر) جمع مزهر وهو الدُّفُّ ونحوه والله أعلم.

و(يمينه) التي حلف عليها هو فيها بار لأن القوم رضي الله عنهم أبرياء من التكلف ولم تكن لهم دنيا يتوسعون فيها لهذا القدر، وحكايتهم تدل على ذلك لمن تأملها، وبالله التوفيق.

ثم قال رحمه الله تعالى:

٢٠) وَأَمَرُوا فِيهِ بِغَلْقِ البَابِ وَإِنَّمَا ذَاكَ للاجْتِنَابِ

أخرجه أبو داود (٤٩٢٤)، وأحمد (٤٩٦٥) بلفظ: عن نافعٍ، مولى ابن عمر، سمع ابن عمر صوت زمّارة فوضع إصبعيه في أذنيه وعدل راحلته عن الطّريق وهو يقول: يا نافع أتسمع؟ فأقول: نعم، قال: فيمضي حتى قلت: لا، قال: فوضع يديه وأعاد الرّاحلة إلى الطّريق وقال: «رأيت رسول الله ﷺ وسمع صوت زمّارة فصنع مثل هذا».

قلت: من آداب السماع عندهم أن لا يدخل عليهم غيرهم، ولا يكون معهم من هو أعلى لئلا يشوش عليهم بقوته، ولا من هو بعيد عن الذوق لئلا يشوش عليهم باعتراضه أو جموده لأنه من سريانات القلوب عند أربابه، فاستلزم ذلك وجود غلق الباب وإخراج كل أجنبي عنهم، والله أعلم.

عاد المصنف بعد ذكر الآداب ونفي محل الارتياب إلى دليل إثبات السماع وجوازه فقال رحمه الله:

(٢٠٢) وَلَيْسَ للقَائِلِ مَا يَقُولُ فِي الشِّعْرِ إِذْ سَمِعَهُ الرَّسُولُ

قلت: يعني إذا لم يكن فيه شيء مما ذكر أعلاه فليس إلا الأصوات المجردة بالشعر ونحوه، وكل ذلك قد ثبت فيه آثار صحيحة مثل حديث أنجشة إذ سمعه عليه السلام ينشد فقال: رويدك بالقوارير أنجشة»[١]. وحديث ابن رواحة إذ كان ينشد بين يديه عليه السلام: «خلوا بني الكفار عن سبيله»[٢].

وكان الصحابة رضي الله عنهم يرتجزون في حفر الخندق:

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

وهو عليه الصلاة والسلام يجيبهم: اللهم لا خير إلا خير الآخرة، فاغفر للأنصار

(١) أخرجه البخاري (٦١٤٩) عن أبي قلابة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:« أتى النبي ﷺ على بعض نسائه ومعهن أم سليم فقال ويحك يا أنجشة رويدك سوقًا بالقوارير» قال أبو قلابة فتكلم النبي ﷺ بكلمة لو تكلم بها بعضكم لعبتموها عليه قوله: «سوقك بالقوارير»، وأخرجه مسلم (٦١٨٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٤٧)،والنسائي في السنن (٣٨٤٢).

والمهاجرة[١]. وفي حديث خيبر قول الضحاك[٢]:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى قد بغوا علينا ... مهما أراداو فتنة أبينا

وأحاديث الثناء على حسن الصوت كثيرة منها حديث أبي موسى وغيره، لكن قد يجاب عن ذلك كله بقوله عليه السلام: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن أي من لم يستغن به عن الغناء»[٣] ولا يصح الاحتجاج في ذلك لوجود الاحتمال، كما لا يصح ذلك أيضًا في احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (لقمان: ٦) لما دل عليه سياق الآية من ذكر الإضلال والاستهزاء وهذا عكسه.

وبالجملة فكل دليل في السماع نفيًا وثبوتًا غير قائم فلا يصح تحرير حكمه، ومذهب القوم في مثل هذا اعتباره من حيث إنه يعيد الجمع على الله تعالى، فإن كان كذلك جاز وإلا فلا، وبالله سبحانه التوفيق.

ثم ذكر كيفية السماع عند قدماء المشايخ فقال رحمه الله:

(٢٠٣) وَإِنَّمَا كَانَ السَّمَاعُ قِدْمَا ... قَصْدُ المُرِيدِ الشَّيْخَ يَشْكُو السَّقَمَا
(٢٠٤) وَجَاءَ هَذَا ثُمَّ جَاءَ هَذَا ... حَتَّى اسْتَقَلُّوا عِنْدَهُ أَفْذَاذَا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٣٥)، ومسلم (١٢٠١).

(٢) أخرجه البخاري(٢٨٣٧) ،ومسلم (١٨٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٢٧)، وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١١٩٣).

(٢٠٥) فَبَثَّ كُلَّ مَا بِهِ قَدْ جَاءَ فَعُوِّضُوا مِنْ دَائِهِم دَوَاءَ
(٢٠٦) فَعِنْدَمَا نَشِطَتِ النُّفُوسُ وَزَالَ عَنْهَا كَسَلٌ وَبُوسُ
(٢٠٧) وَطَابَتِ القُلُوبُ بِالأَسْرَارِ واسْتُعْمِلَتْ نَتَائِجُ الأَفْكَارِ
(٢٠٨) تَرَنَّمَ الحَادِي بِبَيْتِ شِعْرِ فَاكْتَنَفَتْهُ غَامِضَاتُ الفِكْرِ
(٢٠٩) كُلٌّ لَهُ مِمَا اسْتَفَادَ شِرْبُ هَذَا لَهُ قِشْرٌ وَهَذَا لُبُّ
(٢١٠) فَإِنْ تَمَادَى وَأَتَمَّ شِعْرَا أَبْدَى مِنَ الشِّعْرِ عَلَيْهِ سِفْرَا[1]
(٢١١) فَهَكَذَا كَانَ سَمَاعُ النَّاس فَهَلْ تَرَى بِهِمْ كَذَا مِنْ بَاس

قلت: يعني أن المريدين كانوا يقصدون المشايخ لمداواة علل قلوبهم وطهارة نفوسهم فينقلبون كلًا على ما هو به من نقص أو كمال وله ما جاء به من الصدق على حسب ما يقتضيه مزاجه وطبعه وحقيقته وتوجهه فيحصل له البرء من ذلك والزيادة في حاله فيقع من حصول البرءِ النشاطُ والتشمير والاحتياط فيقومون بوظائف الخدمة على بساط الحرمة، وينتج لهم ذلك استلذاذ الطاعة وجمع الهمة وذلك ينتج فكرة صحيحة وتوجهًا تامًّا يوسع ميادين المعاني ويظهر أغوار المباني.

فإذا أحس الشيخ بذلك منهم أو من أحدهم أحضره وأسمعه دون إحضار ما يوافق حاله فيسري في فكره ويغوص في بحره لاستخراج دره فيظهر عليه من الحكم على نسبة حاله الغالب عليه فيعرف بذلك منتهاه من الحقائق.

(١) ورد هذا البيت في أصل المتن:

فإن تمادى وأتمَّ الشعرا أبدوا من الشرح عليه سفرا

وإن أراد أن يعرف حاله من التصرف [بما له مع السماع][1] حتى يضرب بعضها ببعض أو يستخرج من ذلك ما لا يخطر على بال أحد، وإلى هذا أشار بالسّفر وليس بمقصود، وإنما المقصود اتساع نظره حتى يحصل له من الكلمة الواحدة ألف ألف كلمة، كما أشار إليه شيخنا أبو العباس الحضرمي ﷺ حيث قال: ومن كان يستمد من محبرة الجمع فهو يكتب ما يكون وما لا يكون؛ طويل: طويل، قصير: قصير، شيء: شيء، ما شيء: ما شيء، عدم: عدم، وجود: وجود. والله أعلم.

قال في «الحكم»[2]: من بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمن من منن الله ما لا يدخل تحت دائرة العبارة ولا تلحقه الإشارة. انتهى، وبحسب هذا لا يدع الشيخ مريده للسماع على الدوام ولا يفرط عليه، والله أعلم.

ومعنى (قِدْمًا): قديمًا، أي من الزمان المتقدم. و(السَّقَم): الداء، والمراد به داء النفوس ونحوها. و(الأفذاذ): الأفراد واحدًا بعد واحد. و(بَثَّ): أوجَعَ، وأخبر برأيه وغيره. و(النَّشَاط) ضد الكسل، وهو الخفة بدلًا من التثاقل. و(البؤس والبأس): الداء والضر. و(الأسرار): الأحوال المودعة فيها. و(نتائج الأفكار): الحلم والمعارف ونحوها. و(الحادي): القوال كما تقدم. و(اكتنفته): احتوشته فصار في كنفها، أي هي محيطة به. و(الشِّرْب) النصيب.

ومدار البيت وما فهم منه كل من الثلاثة المذكورين في حكايته انظرها في «لطائف المنن» أو تنبيه سيدي أبي عبد الله بن عباد رحمه الله عند قول ابن عطاء الله ﷺ: العبارات

(١) في ب: فيهيئ له السماع.

(٢) «الحكم العطائية»، الحكمة رقم (٢٢٦)..

قوت لعائلة المستمعين، وليس لك إلا ما أنت له آكل.

وقوله: (فهكذا..إلخ) أتى به للتعريض بالاحتجاج على المنكر جملة لا باعتبار الزمان، والله سبحانه أعلم.

ثم ختم الترجمة بأحكام الخرق وهو أمر معلوم في هذه الأمة فقال:

(٢١٢) وَكَرَّهُوا الخَلْعَ عَلَى المُسَاعَدَة لأَنَّ فِيهِ كُلْفَةَ المُعَانَدَة

(٢١٣) وَمَنْ يَكُنْ يَخْلَعُ عِنْدَ الحَالِ فَلا يَجُوزُ رَدُّهُ بِحَالِ

(٢١٤) إِذْ كَانَ كُلُّ عَائِدٍ فِي هَدْيِهِ كَالكَلْبِ ظَلَّ عَائِدًا فِي قَيْئِهِ

(٢١٥) وَحُكْمُهُ فِي أَفْضَلِ الأَحْكَامِ رأْيُ العِرَاقِ لَيْسَ رَأْيُ الشَّامِ

(٢١٦) وَحَكَّمُوا الوَارِدَ فِي الخُرُوقِ للأُنْسِ وَالخِبْرَةِ بالطَّرِيقِ

(٢١٧) وَالسِّقْطُ مَرْدُودٌ بِلا خِلافِ وَقَدْرُ هَذَا فِي السَّمَاعِ كَافِ

قلت: يعني أن القوم إذا دخلوا في السماع على طرح الخرق فخلع أحدهم عند غَلَبَتِه[1] ثوبه؛ لم يجز لغيره أن يخلع مساعدة له دون غلبة حال؛ لما في ذلك من الكلفة والمعاندة المؤدية لصريح التحريم، ثم الذي خلع عند غلبة الحال عليه لا يجوز له الرجوع فيه ولا يجوز للجماعة رده لأنه رجوع في الهبة منه وإعانة له عليها منهم. وقد قال عليه السلام: «العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه»[2]، وذلك يقتضي غاية التقبيح، فافهم.

ثم إن كان فقيرًا عوضوه منه ثوبًا، وإن كان غنيًّا لم يعوضوه شيئًا، ولا تباع ولا

(١) وردن في (أ) «قلبه» والمثبت من (ب) مناسب للسياق.

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٨٩)، ومسلم (١٦٢٢).

توهب لأجنبي بل يأخذونها بينهم إن كانت للجميع فيقسمونها للتبرك فيجعلونها في مرقعاتهم، وإن كانت لقوال أخذوها منه بما تطيب نفسه وإن كان من غيرهم؛ لأن من قتل قتيلًا فله سلبه، فإذا كان حاله بقول القوال فهي له، وإن كان من الجماعة فهي لهم وإن اختلفوا حكموا فيها الوارد عليهم، فلمن حكم بها فهي له كذا في القسمة ويفعلون به ذلك للتأنس وتعريف الطريقة حتى يقدم على بصيرة أو بحجج، وبهذا احتج بعضهم في جوازها وأنها ميزان الصادقين، وفيه ما فيه.

وقد قال بعض العلماء بتحريم شأن الخرق، وقال: إنه من إضاعة المال، وأكل المال بالباطل. وانتصر به بعضهم وخرجه على بعض المسائل الفقهية وذكر بعض ذلك الشيخ أبو القاسم البرزلي ثم التونسي في حاويه إذ كان له ميل إلى القوم مع تقدم مراتب العلم رحمه الله عليه.

وقول (وحكمه) يعني حكم السماع وهو بعيد ولكن لم يظهر لي غيره، وكأنه استدرك الترجيح في المذهبين المتقدمين، وقد يريد حكم الحق ولا أدري ما للفريقين في ذلك، فلينظره من أراده، ولمن وقف على شيء أن يضيفه إلى هذا المحل مأجورًا، وبالله التوفيق.

وقوله (والسِّقْطُ..إلخ) يعني أن الخرقة الساقطة من غير قصد من صاحبها يجب ردها له لأنه لم يخرج عنها عن طيب نفس، ثم ما خلعه شيخ الحاضرين أو مُقَدَّمهم فلا حكم لهم فيه لأنهم لم يصح لهم أن يتحكموا في سيدهم.

تنبيه:

الذي ينبغي أن يُجزم به في هذا الزمان منع الخرق والدخول فيها؛ لما عليه الناس من

الشحة والاعتلال في الغالب، وإذا كان العذر في النفوس طبعًا فالثقة بكل أحد عجز، والسماع في نفسه لا يعم الإقدام عليه إلا عند غلبة الحال أو هجوم وَلَهٍ مقيد بما يفيد المعاني كالأزجال والموشحات الششترية[1] ونحوها؛ إذ قد أغنى الله بها عن كثير من الأمور المحتملة، ويجتنب منها ما كان فيه إيهام ظاهر وإيهام مضر أو إساءة أدب في مسِّه حقيقة بغيرها إلى غير ذلك، والعاقل لا يعدل بالسلامة شيئًا.

لقد أسمعت لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي

اللهم إني أبرأ إليك من كل ما لا يرضيك، ولا يصح كونه لوجهك بلا ريب والسلام. ثم قال:

❁❁❁

(١) نسبة لأبي الحسن الششتري المتوفى سنة ٦٦٨هـ.

السابع: في حكم السفر

والقدوم على المشايخ والإخوان

قلت: وحاصل الكلام في ثلاثة أمور: تصحيح العقد وتخليصه، والأدب في القدوم من القادم، والأدب المتعلق بحال المقدوم عليه وقد أشبع في هذا الفن الإمام أبو حامد رحمه الله في آداب السفر والصحبة فانظره، وما هنا كاف وهو الذي ابتدأ به المصنف إذ قال:

(٢١٨) مَذْهَبُهُمْ فِي جَوْلَةِ البُلْدَانِ   زِيَارَةُ الشُّيُوخِ والإِخْوَانِ
(٢١٩) ثُمَّ اقْتِبَاسُ العِلْمِ والآثَارِ   أَوْ رَدُّ ظُلْمٍ أَوْ للاعْتِبَارِ
(٢٢٠) أَوْ للخُمُولِ أَوْ لنَفْيِ الجَاهِ   أَوْ للرَّسُوْلِ أَوْ لبَيْتِ الله

قلت: أما «الزيارة للشيخ» فللاستفادة منه علمًا وعملًا وحالًا، ولم يزل الناس يرحلون في هذا الغرض وهو من أعظم المقاصد الدينية ونصوص الشريعة شاهدة له. وأما «زيارة الموتى» فذكر ابن ليون في «اختصار الرسالة العلمية للشُشتري»[1] أن ذلك ليس من طريق القوم، وذكر ابن العربي من الفقهاء أنه لا يزار قبر لينتفع به إلا قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا.

وذكر الإمام الغزالي في «الإحياء» أنه يجوز شدُّ الرحال لهذا الغرض إذ كل من يتبرك به في حياته يتبرك به بعد وفاته ولا يعترض بحديث «لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاث مساجد»[2]؛ لاستواء المساجد في الفضل وتفاوت الصالحين، فانظر كلامه.

---

(١) سبق بيانه تحت عنوان «الإنالة العلمية».صـ٩٥ حاشية ٢.

(٢) أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧).

وقد نقله ابن الحاج في مدخله واعتمده بنصه وحروفه وظاهر كلام المتأخرين وأحوالهم والعمل عليه. وقد ظهر على خلق كثير أمور شتى لو اشتغلنا بها أسفارًا عديدة وقع لنا منها كثير غزير.

وقد نظم فيها الشيخ أبو إسحاق إبراهيم التازي وهو أحد المشايخ المسلم لهم العلم والعمل في وقته قصيده طالعها:

زيارة أرباب التقى مَرْهَمٌ يُبْرِي ... ومفتاح أبواب الهداية والخير
وتحدث في الصدر الخلي إرادةً ... وتشرح صدرًا ضاق من سعة الوزر
وتنصر مظلومًا وترفع خاملًا ... وتكسب معدومًا وتجبر ذا كسر

هذا ما حفظت منها وأظنني أسقطت شيئًا من خلال ما ذكرته والله أعلم.

وأما (اقْتِبَاسُ العِلْمِ والآثَار) أي الحديث؛ فلا خفاء في فضل الرحلة له، ولم يزل من شأن أهل الدين قديمًا وحديثًا، وكفى فيه قصة الخضر وموسى عليهما السلام.

وأما «ردُّ المظالم عن الناس» فالسفر له مطلوب أيضًا لكن على من يمكنه ذلك من غير نقص في دينه كما هو معلوم في باب تغيير المنكر، وقد يريد السفر لرد المظالم التي وجبت عليه، وقد يريد الفرار من الظلم فإن المؤمن لا يذل نفسه. وقد قال تعالى ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (العنكبوت: ٥٦). وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ (النساء: ٩٧). وقد قال صلى الله عليه وسلم تسليمًا: «يوشك أن يكون خير مال المسلم الغنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع

القطر يفر بدينه من الفتن»[١].

وقد يريد الفرار من محل يجري فيه الظلم على يديه كفرار إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه من أرضه وغيره وقصده الشام لطلب الحلال، لما في حديث «الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا وكمل المائة بالعابد إذ قيل له: اخرج من أرضك فإنها أرض سوء»[٢] الحديث إلى غير ذلك.

و(الخُمُولِ) عدم الشهرة وذلك مقصود عند القوم في البداية، وملحوظ في النهاية، و(نَفْيِ الجَاه) قريب منه، والمراد: الجاه المضر أو الجاري على غير وجه مستقيم، أو الذي يخشى منه نقصًا أو شغلًا أو تعتريه آثار النفس وأكثر أسفار أهل البداية، والصادقين لأجله فيما ظهر لي والله أعلم.

فأما «زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم تسليمًا وبيت الله» فأعظم المقاصد؛ قالوا: ولا تجد متوجهًا في بدايته إلا ونفسه تجنح لذلك وكل هذه الوجوه لتصحيح النية وتحقيق القصد فإن النفس خداعة وللأمور آفات، واعتبر هذا الحكاية أحمد بن أرقم حيث جنحت نفسه لطلب الجهاد فتعجب منها وقال: نفسٌ تأمر بالخير؟! ثم سأل الله في كشف أمرها قائلًا: اللهم إني لك مصدق في قولك إن النفس لأمارة بالسوء ولها مكذب فأطلعني على حقيقة هذا الأمر. أو كما قال. فقالت: يا أحمد، تقتلني كل يوم كذا وكذا قتلة ولا شعور لأحد بي فأردت موتة واحدة. ويقال مات شهيدًا، قال الإمام أبو حامد رحمه الله: فانظر كيف رضيت بالرياء بعد الموت. انتهى بمعناه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٥)، وابن ماجة (٣٩٨٠)، وأبو داود (٤٢٦٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٦٦)، والبخاري (٣٤٧).

ثم قال رحمه الله:

(٢٢١) وَلَمْ تَكُنْ أَسْفَارُهُمْ تَنَزُّهَا بَلْ كَانَ فِيهَا نَحْوَهُ التَّوَجُّهَا[1]

(٢٢٢) وَلَمْ يَكُنْ أَيضًا بِلا اسْتِئْذَانِ لِلشَّيْخِ وَالآبَاءِ والإِخْوَانِ

(٢٢٣) وَلَمْ يَكُنْ أَيضًا ذَلِكَ لِلفُتُوحِ أَوْ لامْرِىءٍ مُبْتَذِلٍ مَمْدُوحِ

قلت: لما كانت مقاصدهم دائرة على الجد والتحقيق ولم يصح أن يسافروا لرؤية الأماكن والتفرج في البلاد وإنما يسافرون لطلب رضا الرحمن، وهو معنى آخر البيت الأول.

و«استئذان الشيخ» للوفاء بحق بيعته وما عسى أن يكون له من النظر في الإقامة أو تحويل الوجهة ونحوها، و«حق الآباء» في ذلك واجب شرعًا معلومٌ من الدين ضرورة إلا في واجب لا محيد عنه ولا تراخٍ فيه كطلب علم حاله والجهاد عند تعينه والحج عند ضيق وقته إذا توفرت شروطه ونحو ذلك.

و«السفر للفتوح» لمن كان شأنه البذل والسخاء من باب السفر لطلب الدنيا والحرص عليها ووجوه الطمع وفقد التوكل والاعتماد على الأسباب وخساسة الهمة؛ فإن الدنيا أقل من ذلك، وبالله سبحانه التوفيق.

ثم قال رحمه الله:

(٢٢٤) فَحَيْثُ حَلُّوا بَلْدَةً فَبِالحِرا أَنْ يَقْصِدُوا الشَّيخَ وَبَعْدُ الفُقَرا

---

(١) ورد هذا الشطر في شرح الشيخ ابن عجيبة «بل كان لله فيها نحو التوجها».

(٢٢٥) وَإِنَّ للقَـومِ هُنَـا آدَابَـا إِذْ جَعَلُـوا كَلَامَهُـمْ جَوَابَـا[١]
(٢٢٦) فَـإِنْ تَعَاطَى الشَّيْخُ مِنْهُـم قَوْلَا قَالُـوا وإِلَّا فَالسُّـكُوتُ أَوْلَى

قلت (فَبِالحِرا) يعني وبالأولى أن يقصدوا الشيخ أولًا برتبته ويدخلون عليه بالنية الخلية عن التمييز لينالوا بنياتهم سواء كان عاليًا أو دانيًا لأن الرتبة بركة.

و«قصد الفقراء بعد الشيخ» كذلك فإن من دخل على فقير لقصد التمييز في أحواله أو اشتغل بذلك عند مواجهته حرم بركة زيارته.

ومن آداب الدخول على المشايخ والفقراء: أن يعزل نفسه عن علمه وعمله فيرجع إلى علمهم فيما يشيرون ولا يدع علمًا ولا يراه في حضرتهم بل يرى علمهم أكمل من علمه وأنه مفتقر إليهم وإن كان أعلى منهم في الظاهر وعملهم أوفى من عمله وإن كان أوفى منهم فيه لأن ذلك معتبر بالحقائق في هذا المقام وهي قلبية فيحملها على أكمل الوجوه لا يفارق طريقه في ذلك كله.

ثم يتأدب بأدب هو أنَّ كلامه جواب كله استظهارًا بالذلة والافتقار واحتقار النفس، ثم إن طلبه أحدهم بالكلام فإن كان الكلام عاديًا أتى به متحفظًا، وإن كان في العلوم والحقائق نظر فإن حضرته نفسه ترك وإلا تكلم بأقل ما يمكنه الكلام به في ذلك؛ لأن الكلام بحضرة الأستاذين مقت.

ومن عجب ما شاهدته في بعض الناس أنهم يدخلون على رجال من أهل الكمال لقصد الانتفاع بهم ثم يبسطون ألسنتهم بالكلام في وجوه من صور الحقائق ويرون أنهم

(١) ورد هذا الشطر في شرح الشيخ زروق «أن يجعلوا كلامهم جوابا».

بذلك متقربون لقلوبهم ومتحببون لهم، ولا أدري هل ذلك لظنهم خلوهم عما يأتون به، أو لرؤيتهم أنَّ ذلك مما يقربهم إليهم، أو لرؤيتهم أنهم يفهمون ويذوقون؟! وهذه كلها جهالات أعاذنا الله منها بمنه وكرمه.

وبالجملة فالدخول على المشايخ يحتاج إلى ثلاثة أمور: احتقار النفس حتى لا يبقى لها وجود ولا كلام ولا طلب قبول ولا غيره، واستعدادها للقبول والجمع والاستماع دون التوسع وطلب الأمور، وإظهار الافتقار لكل ما عندهم ما قلَّ أو جلَّ؛ تارة بالسؤال والجواب، وتارة بالتعريض الواضح، والله أعلم.

ثم ذكر آداب القدوم عليه في حق القادمين فقال رحمه الله:

(٢٢٧) وَوَاجِبٌ عَلَى أُولِي الإِقَامَةِ   تَفَقُّدُ الوَارِدِ بالكَرَامَةِ
(٢٢٨) وهو يَزُورُ القَوْمَ فِي الحَرَامِ   وَإِنَّمَا ذَاكَ للاحْتِرَامِ
(٢٢٩) وَيَبْدَءُوا الوَارِدَ بالسَّلَامِ   وَبالطَّعَامِ ثُمَّ بالإِكْرَامِ
(٢٣٠) وَكَلِّمُوهُ بَعْدَهَا تَكْلِيمَا   تَأَسِّيًا بِفِعْلِ إِبْرَاهِيمَ
(٢٣١) وَكَرِهُوا سُؤَالَ هَذَا الوَارِدْ   إِلَّا عَنْ الشَّيْخِ أَوْ التَلَامِذْ

قلت أما (تَفَقُّدِ الوَارِدِ بالكَرَامَةِ) فمن مكارم الأخلاق، وأما «زيارته لهم» فليريح سرهم من التكلف في طلبه. وفي الخبر: «لكل داخل دهشة فابدؤوا بالسلام ولكل طاعم وحشة فابدؤوا باليمين»[1].

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء»:يروى عن الحسن بن علي مرفوعا بزيادة: فتلقوه بالمرحبا، وسنده ضعيف، وأخرجه ابن حبان في صحيحه عن سمرة بسند ضعيف مرفوعا بلفظ: للداخل دهشة فحيوه بمرحبا، واشتهر أيضا: لكل داخل دهشة.

وأما «**الكلام معه والحديث له**» فللتأنيس، و«**فعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام**» ثم طعام ثم كلام، حسبما دلت عليه الآيات القرآنية في قصته عليه الصلاة والسلام.

وقوله: (**وَكَرِهُوا سُؤَالَ هَذَا الوَارِدِ إِلَّا عَنْ الشَّيخِ أَوْ التَلامِذ**) لأن ما وراء ذلك فضول لا حاجة به في حقهم والله أعلم، ثم عاد لآداب المسافر في نفسه فقال رحمه الله:

(٢٣٢) **وَكَرِهُوا تَضْيِيعَهُ أَوْرَادَه ... كَيفَ وَقَدْ جَاءَ إِلى الزِّيَادَة**
(٢٣٣) **وَمَنْ يُسَافِرِ فِي هَوَى النُّفُوسِ ... فَإِنَّمَا يُؤْمَرُ بالجُلُوسِ**

قلت: أما «**تضييع الأوراد**» فمكروه لكل أحد؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: «أحب الأعمال إلى الله أدومه وإن قل»[1] وفي وصية بعض المشايخ: عليك بالذكر عند البسط، وبالفكر عن الغيب، وبالحمد على كل حال، ووردك لا تتركه إن فاتك بالليل استدركه بالنهار، وإن سافرت فاجعل وردك في الذكر، أو اتركه على حاله.. إلى آخر الوصية.

وقد تكلم على ذلك ابن الحاج في مدخله بأتم كلام، وفرق بينه وبين الفرض في التقصير بما لا أستحضره الآن فانظره إن وجدته، والبيت الأخير واضح، وقد تبين معناه فيما تقدم حيث قال (ولم تكن أسفارهم..الخ) وبالله التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٧٨٣).

الثامن: في حكم السؤال

مضمون هذه الترجمة مراتب الناس في السؤال وذكر آدابه فالناس ثلاثة:

سائل يسأل تذليلًا للنفس وطلبًا لموتها، وسائل يسأل إلحافًا وتكثرًا لما يحصل، وسائل يسأل لينفع أو ينتفع، ولكل حكم يخصه ذكر أوله بأن قال:

(٢٣٤) حُكْمُ السُّؤَالِ عِنْدَهُم مَشْرُوعُ ... طَوْرًا وَطَوْرًا عِنْدَهُم مَمْنُوعُ
(٢٣٥) وَمَا عَلَى السَّائِلِ مِنْ تَأْوِيلِ ... لأَجْلِ قَهْرِ النَّفْسِ والتَّذْلِيلِ
(٢٣٦) فَمِنْ أُولِي الأَذْوَاقِ وَالأَحْوَالِ ... مَنْ كَانَ رَاضَ النَّفْسَ بالسُّؤَالِ
(٢٣٧) وَقَالُوا لا خَيْرَ إذا فِي العَبْدِ ... مَا لَمْ يَكُنْ قَدْ ذَاقَ طَعْمَ الرَّدِّ

قلت: قسَّمَ السؤالَ إلى: مشروع، وممنوع، وبحسب الأحوال والمقصد، وجعل من المشروع ما يتأول به فهي النفس وتذليلها وهو من باب مداواة العلل النفسانية، فإذا كانت في نفس الفقير طنطحة وفجفجة وكبر، ولم يكن ذلك يعني السؤال يوصله إلى ضرر في دينه أو دنياه بوجه واضح، فلا بأس به عندهم مداواةً لعلته، وربما يأمر الشيخ بذلك ولا يجعله منهاجًا وقاعدة كلية يعرف بها فقراؤه، فإنَّ ذلك يؤدي لنقيض المقصود لاسيما مع هيئة مقصودة وكيفية معلومة تصير صاحبها عَلَمًا فيما توجه له فيزيده ذلك تعززًا وفسادًا.

ولذلك قال: ما أنجح من استعمله..! اللهم إلا أن يكون ذلك كما كان يفعله بعض الفقراء وأهل مصر فيما قرب عهده؛ إذ كان إذا أتاه الفقير من أبناء الدنيا ألزمه ذلك من غير شهرة، حتى يأتي على آخر المدينة ثم يتصدق به فقد يكون له وجه.

وما ذكر عن أهل الأذواق والأحوال مسطر في حكاياتهم في كل كتاب فانظره إن شئت. و(راضَ) بفتح الضاد من الرياضة.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري ﷺ في كتابٍ ألَّفَه ولدُه من كلامه: لا يزال الفقير بخير مادام خبزه كسرًا فإذا دارت الخبزة بين يديه دار الشر على رأسه، وما أحسن حال السائل؛ يقف بكل باب فيسمع منه «يفتح الله»[1]. انتهى بمعناه المحاذي للفظة وبعضه به ثم ذكر القسم الممنوع بأن قال:

(٢٣٨) وَمَنَعُوا السُّؤَالَ للتكَاثُرِ بَلْ حَكَمُوا عَلَيهِ بالتَهَاجُرِ
(٢٣٩) وَالقَومُ لَمَّا [يَسْأَلُوا][2] إلحَافَا وَلا تَكَاثُرًا وَلا جُزَافَا
(٢٤٠) بَلْ كَانَ ذَاكَ مِنْهُم اضْطِرَارَا فَيَسْأَلُونَ القُوتَ وَالإفْطَارَا

قلت: أما «تهاجرهم عن سؤال التكاثر» فلأن صاحبه متلبس بمعصية. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا: «من سأل الناس تكثرًا لغير الله فهو أجذم»[3] أي مقطوع الحجة. وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تزال المسألة بالرجل حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم»[4].

و«الإلحاف» الطلب دون احتياج. قال عليه السلام: «من سأل وله أربعون درهمًا

(١) كلمة تقال للسائل في حال عدم إعطائه شيئًا.

(٢) وردت هذه الكلمة في شرح الشيخ زروق بالفعل الماضي (سألوا)، والصواب ما اثبتناه من أصل المتن وشرح الشيخ ابن عجيبة؛ إذ أنَّ «لمَّا» إذا دخلت على الفعل المضارع أفادت النفي، وهذا هو ظاهر السياق.

(٣) أخرجه مسلم (١٠٤١)، وابن ماجة (١٨٣٨).

(٤) أخرجه البخاري(١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠).

فقد ألحف»[1]. الحديث، و(الجُزَاف) أي يسأله لغير حد بل يتخذها حرفة، وباقي الأبيات ظاهر وهو معلوم فلا حاجة بالتطويل، وبالله التوفيق.

ثم ذكر آداب السؤال فقال رحمه الله:

(٢٤١) وَأَدَبُ الصُّوفِيِّ عِنْدَ المَسْأَلَهْ ... أَنْ يَدْخُلَ السُّوقَ إِلَيْهِ يَسْأَلَهْ

(٢٤٢) لِسَانُهُ يُشِيرُ نَحْوَ الخَلْقِ ... وَقَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بالحَقِّ

(٢٤٣) وَكَرِهُوا سُؤَالَهُ لِنَفْسِهِ ... ثُمَّ أَبَاحُوهُ لأَهْلِ جِنْسِهِ

(٢٤٤) وَلَمْ يَعِدُّوهُ مِنَ السُّؤَالِ ... لكِنْ مِنَ العَوْنِ عَلَى الأَعْمَالِ

(٢٤٥) إِذْ كَانَ خَيْرُ الخَلْقِ فِي أَتْرَابِهِ ... يَسْأَلُ أَحْيانًا إِلَى أَصْحَابِهِ

قلت: يعني أن الصوفي إذا احتاج إلى السؤال يتعين عليه أن لا يقصد جهة معلومة بل يسأل في العموم متوجهًا لمن بيده النواصي والقلوب، فإن سأل من جهة معلومة ربما فسد عليه حاله باعتمادها، أو تشوش عليه قلبه باستنادها.

وقوله: (عِنْدَ المَسْأَلَة) أي عندما تباح له. وقوله: (يَدْخُلَ السُّوقَ) إشارة لعدم حصر الجهات. وقوله: (إِلَيهِ) يعني إلى الله سبحانه. والبيت الذي بعده واضح.

قال في «الحكم»[2]: لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق إلا أن ترى أن المعطي فيهم مولاك، فإن كنت كذلك فخذ ما وافقك العلم.

وقيل: من علامة صدق الفقير أن يأخذ الصدقة ممن يعطيه لا ممن جرت له على

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٢٨)، وأحمد في المسند (١١٠٤٤) بلفظ «وله أوقية» والأوقية أربعون درهما.

(٢) «الحكم العطائية»، الحكمة رقم (١٦٣).

يديه، قلت: وعلامة تحققه في ذلك ألا يذم مانعًا، ولا يمدح معطيًا إلا من حيث أمره الله؛ بحيث لا يتعدى الحق في رضاه ولا غضبه. وقد تكلم الشيخ سيدي أبو عبد الله بن عباد رحمه الله على هذه المسألة بأوفى ما يمكن في الحال فانظره.

وأما «كراهتهم سُؤَالَهُ لِنَفْسِهِ» فإن عمدة الطريق الاكتفاء بالله تعالى في الأمور والصبر له حتى يأتي بفرج من عنده، فقد قيل: ما نزلت فاقة بمؤمن فأنزلها بالله فدامت عليه بعد ثلاثة أيام. وفي حكاية بشر الحافي ﷺ لما رأى في منامه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه إذ قال: يا أمير المؤمنين، ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء طلبًا للثواب..! فقال علي ﷺ: وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله تعالى. ويرحم الله القائل:

إذا ما مددت الكف ألتمس الغنى ... إلى غير من قال اسألوني فشلتِ
سأصبر جهدي إن في الصبر عِزَّةً ... وأرضى بدنيائي وإن هي قَلَّتِ

وقال بعض الحكماء: عز النزاهة أشرف من عز سرور الفائدة. وفي الحكم: ربما استحي العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه اكتفاء بمشيئته، فكيف لا يستحي أن يرفعها لخليقته؟! وأنشدوا في المعنى معناه:

أيحسن أني في داركم ونزيلكم ... أوجه يومًا للعباد رجائي
بل إنني ألوي إليك بهمة ... أخلف فيها ما سواك ورائي

وقوله: (ثُمَّ أَبَاحُوهُ لأَهْلِ جِنْسِهِ) يحتمل أنهم أباحوا سؤاله لنفسه من أبناء جنسه، وقد دلت على ذلك حكاياتهم وأحكامهم وذلك لأنه بحكم الصداقة والأخوة مع ما يعلمون من حال أصحابهم من طيب النفس والكسب، ويحتمل أن يريد بقوله «**أن يسأل**

لأهل جنسه» إذا احتاجوا وهو الظاهر من السياق فيكون.

قوله (لَكِنْ مِنَ العَوْنِ) أنهم يعينونهم بذلك، وقد يفهم أن سؤالهم لإخوانهم طلبًا للمعونة للمسألة، والكل صحيح في حالهم، والله أعلم.

وقوله: (فِي أَتْرَابِهِ) يعني هو وأترابه، ثم إنه عنى بهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمقصود كان هو صلى الله عليه وسلم تسليمًا وأترابه الذين هم الأنبياء يفعلون ذلك فلا بأس؛ لأن الأتراب هم الأقران، إلا مع وجود الاشتراك في النبوءة هنا والله أعلم. وإن عنى غير ذلك فلا يفهم.

وقوله (يَسْأَلُ أَحْيَانًا) يعني يطلب منهم الشيء لغيره عند احتياج ذلك الغير وتحقق حاجته كحديث الذين دخلوا عليه مجتابي النِّمار فقال عليه الصلاة والسلام: «تصدق الرجل من ديناره[1]، من درهمه، من صاع بره، ومن صاع تمرة، اتقوا النار ولو بشق تمرة»[2]، وكقوله عليه الصلاة والسلام للنساء في حديث العيد «يا معشر النساء

---

(١) في (أ): دنياه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠١٧) وأحمد في مسنده(١٩١٧٤): عن المنذر بن جرير، عن أبيه، قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال [ص:٧٠٥]: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالا فأذن وأقام، فصلى ثم خطب فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ (النساء: ١) إلى آخر الآية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ (النساء: ١) والآية التي في الحشر: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ (الحشر: ٨١) «تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره – حتى قال – ولو بشق تمرة» قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺيتهلل، كأنه مذهبة، فقال

تصدقن»[1] وهذا في الأمر أظهر منه في الطلب، والكل منه عليه السلام للتشريع وتحصيل الخير للسائل والمعطي وليس على معنى المسألة بل على معنى القيام بالحقوق، والله أعلم.

ثم قال رحمه الله:

(٢٤٦) لَمْ يَتَّصِفْ بِصِحَّةِ السُّؤَالِ ... مَنْ آثَرَ الأَخْذَ عَلَى الإِبْذَالِ
(٢٤٧) وَالشُّغْلُ دُونَ الكَسْبِ بالعِبَادَةِ ... مَحْضُ التَّوَكُلِ وَرَأْيُ السَّادَةِ
(٢٤٨) ثُمَّ السُّؤَالُ آخِرُ المَكَاسِبْ ... وَهْوَ بِشَرْطِ الاضْطِرَارِ وَاجِب

قلت: (صِحَّةِ السُّؤَالِ) كونه على الوجه المستقيم، ومعنى البيت: أن الفقير ينبغي أن يكون العدمُ أحبَّ إليه من التحصيل، وكذلك كان السلف رضي الله عنهم إذا أقبلت الدنيا قالوا: ذنب عجلت عقوبته، وإذا أقبل الفقر، قالوا: مرحبًا بشعار الصالحين، وحكاياتهم في ذلك كثير، ثم من كان البذل أحب إليه من المنع لم يخل عن علة في العطايا والمنع، أعاذنا الله من ذلك بمنه وكرمه.

وقد تراجعت آراء الناس في الكسب والتوكل، والمختار ما ذكر هنا إن كان الكل

رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

قال النووي رحمه الله: « وأما سبب سروره ﷺ ففرحاً بمبادرة المسلمين إلى طاعة الله تعالى ، وبذل أموالهم لله ، وامتثال أمر رسول الله ﷺ، ولدفع حاجة هؤلاء المحتاجين ، وشفقة المسلمين بعضهم على بعض ، وتعاونهم على البر والتقوى. وينبغي للإنسان إذا رأى شيئاً من هذا القبيل أن يفرح ويُظهر سروره ويكون فرحه لما ذكرناه» .

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٢).

متيسرًا فلا نقص في الدين ولا تعب في الدنيا وإلا فكما قال ابن عطاء الله ﷺ[1]: إرادتُك التجريدَ مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاطٌ عن الهمة العلية. وقد تقدم الكلام على ذلك. وآخر كسب المؤمن السؤال كما ورد في الأثر.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا: «إن الله ينهاكم عن وأد البنات، وعقوق الأمهات، وعن منع وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[2] الحديث.

ثم إن الأحكام الثمانية المتقدمة إنما هي مقدمة لهذا الفصل الذي يريد أن يتكلم فيه الآن، فاعتبر ذلك وتأمله حق التأمل وبالله التوفيق وحسبنا ونعم الوكيل.

ثم قال:

❁❁❁

(١) «الحكم العطائية»، الحكمة رقم (٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣).

التاسع: في حكم المريد ومعنى الإرادة وفائدة الشيخ وتدريجه للمريد إلى أن يصير شيخًا

هذا الفصل هو لباب الكتاب وسر الطريقة وعليه مدارها، وكل ما بعده وقبله دائر عليه، وقد ذكر فيه أربعة مواقف لكل موقف معاقد ومعاهد يطول شرحها، فأول ما ذكر موقف التوجه بأن قال رضي الله عنه:

(٢٤٩) فَـإِنْ أَتَـى القَـوْمَ أَخُـو فُتُـونْ وَقَـال يَـا قَـومُ أَتَقْبَلُـونْ
(٢٥٠) تَقبَّلُـوهُ صَادِقًـا أَوْ كَاذِبـا إِذْ كَانَ مَحْتُومًـا عَليهِـمْ وَاجِبَـا
(٢٥١) وَحَـذَّرُوه مِـنْ رُكُـوبِ الإِثْـمِ وَأَمَـرُوه باقْتِبَـاسِ العِلْـمِ

قلت (الفُتُون) جمع فتنة، والمراد بها: الذنوب والعيوب من المعاصي والشهوات والغفلات، وقد يكون (فنون) بالنون جمع فن، والمراد: أخو تشتيت وتفرقة، وكلٌّ صحيح.

وقوله: (أَتَقْبَلُون) إشارة إلى مجيئه بصفة التواضع والانكسار لا بصفة التعزز والاستكبار إنما يجب عليهم قبوله على أي حالة كان من صدق وغيره لأن رده إعانة له على الدوام فيما هو فيه من الغير، وقبوله إن كان كاذبًا تقليل للمفاسد وتعرض لنفحات رحمة الله بالوقوف ببابه ومخالطة أهل الصدق، حتى لعل الله أن يفتح عليه بمثل ما فتح عليهم، إذ المرء من جليسه.

وأما تحذيره من الإثم وتنبيهه على طلب العلم فهو الذي قصدهم لأجله، وذلك مقتضى أهل العهد عندهم. إذ كان مأخوذًا من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه إذ قال

عليه الصلاة والسلام: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرفوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه ولا تعصوا في معروف»[1] الحديث. وتفاصيل هذه الأمور لا تنال إلا بالعلم فلابد للمريد بعد عقد التوبة من طلب علم حاله إذ لا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ (الإسراء: ٣٦) وقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ (النحل: ٤٣) الآية، وقوله عليه السلام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[2].

ولا يجب عليه التوسع في العلم لما فوق حاله من النوازل وغيرها؛ فإنَّ ذلك من فروض الكفاية، ومتى تجددت له نازلة لزمه طلب علمها، وبالله التوفيق.

ثم قال رحمه الله:

(٢٥٢) وَأَمَـرُوه بِالتِـزَامِ الطَّاعَـةِ   وَالمَـاءِ وَالقِبْلَـةِ والجَمَاعَـةِ
(٢٥٣) وَقَـرَّرُوا فِيـهِ شُرُوطَ التَّوْبَـة   وَأَمَـرُوهُ بِلُـزُومِ الصُّحْبَـةِ
(٢٥٤) ثُـمَّ أَمَـدُّوه بِعِلْـمِ الظَّاهِـر   حَتَّـى اسْـتَقَامَت عِنْـدَهُ السَّرَائِـر

قلت: أما «أمرهم إياه بالطاعة والقبلة والجماعة» فلأن الأمر الخاص لا يصح إلا بعد إحكام الأمر العام؛ لأن من لا يصلح أن يكون من عوام المتقين كيف يصلح أن يكون من خواص الموقنين؟! وقد قال الشيخ أبو حامد رحمه الله في صدر «بداية الهداية»: ولكن ينبغي أن تعلم [قبل كل شيء أن][3] الهداية التي هي ثمرة العلم لها بداية ونهاية

(١) أخرجه البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٥٤٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٧٤).

(٣) في (أ): (أن تعلم كل شيء، أن تعلم) والمثبت من (ب) أكثر استقامة.

وظاهر وباطن، ولا وصول إلى نهايتها إلا بعد إحكام بدايتها، ولا عثور على باطنها إلا بعد الوقوف على ظاهرها. انتهى، وهو موافق لما ذكرناه.

ثم المريد في طريقه خارج عن ظلمات متعددة، أكثرها متعلق بعوالم الأجسام فيحتاج أولًا لاشتغال محله بما هو نور موافق لها في وجود الحركة وإلا توهن عزمه وقويت عليه الجواذب الطبيعية فرجع من حينه وانطوى على خبث مع ثبوته، وكلا الأمرين عكس المقصود، فافهم.

وقوله (**وَقَرَّرُوا فِيهِ شُرُوطَ التَّوْبَة**) وأما شروط التوبة **فثلاثة أقسام**:

شروط صحة: وهي ثلاثة: الندم على ما فات، والإقلاع في الحال، والنية ألا يعود أبداً.

وشروط تحقيق: وهي ثلاثة: **تعميم القصد** لأن التوبة وإن صحت مع البقاء على ذنب آخر فصاحبها ناقص وهو عاص من وجه آخر، وقلَّ أن يسلم من العودة لما عنده من أصل المخالفة. **وأداء الحقوق الواجبة لله** من الصلاة والصيام والزكاة والكفارات وغيرها. **ورد المظالم المالية** باتفاق، والعرضية على المشهور وغيرها على ما هو معلوم عن أئمة الدين.

وشروط الكمال وهي ثلاثة: التشمير في المستأنَف بدلًا من التقصير في السالف، والفرار من موارد الفتن بكل وجه أمكن، والحرص على تحصيل الكمال بأي وجه كان.

فمن فاتته شروط الصحة فلا توبة له، ومن فاتته شروط التحقيق فهو عاص وقَلَّ أن يسلم من آفات الانقلاب، ومن فاتته شروط الكمال لم يجد للتوبة لذة ولا يدرك لها

نتيجة، وكل واحدة لا تصح إلا بعد صحة ما بعدها. ثم مرادهم بتقريرها ليس على ما نصينا أو عبرنا بل تحلِّيه بذلك، وأمروه به جملة وتفصيلًا بحسب ما يراه الشيخ أو يتيسر للمريد.

وأما «**أمرهم إياه بلزوم الصحبة**» فلثلاثة أمور:

أحدها: إن صحبة أهل الخير حصنٌ له من الانقلاب، وإبعاد النفس عن التسوف والتشوف لها؛ فإن البعد عن المعاصي يثقل فعلها في النفس، والقرب من الطاعة يهون أمرها على النفس كما هو معلوم.

الثاني: إن علم القلوب إنما يُصاد[1] من الصحبة؛ فإن من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها والطبع يسرق من الطبع من حيث لا يعلم، والمرء على دين خليله، والمؤمن مرآة أخيه، وما كان في المرآة انطبع في المرآة المقابلة لها، فافهم.

الثالث: إن المرء مُبتلى بنفسه، فإذا عمل وحده ربما ظهر له أنه على شيء، وليس كذلك، وربما ظفر منه الشيطان بخيالات، لاسيما والمريدون في بداياتهم تولع نفوسهم بكل أمر لا عادة لهم به، وإن لم تولع به شوش عليهم، فلابد من صحبة أخ صالح أو شيخ ناصح؛ لتحصيل السلامة من الدعوى[2] وغيرها، فافهم.

وأما «**إمدادهم إياه بعلم الظاهر**» فمعناه أنهم لا يلقون له في البداية من الحقائق إلا ما يقع من التشويق والتذكير، ويأمرونه بإحكام حركاته وضبطها على ظاهر العلم دون

(١) في (ب): يصطاد.

(٢) في الأصلين: الدعوة، والمثبت أنسب للسياق.

زائد لأنه مقدور في الحال، فإن هو قدَّم الباطنَ [على الظاهر فاته الباطن والظاهر، ومن طلب الباطن بالظاهر حصل له الباطن والظاهر][1] ومن طلب الباطن والظاهر تحير في الباطن، والظاهر، والظاهر رأس المال وما عداه ربح لذلك أمر به أئمة العلم والدين مجردًا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما لمن سأله أن يعلمه من غرائب العلم «ما فعلت في كذا وكذا لأمور من أحكام الظاهر ثم قال له عليه السلام: اذهب فاحكم ما هنالك وتعالى أعلمك من غرائب العلم»[2]. ثم من أصلح ظاهره على بساط الصدق أصلح الله سريرته لرؤية الحق، والله سبحانه الموفق.

ثم ذكر أول مراتب الانتقال فقال رحمه الله:

(٢٥٥) حَتَّـى إِذا انْقَـادَ إِلى الإِفَـادَةِ ... وَكَادَ أَنْ يَعْلُـوَ لـلإِرَادَةِ
(٢٥٦) إِذْ للمُرِيـدِ عِنْدَهُـمْ حُـدُودُ ... لأَجْلِهَـا قِيـلَ لَـهُ مُرِيـدُ
(٢٥٧) فَعِنْدَهـا رُدَّ إِلى الأَوْرادِ ... كالذِكْـرِ والصَّـوْمِ مَـعَ السُّـهَادِ
(٢٥٨) وَعَامَلـوه بالمُعَامَـلاتِ ... إِذْ عَلِمُـوا مِـنْ نَفْسِـهِ العِـلَّاتِ

قلت: هذا موقف الاستقامة كما أن الذي قبله موقف التقوى، وهو يجري من هذا مجرى الشرط للمشروط فلا يصح إلا بعده.

وعلامة التأمل له: أُنس النفس بالطريق، وطلب الإفادة من كل سهل وصعب

---

(١) ساقط من الأصلين، تخلل موضعه شطب، والمثبت من «الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية» للشيخ عبد الوارث محمد علي، ط/ دار الكتب العلمية.

(٢) أورده أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٤)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٩١).

من غير مبالاة بعالم الجسم ولا غيره، وهو أول مراتب الإرادة ولذلك عبر عنها بعضهم [بقوله][(١)]: الإرادة توديع الوسادة، وأن يهجر رقاده، ويألف سهاده. فأما حدود المريد فتعرف من حدود الإرادة.

وقد قال فيها الشيخ أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن إسماعيل المهدوي في كتابه «مقامات السالكين»: الإرادة من قوانين هذا العلم وجوامع أبنيته، وهي إجابة دواعي الحقيقة طوعًا، وهي على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: ذهابٌ عن العادة بصحة العلم، وتعلُّقٌ بأنفاس السالكين في صحة القصد، وخلعُ كلِّ شاغل من الإخوان ومشتتٍ من الأوطان. والدرجة الثانية: تقطع بصحة الحال والأنس، والسير بين القبض والبسط. والدرجة الثالثة: دخولٌ مع صحة الاستقامة، وملازمةُ الرعاية على تهذيب الأدب.

انتهى، وبه تعرف حال المريدين وحدوده فافهم.

وبحسب ما ذكر، فالمجاهدة والمكابدة والرياضة مبادئها من أول مراتبه، وأصولها أربعة: الجوع، والصمت، والخلوة، والسهر؛ كل واحد ينفي علة وداءً.

قال أحمد بن عاصم ﷺ أعداؤك أربعة: الشيطان وسلاحه الشبع وسجنه الجوع، والهوى وسلاحه الكلام وسجنه الصمت، والدنيا وسلاحها لقاء الخلق وسجنها الخلوة، والنفس وسلاحها النوم وسجنها السهر. انتهى على تقديم فيه وتأخير، ثم هذه الأربعة المطلوب منها ما لا يخل بالحال، ولا يؤدي إلى الضرر وذلك ينضبط بوجود الأهمية؛ فإذا

---

(١) سقط من (أ) مثبت من (ب).

كان الجوع أهم من الشبع لم تأكل فوق ما يكفيك، وإذا كان الصمت أهم من الكلام لم تتكلم إلا بما يعنيك، وإذا كانت الخلوة أهم من الجلوة لم ترتح للقاء الناس، وإذا كان السهر أهم عليك من النوم لم تنم فوق الحاجة، والإفراط من كل شيء مضر؛ فمن الجوع مخل بالفكرة، ومن الصمت مخل بالحكمة، ومن السهر يؤدي إلى الحمق، ومن الخلوة يؤدي إلى الاختلال، ويرحم الله صاحب البردة حيث يقول:

وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ ... فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ

ثم اعلم أن هذه الأربعة هي مصقلة القلب، ولا تفيد واحدة منها دون صاحبتها، ولكل منها ميراث يوافقه ومعاملة تليق به حسب مزاج صاحبه الطبيعي والمعنوي، وبالله التوفيق.

ثم قال رحمه الله:

(٢٥٩) وَلَمْ يُحِيلُوه عَلَى الحَقِيقَةِ ... إِذْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَوْفِي الطَّرِيقَةِ

(٢٦٠) لَكِنْ أَحَالُوه عَلَى الأَعْمَالِ ... لأَجْلِ مَا فِيهَا مِنَ النَّوَالِ[١]

(٢٦١) إِذْ الطَّرِيقُ العِلْمُ ثُمَّ العَمَلُ ... ثُمَّ هِبَاتٌ بَعْدَهَا تُوَصِّلُ[٢]

قلت: (ولم يُحِيلُوه) لم يطلعوه على الحقيقة، أي على علمها لأن ذلك يوجب له التقصير في الأعمال للأنس بما يجده من لذة الحقائق ويوقفه[٣] على علمها دون التحقق بها، وكلاهما مضرٌّ به ما لم يكن منصبغ النفس بالطريقة انصباغًا لا يمكنه الانفكاك عنها؛

(١) وردت في شرح الشيخ زروق «المنال».

(٢) وردت في أصل المتن بلفظ (تؤمل).

(٣) في (أ): ويوقفها، والمثبت من (ب) وهو أنسب.

لأن من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ولتعرية الحقيقة عن الشريعة عنده، أو جعلها محلًّا أو تبعًا في نظره، وأيضًا فإن الأعمال متضمنة وجوه الآمال.

وقوله (**إذ الطَّريقُ..إلخ**) واضح بمراتب السلوك أحكام العلم، ثم إتقان العمل، ثم فتوح الغيب؛ فمن قدم واحدًا على الآخر فقد أخذ بحقيقة طلبه ومطلبه، وقلَّ أن يجيء منه شيء إلا بعد جهد جهيد إن أصلح، والله أعلم.

ثم بعد مرتبة الاستقامة والتأديب ينتقل إلى مرتبة الرياضة والتهذيب وهو الذي ذكره فقال رحمه الله:

(٢٦٢) **حَتَّى إِذَا أَحْكَمَ عِلْمَ الظَّاهِرْ ... وَأَبْصَروا القَبُولَ فِيهِ ظَاهِرْ**
(٢٦٣) **أَلقَوْا إِليهِ مِنْ صِفَاتِ النَّفْسِ ... مَا كَانَ فِيهِ قَبْلَهَا مِنْ لَبْسِ**
(٢٦٤) **وَهِي وَإِنْ أَنْكَرْتَهَا فَلْتَعْرِفْ ... إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَقِيلَ نَيِّفْ**
(٢٦٥) **فَجَرَّعُوهَا أَكْؤُسَ المَنُونِ ... وَهِي تُنَادي كَيْفَ تَقْتُلُوني**

قلت: «**إحكامه لعلم الظاهر**» بظهوره فيه علمًا وتحليًا بحيث تكون كل حركة وسكنة منه مضبوطة به، فحينئذ صار قابلًا للاشتغال بعلم الباطن تحصيلًا وتحليلًا إن كان أهلًا له من حيث طبعه وجملته وإلا بحسب ما ظهر من حاله يشغلونه بمعالجة النفس وتطهيرها من خبائث الأخلاق والأعمال الباطنة التي أصولها ثلاثة: الرضا عن النفس، وخوف الخلق، وهمُّ الرزق.

فيتولد من الأول: الشهوة والغفلة والمعصية، ومن الثاني: الغضب والحسد والحقد، ومن الثالث: الحرص والطمع والبخل، ولكل منها ثلاثة تتولد منه، ولكل من

الثلاثة ثلاثة حتى تنتهي للتسعين ونيفًا.

وقد ذكر العلماء تفاصيل أصولها مع أنه لا حصر لفروعها، ولكن التزام أصل واحد ينفي جميعها وهو عدم الرضا عن النفس في جميع الأحوال، والحذر منها في عموم الأوقات.

قال في «الحكم»: أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدمُ الرضا منك عنها، ولأن تصحب جاهل لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالمًا يرضى عن نفسه، فأي علم لعالم يرضى عن نفسه؟ وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟!

قلت: وذلك أن الراضي عن نفسه لم ينصح لنفسه فكيف ينصح لك؟ والمرء لابد له في تعرف عيوبه من بصيرة يبصر بها وإلا فهو مبتلى بالغفلة عنها وإن عمل ما عمل، ولذلك احتاج الناس المشايخ والإخوان، وكل من صدق الله في التبرؤ من نفسه بَصُرَ بعيوبها، ثم إن صدق في طلب التنصل منها أعانه عليها، ثم إن صدق في الانحياش إليه كفاه ما أهمه، وبالله التوفيق.

وموت النفس لا يكون إلا بثلاثة: عزلها عن مرادها بحيث لا تتحرك ولا تسكن إلا بتحقيق نية توافق العلم من غير هوى قائم، ثم الإعراض عن كل ما تلتذ به في عالم الأجسام والطباع والعلوم والأعمال والمعاني والمباني والحقائق، ثم ترك الإنسان بما يصل إليها من ذلك أو من غيره.

ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ: ولن يصل الولي إلى الله تعالى حتى تنقطع عنه شهوة الوصول، يعني انقطاع أدب واستسلام لا انقطاع ملل، كذا قال ابن عطاء الله ﷺ.

ومن هذا القبيل دعا الشيخ عبد السلام بن مشيش ﷺ حيث قال: اللهم إني أعوذ بك من برد الرضا والتسليم كما تستعيذ بك أقوام من حرِّ المعصية والتدبير. ولذلك سَأله[١] الشيخ أبو الحسن ﷺ قال: أخاف أن تشغلني حلاوتها عن الله تعالى[٢]. ومنه قال الواسطي رحمه الله: استحلاء الطاعات سم قاتل، وقد تكلم عليه في «التنوير» بأتم كلام، ونقله ابن عباد بنصه وحروفه عند قوله: وجدان ثمرات الطاعات عاجلًا، والله أعلم.

وقوله: (فجَرِّعُوها..إلخ) إشارة وتنبيه، وإلا فلا قول. وقوله (والمَنُونِ) الموت، وبالله التوفيق.

ثم بعد مرتبة التهذيب تهيأ لوجود التقريب فاحتاج للعمل في سببه فلا معارض ولا عارض، وهي التي افتتحها بأن قال ﷺ:

---

(١) أي سأله في ذلك الأمر.

(٢) ذكر تاج الدين سيدي أحمد بن عطا الله في (لطائف المنن) إنَّ الشيخ أبا الحسن ﷺ قال: كنت في مبدأ أمري قد حصل لي تردد هل ألزم البراري والقفار للتفرُّغ للطاعة والأذكار أم أرجع للمدائن والديار، لصحبة العلماء والأخيار، فوصف لي وليٌّ برأس جبل، فصعدت إليه فما وصلت إليه إلا ليلا فقلت في نفسي: لا أدخل عليه في هذا الوقت فسمعته يقول من داخل المغارة: اللهم إن قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك فسخرت لهم خلقك فرضوا منك بذلك، اللهم إني أسألك اعوجاج الخلق علي حتى لا يكون لي ملجأ إلا إليك. فالتفت إلى نفسي فقلت: يا نفسي انظري من أين يغترف هذا الشيخ. فلما أصبحت دخلت عليه فقلت: يا سيدي كيف حالك؟ فقال: أشكو إلى الله شكواي من حرِّ الاختيار. فقلت يا سيدي: أما شكواي من حرِّ الاختيار والتدبير فقد ذقته وأنا الآن فيه وأما شكواك من برد الرضا والتسليم فلماذا؟ قال: أخاف أن تشغلني حلاوتها عن الله تعالى. قلت: يا سيدي سمعتك البارحة تقول: اللهم إنهم سألوك أن تسخر لهم خلقك فسخرت لهم خلقك فرضوا منك بذلك اللهم إني أسألك اعوجاج الخلق علي حتى لا يكون لي ملجأ إلا إليك فتبسم ثم قال: يا بني عوض ما تقول سخر لي قل يا رب كن لي. أترى إذا كان لك يفوتك شيء؟. أ.هـ.

(٢٦٦) فَعِنْدَمـا مَالـتْ إلى الـزَّوَالِ أُدْخِـلَ فِي خَلْـوَةِ الاعْتِـزَالِ
(٢٦٧) وَقِيـلَ قُـلْ عَـلَى الـدَّوَامْ: اللهُ وَاحْـذَرْ كَطَـرْفِ العَـيْنِ أَنْ تَنْسَـاهُ[1]
(٢٦٨) وَوَكَّلَ الشَّـيخُ بِـهِ خَدِيـمَا يُلْقِـي إليـه القَـوْلَ وَالتَّعْلِيـمَا
(٢٦٩) وَقِيـلَ إِنْ تَكْتِـمْ مِـنْ الأَحْـوَالِ شَـيْئًا سَـلَكْتَ سُـبُلَ الضَّـلالِ
(٢٧٠) فَلَيْـسَ عِنْـدَ القَـوْمِ باللَّبِيـبِ مَـنْ لَمْ يَصِـفْ شَـكْوَاهُ للطَّبِيـبِ

قلت: «ميلُ النفس إلى الزوال والخمود» خمود بشريتها؛ بحيث لا تتحرك إلا بحق لحق في حق عن حق، وهو موتها أيضًا؛ لكن خمودها للمريدين وموتها للعارفين، وفرق بين الموت والخمود لأن الخمود يقضي بوجود الشيء وكمونه، والموت يقضي بفنائه وانقطاعه، وكثير ما يقع الغلط للمريدين في هذا الطور فيظنون أن نفوسهم ماتت فيأمنون حركاتها فلا يشعرون إلا وقد تحركت عليهم بما لم يكن لهم في حساب، نسأل الله العافية.

و(الخَلْوة) عبارة عن التزام محل يضبط عالم الجسم عن التورع في التصرف فينضبط عالم القلب عن التشتيت لأن الجسم باب القلب، ولا تصح الخلوة إلا بالعزلة وهو إفراد القلب لما يريده من المطالب دون تعريج على غيره، فإذا صح ذلك عينت الحقيقة بذكر المتوجه إليه، وهو عند القوم ذات المعبود الحق الله سبحانه، فيحتاج صاحب هذه الخلوة لذكره تعالى على الوجه اللائق بجلاله، فمنهم من يدخل الخلوة بقوله: (**سبحان الله**)، ومنهم من يدخلها بقوله: (**لا إله إلا الله**)، ومنهم من يدخلها بقوله: (**الله.. الله**)، ومنهم من يدخلها بـ(**لا إله إلا الله وحده لا شريك له**).. الخ. وهي خلوة الشيخ أبي مدين ﷺ

(١) وردت في شرح الشيخ زروق (واحذر بقدر طرف عين تنساه) والموافق للسياق ما أثبتناه من أصل المتن.

في نفسه كما ذكره الشيخ محيي الدين، وخلوة الشيخ الإمام الغزالي ﷺ بقوله (**لا إله إلا الله الملك الحق المبين الحي القيوم**) كما أشار إليه في باب الذكر من كتاب «الأربعين» له إلى غير ذلك.

ومقصود الخلوة ثلاثة: إفراد الوجه، ونفي العوارض، وتمكين الحقيقة من كليته، وذلك لا يصح إلا بعد ثبوت المذكور، ونفي ما سواه عند عروضه فيحتاج صاحبها لقلب مفرد فيه توحيد مجرد؛ ليلزمه ذلك إلى الأبد إذا ما أردت أن يلزمك فالزم ملزوميته.

وأما «**توكيل الشيخ به الخديم**» فليكون أجمع له وأعون.

ومعنى (**يُلْقِي إِليه القَوْلَ وَالتَّعْلِيمَا**) أي فيما يحتاج إليه من عوارض خلوته التي يذكرها أو يرى أنها لازمة له، لا أنه يدخل عليه شيئًا من عنده في حاله أو غيره لأن ذلك مفرق له. وشرط الخديم الموصل إليه أن يكون قريبًا منه في الجمع؛ لئلا يشوش عليه بقوته إن كان أعلى أو بتشتيته إن كان أدنى، فإن لم يكن فلا يدخل عليه إلا بصورة من الجمع وإلا أفسد عليه، والله أعلم.

وأما اشتراطه عليه ألا يكتم شيئا من أحواله وعوارض خلوته فلأنه إن قبل ما يلقى إليه دون الشيخ فإما سلك بنفسه في بقية خلوته فكوشف بها فبقي معها، أو قبل ما لا يصح قبوله مما يظنه نورًا وهو ظلمة ونزل به ما لا يعرف له وجهًا فيحير فيه أو في رده إن كان من قبيل ما يرد، فلا بدَّ له من ذكر أموره كلها في هذا الطور لانجماعه؛ لأن الشيء اليسير يورث فيه الأمر الكثير؛ إذ البصيرة كالبصر أدنى شيء يقع فيه يمنع النظر ويشوش الفكر، فافهم.

ولما كان الشيخ بمنزلة الطبيب والمريد بمنزلة العليل لم يصح لواحد منهما الغفلة ولا الكتمان عن صاحبه فيما يرجع للعلة زيادة أو نقصانًا ورجاءً وغير ذلك، فإن فَعَلَا وإلا فالطبيب غاش والمتطبب ضار لنفسه، والله أعلم.

ثم بعد الخلوة ومبانيها توجه لفائدتها ومعانيها فقال رحمه الله:

(٢٧١) فَلَمْ يَزَلْ مُسْتَعْمِلًا للذِّكْرِ فَيَصْمُتُ اللِّسَانُ وَهْوَ يَجْرِي
(٢٧٢) وَقَدْرَ مَا تَجَوْهَرَ اللِّسَانُ بالاسْمِ يَسْتَثْبِتُهُ الجَنَانُ
(٢٧٣) ثُمَّ جَرَى مَعْنَاهُ فِي الفُؤَادِ جَرْيَ الغِذَا فِي جُمْلَةِ الأَجْسَادِ
(٢٧٤) فَعِنْدَمَا حَاذَى أَمِيرَ[1] القَلْبِ لَوْحُ الغُيُوبِ وَهْوَ غَيْرُ مُحْبِ
(٢٧٥) فَأَدْرَكَ المَعْلُومَ وَالمَجْهُولا حَيْثُ اقْتَنَى لِدَرْكِهَا قَبُولا

قلت: يعني أن المريد في حال خلوته يقطع نظره عما عدا ذكر اللسان حتى يصير له بمثابة النَفَس في جريانه مجرى من غير اختيار ولا قصد، ثم تأخذه القوى النفسانية من طريق العادة والطبع فتنصبغ له انصباغًا يعني بجريانه منها ولو صمت اللسان، ثم تضعف تلك القوة ويبقى ما تحقق به اللسان من صورته الظاهرة على أصله فيجري عليه أيضًا من غير قصد ولا اختيار ولا إمكان انفكاك لتمكنه منه، وهو متجوهر به، فإذا تجوهر اللسان بالذكر صار القلب مستثبتًا -أي متفطنًا- لما يذكره اللسان، وطالبًا على تحصيل مقصده وحقيقته، فإذا انصبغ بها انصباغًا لا يمكنه الانفكاك عنه تجوهر في القلب فصار يجري بالذكر وإن صمت اللسان، وكان ذلك بمثابة جري الغذاء في الأجساد يسري سريانًا لا يتفطن له وتوجد به قوة لا يعرف وجهها، غير أنه إن فقده

(١) وردت في شرح الشيخ زروق (مرآة).

وجد أثره فعلم سريانه ونفعه بذلك، فإذا حصل له ذلك اتسعت ميادين أنواره ومواقف أسراره، فبدا له من نور الحق ما كشف له الوجود، وذلك نتيجة إفراد وجهته وهو أمر لا شعور له به حتى يجده من نفسه كسائر المناولات وإن كانت مفهومة في قالب التمييز والحكمة بل كما قال القائل:

فـــإذا نظـــر إليـــه وبـــدا ذات مـــرأى
كل شيء يظهـــر لـــه فيـــه ولا يـــدري كيـــف طـــرا
يحتـــاج أن يشـــدد يديـــه عـــاد يرجـــع لـــورا

وحاصل هذه المواقف: أنه يطلع على مخبئات الغيوب على حسب قوته وبقدر استعداده، فإما من طريق الفراسة والتخييل، أو من طريق الكشف بالتمثيل، أو من وجه الإفادة والتعليم؛ لأن قلبه صار مرآة والوجود يلجأ له أبدًا، غير أنه لإعراضه عن صور الأثر تعرض عليه، وقد تعرض عليه ليعرض عنها وهو حكمه، أو لا يعجب بها، ولتوجهه لمخبئاته تعرض عليه مغيباته فيدرك المعلوم عند الناس على حقيقته دون احتياج إلى دليل، والمجهول عنده على الحقيقة من غير افتقار إلى برهان سواء تشكل له ذلك في عوالم التصوير أو ظهر له بطريق الكشف العلمي.

وإلى هذا المعنى أشار ابن عطاء الله ﷺ حيث قال[1]: الكائن في الكون ولم تفتح له مدائن الغيوب مسجونٌ بمحيطاته، ومحصور في هيكل ذاته. انتهى.

ثم بعد هذا الكشف قد تزل قدم المريد بالولوع ببعض ما رأى فيوكل إليه ويكله فيتشتت فيه، وقد يثبته الله الحق سبحانه بالتزام أصل طريقه من طلب مطلوب واحد

---

(١) «الحكم العطائية»، الحكمة رقم (٢١٤).

ليس في شيء من الوجود الخارجي كما أشار إليه المؤلف إذ قال رحمه الله:

(٢٧٦) حَتَّى إِذَا جَاءَ لِطُورِ القَلْبِ خُوطِبَ إِذْ ذَاكَ بِكُلِّ خَطْبِ
(٢٧٧) فَقَالَ لَوْ عَرَفْتَنِي بَكَوْنِي قِيلَ إِذًا فَاخْلَعْ نِعَالَ الكَوْنِ

قلت: يعني أنه يتخطى كل ما يأتي إليه من صور الأكوان وحقائق الكشف مغضيًا عنه متوجهًا لما هو فيه، غير أنه لا يخرج من موقف حتى يبدو له منه ما هو مقصوده باعتبار وقته وهو في كل ذلك خائف من مقته كما أشار إليه الشيخ أبو الحسن الششتري رحمه الله حيث قال:

وأيما ذا تلقى من الجمال كن وجودًا ما وارق إلى الجلال

وبالجملة فكل مورد فيه مخاطبات وتنزيلات ومقامات كلها خارجة عن مقصوده وإن كانت مصحوبة به يكشف له ذلك منها فراغ مدده المودع فيها حتى إذا انتهى لطور القلب واستعار له الطور لأنه محل المخاطبات، أعني مخاطب العوالم اللطيفة للعوالم اللطيفة لأن من ظنّ أن الله تعالى يكلم أحدًا من البشر بعد الأنبياء عليهم السلام كما كلم موسى عليه السلام فهو ضال كذا قال سيدي أبو محمد المرجاني رضي الله عنه قال: وإنما المكالمة عند القوم عبارة عن مخاطبة عوالمهم اللطيفة. وفي ذلك يقول الشيخ الششتري:

اسمع كلامي وافهم/ / إن كنت تفهم
لأن كنزي قد عرى/ / عن كل طلسم
من المكلم والكلم/ / عن طور الإفهام

فجعل المتكلم عبارة عن التلقي في بساط الفهم.

وقد قال ﷺ: «كان يكون في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي فعمر منهم»[1]، والمحدث هو الذي يخاطب الأشياء على سبيل الإلقاء بنوع من الإلهام هو أعلى أنواعه، فافهم.

وقوله (**فقال لو عرفتني..إلخ**) أشار به إلى أن حالة المريد إذا صارت لبساط المحادثة وكان مطلبه في تعرف وجوده، لأنه المقصود الأول الذي دخل لأجله فلا يزال متشوقًا له حتى يرى أن شغله بالأكوان هو الذي صحبه عن معرفة كونه فينفيها عن قلبه بوجه لا يمكنه قبوله بعد كما قال الششتري رحمه الله:

قطع الكمين/ / نقصد فيه سره

طرح الكونين/ / عن قلبه بمره

خلع النعلين/ / لترق لحضرة

مدار ذلك على ما أشار إليه بعضهم في بيتين حيث قال:

بين التذلل والتدلل نقطة ... في حجمها يتحير النحرير

هي نقطة الأكوان إن جاوزتها ... كنت المراد وعندك الإكسير

يعني المراد للحضرة الربانية وعندك الإكسير الذي يقلب به صباغ الحقائق إلى حقيقة ما عنده، ومن هذا المقام يدخل إلى وادي الفناء لشعوره أنه من الأكوان كما نبه عليه إذ قال رحمه الله:

(٢٧٨) ثُمَّ فَنَى عَنْ رُؤْيَةِ العَوَالِمْ ... فَلَمْ يَرَ فِي الكَوْنِ غَيرَ العَالِمْ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٩٨)، والترمذي (٣٦٩٣)، والنسائي (٨٠٦٥).

قلت: وذلك هو خلعه للنعلين، وكما قال ذلك في فنائه عن نفسه في وجودها والذي دعاه لذلك ما أشار إليه ابن عطاء الله بقوله[1]: أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون. فافهم، فإذا تمكن في مقام الفناء عاد الفناء عنده عدمًا لاستغراقه بالحقيقة كما أشار إليه المؤلف إذ قال رحمه الله:

(٢٧٩) ثُــمَّ انْتَهَــى لِفَلَــكِ الحَقِيقَــةْ   فَقِيــلَ هَــذَا غَايَــةُ الطَّرِيقَــةْ

قلت: إنما كان غاية الطريقة لأن مقام الحقيقة طمس في طمس ليس لشيء مع ظهورها نسبة والطريقة لابد فيها من مشاهدة النسب، وقد عبر ابن عطاء الله عن هذا التدريج بأتم عبارة فقال رضي الله عنه[2]: شعاع البصيرة يشهدك قربه منك، وعين البصيرة تشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة تشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك، كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان. انتهى.

فشهود قربه يقضي بتعرف وجودك؛ هل أنت عامل عليه أم لا؟ ورؤيته عدمك لوجوده هو الموجب لإطراح الكون عن قلبك لأن العدم لا يصح التعلُّق به لعاقل، وظهور الحقيقة هو الماحي لوجود كل موجود ومعدوم، فافهم وتفهم وتأمل ذلك مع ما ذكرناه من تقرير كلام ابن عطاء الله في تعليقتنا الأخيرة، وبالله التوفيق.

ثم إن شاهد الحقيقة يقضي له بالمحق والاضمحلال، وذلك أمر لا يصح له إثباته فوجب أن يكون محوًا، الفرق بينهما أن المحق ذهاب بالكلية والمحو مع بقاء الأثر لا يعتبر

---

(١) «الحكم العطائية»، الحكمة رقم (٢١٥).

(٢) «الحكم العطائية»، الحكمة رقم (٣٥).

وهو أمر لابد منه عند التحقيق ولكنه من بساط الحقيقة أتم وأعلى كما قال رحمه الله:

(٢٨٠) ثُـمَّ امْتَحَـى فِي غَيْبَـةِ الشُّـهُودِ وأَطْلَـقَ القَـوْلَ أَنَـا مَعْبُـودِ

قلت: يعني أنه لما غاب في شهود الحق امتحى وجوده فلم يشعر بالإيجاد والخلق -وإن كان عارفًا- مع أنه من وجود الحق أي أنه مخلوق موجود، بل غلب عليه في الحقيقة ما أنساه وجود وجوده كما أشار إليه ابن عطاء الله في باب الشكر حيث قال: وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق وفني عن الأسباب بشهود مُسبِب الأسباب فهذا عبد مواجه بالحقيقة ظاهر عليه سناها سالك للطريق قد استولى على مداها غير أنه غريق الأنوار مطموس الآثار قد غلب سكره على صحوه وجمعُه على فرقه، وفناؤه على بقائه، وغيبته على حضوره، وأكمل منه عبدٌ شرب فازداد صحوًا... الخ. وسنذكره إن شاء الله.

وقوله (وأَطْلَقَ القَوْلَ أَنَا مَعْبُودِ) الإطلاق العرفي لا يصح ولا يجوز على حقيقته؛ لإيهامه الاتحاد والحلول، ثم فيه إن سلم من ذلك من إساءة الأدب وقلة المبالاة بحرمة الربوبية، وإن كان صاحبه إنما تكلم بحقيقة ما يوجب الأدب إن كان مغلوبًا والسلب إن كان صاحيًا، لكن من حيث المعنى يكون على أحد **وجوه ثلاثة:**

أحدها: أنه يقول: كل ما أدركته من حيث الصفات وغيرها إنما ينتهي علمي فيه لوجودي لا لمعبودي؛ إذ لا يبلغ كنه صفته الواصفون ولا يصح في وصفه غير الكمال، فكل ما أثبت له من الكمالات المقتضية لظهور العبودية مني لم أبلغ فيها حقيقة وصفه وإن عرفت اتصافه به، فافهم.

الثاني: أن يشهد عين الحقيقة؛ فإن فعله أثر وصفه ووصفه لازم لذاته فليس إلا هو، وأفعاله راجعة إليه وليس إلا هو وحده، فظهر هنا بالوجود الجائز في وجود الحق بحيث لا يبقى له ذكر معه كما أشار إليه ابن عطاء الله بقوله[1] لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته، وبقوله أيضًا: الأكوان ثابتة بإثباته وممحوة بأحدية ذاته، فافهم.

الثالث: أن يظهر له من التصريف وإطلاق الحكم بالوجود ما يقتضي له من الكرامات بأن يرى نفسه في محل النيابة والخلافة كما أشار الله الحديث «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به..الخ»[2]. وما فيه قصة الخضر عليه السلام شاهد للمقامات الثلاث إذ قال في الأول: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ (الكهف: ٧٩) وفي الثاني: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ (الكهف: ٨١)، وفي الثالث: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ (الكهف: ٨٢) وهو محل الفرق في عين الجمع الآتي بعد، إن شاء الله.

وقد جرت هذه العبارات منه إما لقصد التعليم أو لحكم التصريف أو بحسب المواقف مع كماله في الكل وعدم نقصه بحال، والله أعلم.

ثم بعد هذه الحالة يشعر بوجوده كما قال:

(٢٨١) حَتَّــى إِذَا رُدَّ عَلَيــهِ مِنْــهُ　　　أَدْرَكَ فَرْقًــا حَيــثُ لَمْ يَكُنْــه

قلت: يعني أدرك فرقًا بينه وبين معبوده إذ لا يصح أن يكون العابد معبودًا ولا المعبود عابدًا، فعاد إلى الصحو من سكره.

(١) «الحكم العطائية»، الحكمة رقم (١١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، والبيهقي في السنن (٦٣٩٥).

وقد ذكر الششتري ﷺ جميع ما ذكرناه في هذه المراتب الأخيرة في مقطعة هي من أوضح مقطعاته إذ قال فيها:

من بداك بالفضل منه// لا تعدي القصد عنه
واطلبوا في كل مظهر// كلٌّ به في الوصف تظهر
وإذا ما أردت تجبر// اقرأ مسطورك وتطهر
لك علم من لدنه// شق ثوب الوهم شقا
ترتفع عنك المشقا// إن منك إليك شقا
وافن عن ذاتك وترقى// لمقام أنت منه
فإذا حققت ذاتك// وانتفى بادي صفاتك
قف على طور سيناتك// واجعل المحبوب حياتك
وافن فيه حتى تكنه// إياك أن تقل أناه
واحذر أن تكن سواه// خمره لمن هواه
وافن عن ذاتك تراه// واطلبوا فيها تجده
قل لي يا عبدًا محقق// كم تدور وكم تحلق
على ذا الخلق المخلق// يقتلوك إن بحت بالحق
قلت قتلي فيك صلاح

قوله: «يقتلوك إن بحت بالحق» يعني وقتله من حيث إطلاق اللفظ الموهم لا من حيث ما دل عليه من التحقيق، ولذلك قال الشيخ محيى الدين: إن القاضي على قائل تلك الكلمة بها وقع له من الأمور، لما هو من إضافة الحق لنفسه فلو أضاف للحق نفسه بحيث

قال «هو» لبرأ من الإيهام وخرج عن إشارة الأدب ولكن ليقضي الله أمرًا كان مفعولا، فتأمل ذلك وبالله التوفيق.

مبادئ النزول حيث قال رحمه الله:

(٢٨٢) فَرُدَّ نَحْوَ عَالَمِ التَّخْيِيلِ[١] وَعَبَّرُوا عَنْ ذَاكَ بِالنُّزُولِ
(٢٨٣) وَرَدُّه بِالحَقِّ نَحْوَ الخَلْقِ كَيْ مَا يُؤَدِّي وَاجِبَاتِ الرِّقِّ

قلت: رجوع [السالك][٢] بعد وصوله في عين تمسكه بوصوله هو شعور بالخليقة من بساط الحقيقة، ولما ذكر ابن عطاء الله مراتب الوصول على مقتضى طريقه قال رضي الله عنه: فصارت الحضرة معشش قلوبهم إليها يأوون وفيها يسكنون فإن نزلوا إلى سماء الحقوق وأرض الحظوظ فبالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة ولا الحضوض بالشهوة والمتعة، بل دخلوا في ذلك بالله ولله ومن الله وإلى الله ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ (الإسراء: ٨٠) ليكون نظري بحولك وقوتك إذا أدخلتني واستسلامي وانقيادي إليك إذا أخرجتني ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٠) ينصرني وينصر بي ولا ينصر عليّ، ينصرني على شهود نفسي ويعينني على دائرة حسي.

وقال أيضًا في باب المناجاة: إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فأرجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها، مصون السر عن

(١) وردت في أصل المتن (التحويل) .

(٢) وردت في (أ) السلوك والمثبت من (ب).

النظر إليها، ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها، إنك على كل شيء قدير. انتهى.

واعلم أن هذ الطريق المذكور هو طريق الصقل وكالإشراق المتقدم ذكرُه أول الكتاب، ويتفق مع كل طريق في المقدمات والمتمات والمواريث ويختلف معها في وجه التوجه؛ فهذه بالخلوة والذكر الاصطلاحي وغيرها بما يؤدي الحقيقة من علم أو عمل أو همة أو حال، والمدار كله على ما قاله الشيخ أبو الحسن الششتري رحمه الله حيث قال:

اترك الحظوظ وأجرد/ / واذهب للتخلي

واخلع العلائق تكسى/ / حلة[1] التحلي

واقصد الوجود المطلق/ / تظفر بالتجلي

وتسقى حمى الأسرار/ / خمرا دون عصارة

وتظهر عليك الأنوار/ / وتصفو العبارة

ولهذا البيت الأخير أشار المصنف حيث قال:

(٢٨٤) فَكَلِّمَ النَّاسَ بِكُلِ رَمْزِ وأَلْغَزَ التَّعْبِيرَ أَيَ لُغْزِ

قلت: وإنما احتاج إلى الرمز تقريبًا للمعاني حتى يصير الشيء القريب يؤدي المعنى الواسع العجيب وليبقى للذوق محلًّا، فإن كشف الحقائق وأيضاحها يؤدي لابتذالها.

وقد قال ابن العريف رحمه الله: إن الحكمة إذا بطنت خصت أهلها فدامت ونفعت وإذا ظهرت عمومًا أنكرها من ليس من أهلها فانقطعت، وارتفعت داعية اللغز في النفس لئلا تحل الحكمة إلى غير أهلها وهو أمين على الأسرار، فلا يحل له بذلها لغير ذي النُّهى والأفكار.

(١) في (أ): حلية.

ومن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

ثم العبارات لا تفي بالحقائق فإخراجها في قالب الإشارة أولى وأسلم من الاعتراض والله أعلم.

ثم عند انتهاء المريد لهذا الحد صار شيخًا ولو لم يكن له مريد ولا ظهرت عليه إمدادات بل بلوغه هذه المرتبة بمثابة بلوغ الصبي الحلم يصير به رجلًا ولو لم يولد له، ولا تزوج. والحاصل أنه صار فيه أهلية المشيخة كما نبه عليه المؤلف إذ قال رحمه الله:

(٢٨٥) وَعِنْدَمَا أَسْلَكَهُ المَسَالِكْ أَقَامَهُ شَيْخًا لِكُلِّ سَالِكْ

قلت: يعني لكل سالك سلك على طريقه سواء كان هو المسلوك له أو غيره بطريقته أو جرى عليها والله أعلم، وهذا كله إنما ذكرناه على سبيل التقريب والتعريف بهذا الأمر الغريب ليعرف به الصادق من المريب والله المسئول في العافية بمنه وكرمه.

ثم قال:

(٢٨٦) فَهَذِهِ أَحْوَالُ ذِي الأَحْوَالِ تُدْرَكُ بالأَفْعَالِ لا الأَقْوَالِ
(٢٨٧) فَهَكَذَا كَانَ طَرِيقُ القَوْمِ وَلَمْ يَزَلْ يَخْصِمُ كُلَّ خَصْمِ
(٢٨٨) وَهِيَ إِذَا مَا حُقِقَتْ مَوَارِثْ عَنْ خَيرِ مَبْعُوثٍ وَخَيرِ وَارِثْ

قلت: يعني أن كل ما ذكره تبيانًا وأوضحه عيانًا فلا يغني عنه الخبر دون الذوق ولا مقدمة له غير العمل لذلك قال الجنيد رحمه الله: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال والمراء والجدال إنما أخذناه عن الجوع والسهر وكثرة الأعمال. وأنشدوا في معنى ذلك بتضمين المصاقل الأربعة المذكورة في مرتبة المريد مع المشايخ:

يا من يريد مراتب الإجلال ... من غير قصد منه للأعمال
لا تطمعن بها فلست من أهلها ... ما لم تزاحمهم على الأحوال
بيت الولاية قسمت أركانه ... ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتزال دائم ... والجوع والسهر النزيه الغالِ

وقوله (يَخْصِمُ كُلَّ خَصْمِ) يعني أنه بهذه المثابة حُجَّة على كل منكر بصورته فضلًا عن أن يحتاج إلى دليل لكن قد يقال من أين هذه الكيفية؟ فيقال: الخلوة ثابتة بفعله عليه السلام في غار حراء وإن كان قبل ظهور النبوة لا على معنى أن ذلك تسبب فيها فإن القول به كفر وبعيد عن الحقائق، بل كما قال السلمي ﷺ: وإن خلوته عليه الصلاة والسلام إنما كانت لقوة الوارد الذي واجهه لإلقاء أعباء الوحي وغيره من أسرار الحق، فافهم.

ثم بعد السهر والخلوة كلام في المواجيد ولا مدخل فيها للإنكار إلا من حيث الحرمان والتعرض لمقت الله نسأله سبحانه العافية ثم قال:

(٢٨٩) وَهَكَـذَا الشَّـيخُ عَـلَى التَّحْقِيـقِ ... إِذْ كَانَ مِثْـلَ سَـالِكِ الطَّرِيـقِ

قلت: يعني سالك الطريق الخبير بها والمسلك عليها، لما تقدم في أوصاف الشيخ وحقيقته وقد تقدم فيه ما فيه كفاية ثم قال:

(٢٩٠) وَمَـنْ يَكُـنْ بِهَـذِهِ الأَوْصَـافِ ... شَـيخًا وَتِلْمِيـذًا فَعَـنْ إِنْصَـافِ

قلت: يعني الإنصاف له واجب بحيث يُقتدى به ويُحتذَى في بابه، ويرحم الله عمر بن الخطاب حيث يقول: إلى الله أشكو لضعف الوزير وخيانة الأمير. ولكن من ليس

له في هذا الميدان مجال فليقنع بطيف الخيال ويتمسك بظاهر التقوى والاستقامة مؤثرًا العافية والسلامة، والله الموفق للصواب.

ثم ختم الفصل بأن قال:

(٢٩١) فَهَـذِهِ لَـوَازِمُ الأَحْـكَامِ   جِئْنَـا بِهَـا تَـتْرَى عَـلَى نَظَـامِ
(٢٩٢) وَمَـا ذَكَرْنَـا فَهْـوَ كَالقَلِيـلِ   إِذْ اخْتَصَرْنَـا خَشْـيَةَ التَّطْوِيـلِ

قلت معنى (تَتْرَى): تتبع بعضها بعضًا من التحيز لأنه مفتاح التمييز. فإن قلت: هل يصح دخول الخلوة والسلوك على هذا الأسلوب بغير شيخ؟ قلت: نعم، ولكنه متعذر النجاح لقوة العوارض وكثرتها، فلذلك قيل: إن الشيخَ واجبٌ في هذه المجاهدة، دون مجاهدة التقوى والاستقامة، وقد تقوى همةُ مريدٍ في ذلك ولا يجد شيخًا فليحكم على ذلك ويتوقف في الثبات والترك على رأي أخ صالح ذي بصيرة سليمة، ثم يقوم مستعينًا بالله سبحانه؛ فإن الله سبحانه يمنحه على قدر همته بفضله.

فأما الرياضات والخلوة الاصطلاحية التي يذكرها الشيخ أبو العباس البوني فأسلمُها ما يتعلق بالذكر المجرد، وقد قربه في كتاب «القبس» وذكره من غير تقييد بأكل ولا صوم ولا كيفية ولا سبب، فاعمل به إن شئت بعد تحقيق علمه، وبالله التوفيق.

ثم قال رحمه الله.

الفصل الرابع

في الرد على من رده وليس يدري شانه وقصده

قلت: مدار هذا الفصل على تشويق المجانِب لهذه الطريقة، وتذكيره بما فاته من حق وحقيقة، وتوبيخه على ذلك دون تقدم فصل الاحتجاج والانتصار أول الكتاب والله أعلم.

قال رحمه الله:

(٢٩٣) هَـذَا الطَّرِيـقُ مِـنْ أَجَـلِّ الطُّـرُقِ ... فَافْهَـمْ هُدِيـتَ وَاقْتَـدِهْ بِنُطْـقِ

(٢٩٤) إِنَّ العُلُـومَ كُلَّهَـا المَعْلُومَـة ... فُنونُهَـا فِي هَـذِهِ مَتْهُومَـة[1]

(٢٩٥) إِذْ العُلُـومُ فِي مَقَـامِ البَحْـثِ ... وَإِنَّ هَـذَا فِي مَقَـامِ الإِرْثِ

(٢٩٦) وَمُنْكِـرُوهُ مَـلأٌ عَـوَامُ ... لَمْ يَفْهَمُـوا مَقْصُـودَهُ فَهَامُـوا

قلت: شرف العلم على قدر شرف متعلقه، ومتعلق هذا العلم أشرف المتعلقات لأن مبدأه التوحيد الداعي إلى خشية الله، ومنتهاه إفراد القلب والقالب لله تعالى على وجه يكون فيه اليقين من البيان في معدّ العيان، فلذلك قال الجنيد رضي الله عنه: لو أعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه. وسئل الجنيد أيضًا عن العلم النافع فقال: أن تعرف ربك ولا تعدو قدْرك. قلت: وهذا هو المقصود من علم القوم، والله أعلم.

---

(١) وردت في شرح الشيخ زروق بلفظ (مفهومة) ولعله تصحيف من الناسخ إذ أن سياق الشرح جاء بلفظ (متهومة) ووفي شرح الشيخ ابن عجيبة أيضا (متهومة) فلذلك أثبتناه،والله تعالى أعلم .

وقال الشبلي ﷺ: ما ظنك بعلمٍ العلماء فيه تهمةٌ؟ يعني أنه في معد العيان وغيره في محل التهم، وهذا ما أشار إليه في هذا النظم، والله أعلم. فكيف بعلم الفقه والأصول ونحوهما من علوم الدين؟ فالجواب: إنهما منه إذ إنما تراد كلها لتحقيقه لأن مداره أن يكون العبد بحالة يرضاها الله ورسوله في ظاهره وباطنه، وذلك محتو على جملة الشريعة، فافهم.

وقد تكلم على ذلك وبَيَّنه في رسالة من الرسائل الكبرى لابن عباد رحمه الله فانظره في القواعد التي أمليناها في هذا الفن، من ذلك طرف مبارك وبالله التوفيق.

و(**العامي**) هو الذي لا يعرف العلم، وكل جاهل بعلم فهو عامي باعتباره ومعنى (**هاموا**) تحيروا؛ لعدم معرفتهم، وإلا فالحق واضح وفساد الفاسد إليه يعود، ولا يقدح في صلاح الصالح شيئًا.

ثم قال ﷺ:

(٢٩٧) وَكُلُّ مَنْ أَنْكَرَ مِنْهُ شَيئا ... فَإِنَّمَا ذَاكَ لِسَبْعٍ أَشْيَا
(٢٩٨) لِجَهْلِهِ بِنَفْسِهِ الشَّرِيفَةْ ... وَكَوْنِهَا فِي أَرْضِهِ خَلِيفَةْ
(٢٩٩) وَجَهْلِهِ بِالعَالَمِ المَعْقُولِ ... وَشُغْلِهِ بِظَاهِرِ المَنْقُولِ
(٣٠٠) وَسَهْوِهِ عَنْ عَمَلِ القُلُوبِ ... وَالخَوْضِ فِي المَكْرُوهِ وَالمَحْبُوبِ
(٣٠١) وَالجَهْلِ بِالحَلالِ وَالحَرَامِ ... وَالمَيْلِ عَنْ مَوَاهِبِ الإِلْهَامِ[1]

قلت: هذه السبعة هي الموجبة للإنكار في الجملة، فمنها ما يعم ومنها ما يخص؛

(١) وردت في شرح الشيخ زروق بلفظ (مذاهب الإفهام) ولعله تصحيف من الناسخ إذ أن سياق الشرح جاء بلفظ (المواهب الإلهامية) ووفي أصل المتن أيضا (مواهب الإلهام) فلذلك أثبتناه، والله تعالى أعلم.

فأما الأول: وهو الجهل بمقام النفس وجلالة قدرها فعام؛ لأن من عرف للنفس خاصية تدرك بها العلوم وتصل بها إلى أعلى المراتب الدينية والدنيوية طلب ذلك من وجهه، ولا وجه له إلا التجرد عن عالم الخيال، وليس له ذلك إلا بدخول هذه الطريقة علمًا وعملًا.

وأما الثاني: وهو عدم الشعور بوجود الخلافة القاضية لعموم التصرف وظهور الكلمة فلأن من شعر به لا يمكنه القعود عنه طلبًا للكمال، وليس ذلك إلا على هذه الطريق.

وأما الثالث: وهو التقيد بظاهر المنقول دون تعريج على المعقول، وهي رتبة الجامدين من الفروعية الذين يرون الإكمال بعد تحصيل المنقولات وضبط المقولات فهو حجابهم لأنهم إن شعروا بما وراء ذلك طلبوه وعظَّموه وسلَّموه.

وأما الرابع: وهو السهو عن عمل القلوب فمن قصور النظر وهي رتبة أصحاب الأعمال الذين لا يرون فوقها مأمولًا ولا يعرفون غيرها وصولًا، ولو شهدوا ذلك لما تحيروا، ولأتوا إليه وبادروا.

وأما الخامس: وهو الخوض في الأمور والاشتغال بما اتفق كيف اتفق، فإن ذلك حجابهم عن الحق لأنهم يرون كل شيء داخلًا تحت القياس، وما لا يدخل تحت القياس لا يسلمونه، وإن سلموه سلموه على خلاف حقيقته فأنكروا الوصول إليه على الوجه القريب، وربما جوزوه بالأمر الغريب فخرجوا عن المقصود.

وأما السادس: وهو الجهل بالحلال والحرام فلأن من تحقق ما يجب عليه وما يجوز له لا يتهاجم على الكلام فيما لا يعلمه ردًا وقبولًا، فلا يصح إنكاره، وعكسه إما محقق جازم أو جاهل مُسَلِّم.

وأما السابع: وهو عدم التعريج على المواهب الإلهية فمن ضعف الإيمان لأن الإيمان بالفتح لا يكون إلا بفتح، ومن ثمَّ قالوا: الإيمان بطريقة الله ولاية. وقد قال بعض العلماء رحمه الله: الاعتقاد ولاية والاعتراض جناية، فإن عرفت فاتبع وإن جهلت فسلم. وقد تقدم الكلام في تعريف النفس وشرفها أول الكتاب[1] فلا نطول بإعادته، وبالله تعالى التوفيق، ثم قال:

(٣٠٢) وَاعْلَمْ بِأَنَّ عُصْبَةَ الْجُهَّالِ ... بَهَائِمٌ فِي صُورَةِ الرِّجَالِ
(٣٠٣) وَمَنْ أَبَاحَ النَّفْسَ مَا تَهْوَاهُ ... فَإِنَّمَا مَعْبُودُهُ هَوَاهُ
(٣٠٤) تَاللهِ مَا يَجْمُلُ باللَّبِيبِ ... جَهْلُ البَعِيدِ مِنْهُ وَالقَرِيبِ
(٣٠٥) كَيفَ يُرَى فِي جُمْلَةِ السُّبَّاقِ[2] ... مَنْ حَظُّهُ مِنَ الْحُظُوظِ بَاقِ

قلت: أراد بـ(الجُهَّالِ) من جهل قدر نفسه كما قال ابن عطاء الله[3]: ولأن تصحب جاهلًا لا يرضى على نفسه خير لك من أن تصحب عالمًا يرضى عن نفسه، فأي علم لعالم يرضى عن نفسه وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه. انتهى، وهو معنى البيت الأول، وأشار به لأول من تقدم ذكره في الأقسام السبعة.

ثم نبه على ما بعده بقوله: (وَمَنْ أَبَاحَ النَّفْسَ..إلخ) وهم الذين سهوا عن عمل القلب[4] فمن بعدهم، وأشار بآخر البيت لقوله تعالى: ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ (الفرقان:

(١) أنظر صـ ١١٢ عند قول الناظم «قالوا بأن النفس كالمرآة».

(٢) وردت شرح الشيخ زروق بلفظ (حَلَبَةِ السِبَاقِ) والصواب ما أثبتناه من أصل المتن.

(٣) «الحكم العطائية»، الحكمة رقم (٣٤).

(٤) في (ب): القلوب.

٤٣)، ولما قال بعضهم: الهوى شرُّ إلهٍ عُبد في الأرض. والبيت الأخير لجملة ما ذكروا ، والله أعلم و(الحلبة): الجماعة المتداركة في السباق وغيره، والحظوظ: الأعراض النفسية وهي حائلة دون كل خير.

قال في «الحكم»: كيف يشرق قلبٌ صور الأكوان منطبعة في مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟ انتهى، وهو موافق لما ذكر عند التأمل.

ثم زاد في التوبيخ فقال رحمه الله:

(٣٠٦) مَتَى يَجِدْ جَوَاهِرَ المَعَانِي — مَنْ قَلْبُهُ عَلَى الدَّوَامِ عَانِي
(٣٠٧) لَمْ يَتَصِلْ بِالعَالَمِ الرُّوحَانِي — مَنْ عُمْرُهُ عَلَى الفُضُولِ حَانِي
(٣٠٨) لَيْسَ يُرَى مِنَ المَعَالِي[1] دَانِ — مَنْ قَلْبُهُ مِنْ عَالَمِ الأَبْدَانِ

قلت (العاني) الأسير، ويعني أسير الشهوات. و(الحاني) المُكِبُّ[2] المقبلُ بكليته. ومعنى (مَنْ قَلْبُهُ مِنْ عَالَمِ الأَبْدَانِ) بمعنى أنه مشغول بعوالم جسمه من الأكل والشرب والجماع وطلب الرياسة والارتفاع.. إلى غير ذلك.

ثم قال:

(٣٠٩) مَتَى تَرِقُّ مَادَةُ المَوْضُوعِ — يَأْخُذُ نَجْمُ الدَّرْكِ فِي الطُّلُوعِ

---

(١) وردت في أصل المتن (مع المعاني)

(٢) في (ب): الكَلِب.

قلت: يعني أن بقدر رقة مادة عالم الأبدان تضعف الزيادة في القلوب، وبقدر ما يقوى عالم الأبدان تضعف عوالم القلوب.

قال الشيخ أبو الحسن الششتري رحمه الله:

تركك لنفسك// كشف الغطا

فافنَ ودع حبًا// وتبقى حي

يشغلك عن ذاتك// وتنحجب

ويجعل أوقاتك// كلها شغب

فاصقل لي مرآتك// ترى العجب

يريك أش ما // ثم صقل المراي

من في الفنا يرجع// صاحب الخبير

انتهى عرضنا منه وهو كالبيان لهذا البيت ولما فوقه، و(العَالَمِ الرُّوْحَانِي) تقدم الكلام عليه أول الكتاب وكذلك جملة ما معه وهو واضح، وبالله التوفيق.

ثم قال:

(٣١٠) يَا حَسْرَتِي إِذْ لا نُجِدُّ رَاكِبْ   يَصْحَبُنَا فِي هَذِهِ المَرَاكِبْ
(٣١١) يا مَعْشَرَ الإِخْوَانِ هَلْ مِنْ سَائِلْ   أُخْبِرُهُ عَنْ هَذِهِ المَسَائِلْ
(٣١٢) وَأَسَفًا يَا فِتْيَةَ الوصُولِ   عَنْ انْصِرَامِ حَبْلِهَا المَوْصُولِ
(٣١٣) لَوْ أَبْصَرَ الشَّخْصُ اللَّبِيبُ العَاقِلْ   لَمْ يُعْتَقَلْ عَنْ هَذِهِ المَعَاقِلْ

(٣١٤) يَا صَاحِبَ العَقْلِ الحَصِيفِ الوَافِرْ إِيَّـاكَ أَنِ تَصْدِمَـكَ الحَوَافِـرْ[1]
(٣١٥) لَقَـدْ غَـدَا الكَـوْنُ عَليكَ سَـافِرْ إِذْ لَمْ تَكُـنْ فِيـهِ كَـمَا المُسَـافِر
(٣١٦) يَـا مُوْثَقًـا فِي وَثَـقِ المَهَالِـكْ[2] تَزْهُـو أَرَاكَ اليَـوْمَ زَهْـوَ المَالِـكِ
(٣١٧) يَـا مَـنْ أُعَانِيـهِ عَـلَى الـدَّوَام حَتَّـى م أَجْفَـانُ الـدَّوَا دُوَّام
(٣١٨) كَـمْ أَنْـتَ ذُو وَسَـائِدٍ عِـرَاضِ لَاهٍ عَـنْ الجَوْهَـرِ بالأَعْـرَاضِ

قلت: تأسف أولًا بفقدان المساعد والمعين والمصاحب والمرافق والموافق إذ لم يجد أحدًا في وقته إلا مشغولًا بدنيا أو مفتونًا بدعوى، وإن كان الزمان لا يخلو منهم أقل من القليل وأعز من العزيز، وأغرب من عنقاء مغرب، وكيف تصح كثرتهم بعد قول الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ (ص: ٢٤)، ويرحم الله القائل:

غريـب عن الخلان في كل بلدة إذا عظـم المطلـوب قل المسـاعد

ثم في قوله: (يا مَعْشَرَ الإِخْوَانِ) تنبيه على فقدان السائل عنها والمعتني بها، وهو الذي صرح به في البيت الثالث.

فاخـتر لنفسـك صحبـة مـن غيرهـم وقــع الإيــاس وخابــت الآمــال

وما ذاك إلا من عمى البصائر وفقد نور السرائر كما نبه عليه بقوله: (لَوْ أَبْصَرَ الشَّخْصُ.. إلخ) ومعنى (يعتقل) يحتبس، و(المعاقل): مواضع العقل أي الاحتباس وهي المواقف، أو مجاري العقل وهي المعقولات. و(الحَصِيفُ): المتقن المحكم. و(الوافر): الكامل.

---

(١) ورد هذا البيت في شرح الشيخ زروق بلفظ (الوافي ، الحوافي) في نهاية مصراعي البيت ولامعنى لـ (الحوافي) يفيد السياق وما أثبتناه من أصل المتن .

(٢) وردت في شرح الشيخ زروق «المهالك».

وقوله: (إياك..الخ) معناه لا ترضى لنفسك بالدون من الأمور؛ فإن قيمة كل امرئ ما يحسن. وقوله: (لقد غدا..إلخ) معناه ما تقدم من كلام الحكم الكائن في الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته ومحصور في هيكل ذاته. و(السّافر): الخالي الذي لا شيء فيه. ومعنى (يكون فيه كالمسافر) أن تكون دائمًا في انتقال وفي حل وترحال واطلاع على ما لم يخطر لك ولا لغيرك ببال، كحال المسافر في الحس، فافهم.

وقوله: (مُوْثَقًا.. الخ) الموثق: المربوط. و(الوثق) جمع وثاق وهو ما يربط به. و(الممالك) الأشياء المملوكة من الدنيا وغيرها؛ فإنها مملوكة لمن حصلت له وهو بها من حيث التحقير، ولمن لم تحصل له إذا تعلق قلبه بها من حيث إرادة التحصيل كما قال في الحكم: أنت حرٌّ مما أنت عنه آيس، وعبدٌ لما أنت له طامح. وفيها أيضًا: ما أحببت شيئًا إلا كنت له عبدًا وهو لا يحب أن تكون عبدًا لغيره. و(تزهو) معناه: ترتفع وتتعاظم من أجل ما ملكت مما هو ملك لك، ولله در القائل حيث قال:

فهب أنك ملكت الأرض طرا ... ودان لك العباد فكان هذا
ألست تصير في لحد مضيق ... ويحثو الترب هذا بعد هذا

ثم أي فائدة فيمن غاية ملكه ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (الملك: ٥١) فافهم.

وقوله (يا من أُعَانيه على الدَّوَامِ..إلخ) أشار لمن ترك المداواة مع تمكن العلل، وأن ذلك من سوء الحظ وغَبْيِ العقل. و«الوساد العريض»: عبارة عن قلة الفهم ومنه في الحديث «إن وسادك لعريض»[1] على هذه التأويلات، وإن كان المرتضى خلافه.

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٥٠٩)، وأبو داود (٢٣٤٩) «عن عدي بن حاتمٍ قال: لما

وقوله (لاهٍ) من اللهو والسهو. و(الجوهر): عبارة عما يدوم ويثبت هنا وله حقيقة في نفسه أعني العلم والعمل والفتح الإلهي، وكأنه استعاره من اصطلاح المتكلمين لا أنه على حقيقته بما يجري في اصطلاحهم. و(الأعراض): الأمور التي لا ثبات لها ولا دوام؛ لأن العرض لا يبقى زمانين إلا الزمان الفرد، وفي الحكم: العجب كل العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له منه ويطلب ما لا بقاء له معه ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦) انتهى فافهمه حقه، وبالله التوفيق.

ثم بعد هذا التفريع[1] شرع في التنبيه والتعريض فقال:

(٣١٩) مَتَـى تَعَدَّيـتَ عَـنِ الأَجْسَـامِ	أَبْـصَرْتَ نُـورَ الحَـقِّ ذَا ابْتِسَـامِ
(٣٢٠) مَهْـمَا ارْتَقَيتَ عَـنْ قَبِيلِ الحِسِّ	أَدْرَكْـتَ فِي نَفْسِـكَ مَعْنَـى النَّفْسِ
(٣٢١) يَـا مَـنْ عَـلَى القِشْرِ غَـدَا يَحُومُ	حَتَّـى عَـلَى اللُّـبِّ مَتَـى تَصُـومُ؟
(٣٢٢) يَـا مَـنْ إِذَا قِيـلَ لَـهُ تَعَـالَ	لِمَنْهَـجِ التَّحْقِيـقِ قَـالَ: لَا لَا
(٣٢٣) يَـا جَاهِـلًا مِـنْ دَارِهِ سُـكْنَاهَا	وَهْــوَ يُــؤَدِي أَبــدًا كِرَاهَــا
(٣٢٤) أَتَـدْرِي مَنْ أَنْـتَ؟ وَكَيْفَ تَدْرِي	وَأَنْـتَ قَـدْ عَزَلْـتَ وَالِي الفِكْـرِ
(٣٢٥) يَـا سَـابِقًا فِي مَوْكِـبِ الإِبْـدَاعِ	وَلا حِقًــا فِي جَيْــشِ الاخْــتِرَاعِ
(٣٢٦) اعْقَـلْ فَأَنْـتَ نُسْـخَةُ الوُجُـودِ	للهِ مَـا أَعْــلَاكَ مِــنْ مَوْجُــودِ

قلت: هذا كله استنهاض واستحثاث وإلا فما فيه من المعاني المقصودة قد تقدم

نزلت هذه الآية: (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود، قال: أخذت عقالًا أبيض وعقالًا أسود، فوضعتهما تحت وسادتي، فنظرت فلم أتبين، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فضحك فقال: «إن وسادك لعريضٌ طويلٌ، إنما هو الليل والنهار»، وقال عثمان: «إنما هو سواد الليل وبياض النهار».

(١) في (ب): التعريف.

ذكره أول الكتاب في الفصل الثاني.

ثم قوله (مَتَى تَعَدَّيتَ) معناه أنك متى لم تكن مهتمًا بعوالم الجسم وقائمًا معها ظهرت لك بوارق نور الحق، وقد تقدم قريبًا قول الشيخ أبي الحسن الششتري رضي الله عنه: تركك لنفسك كشف الغطاء.. إلخ[1].

وقوله (مهما ارتقيت عن قبيل الحس) هو معناه بعينه إلا في جوابه لأن الأول فيه كشف نور الحق وهذا كشف حقيقة النفس، وقد تقدم عند قوله: «**قالوا بأن النفس كالمرآة**». فانظره.

و(**النَّهْج**): المنهج، وهو الطريق. وقوله (**لا.. لا**) يعني بلسان حاله؛ إذ[2] يتعلق في النهوض ونحوه. ومعنى (**جهله بمسكنه من داره**): جهله بمرتبته في الوجود ومقامه.

و(**هو يؤدي كراها**): أي هو عامل فيما يصل به لأعلى المراتب ولا يصل إليها لأن حركاته وسكناته لو عقلها حق التعقل لأوصلته أعلى درجات أهل المعرفة لكنه لم يعقل فكان في أقل درجات النقص، وقد مثله الشيخ ابن عباد رحمه الله في ذلك بمثابة من في يده ياقوتة في ليل مظلم وهو يظنها عقرب لا يزال منها خائفًا ولا يصل بها إلى مقصد.

وقوله (**يا سائقًا**) من السَّوْقِ. و(**الموكب**): الركوب المعرض ونحوه الوجود كله مركب ركب فيه الموجودات لعرض أحوالهم. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٢) فمن أحسن فسابق، ومن لم يحسن فسائق وقد يكون

(١) أنظر صـ٢٥٦.

(٢) في (أ): إذا، والمثبت من (ب).

(سابقًا) بالباء الموحدة وهو إشارة إلى أنه مقدم بأنه أبدع المخلوقات فكان أولها في الرتبة ولاحقًا في المرتبة؛ لأنه آخر العوالم ظهورًا كما هو مذكور عند أهل الأخبار والله أعلم. وعلى هذا فالتنبيه على شرفه بكونه أولًا وآخرًا، والله أعلم.

وقوله: (اعقل فأنت نسخة الوجود.. إلى آخره) معناه: أن مقابلة وجودك بالعالم كله دليل على وجود شرفك عليه، وإلى هذا أشار الشيخ أبو الحسن الشستري رحمه الله قال:

البدر فيك يدور// يضيء ويلمع

والشموس والبدور// فكيف تغيب وتظلم

فاقرأ معنى السطور// التي فيك أجمع

لا تغادر سطرا// من سطورك وادري

ايش معنى القمر// الذي فيك يسري

وقد أفرد الشيخ محيي الدين لمقابلة النسختين -نسخة العالم والإنسان كتاب «التدبيرات» وأتى فيه بعجائب وغرائب فعليك به، مع الحذر في مهاويه فإن فيه عبارات قلَّ أن يسلم منها ضعيف العلم. والله المسئول لنا ولكم العافية والتوفيق بمنه.

ثم نبه على ما يتعلق بالنسخة بذكر أعلاه فقال:

(٣٢٧) أَلَيْسَ فِيكَ العَرْشُ والكُرْسِيُّ وَاللَّوْحُ[١] وَالعُلْوِيُّ وَالسُّفْلِيُّ

قلت: (العَرْشُ) عبارة عن الروح لأنها محل التجلي وجامع وجود الإنسان.

(١) وردت في أصل المتن «العالم».

(والكُرْسِيُّ) السر الذي فيه ظهور المعلومات، و(اللَوْحُ): قابل التشكيلات من عوالم القلب. و(العُلْوِيُّ): جميع ما يتعلق بالروحانيات. (وَالسُّفْلِيّ): جميع ما يتعلق بالجسمانيات.

فقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: ألا إن الروح سماوية والنفس أرضية. وتقدم من كلام الشيخ أبي العباس المرسي ﷺ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤) روحًا وعقلًا ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ نفسًا وهوى. وتقدم أيضًا قول الشاعر:

إِذَا كُنْتَ كُرْسِيًّا وَعَرْشا وَجَنَّة وَنَـارًا وَأَفْـلاكا تَـدُور وَأَمْـلاكَا

بقية الأبيات المذكورة في أول الكتاب فافهم وتفهم واعتبر، واعلم أن إدراكك هو من حيث التصور والقياس غير مفيد في تأثير الحقائق لكن من حيث الذوق والمنازلة، والله أعلم.

ثم قال المؤلف رحمه الله:

(٣٢٨) مَـا الكَـوْنُ إِلّا رَجُـلٌ كَبِـيرُ وَأَنْـتَ كَـوْنٌ مِثْلُـهُ صَغِـيرُ

قلت: هذه مقابلة كل بكل من حيث التمثيل، وفي معناه أنشدوا:

دواؤك فيـك وتسـتكبر وداؤك منـك وتسـتكثر
وتزعـم أنـك جـزء صغـير وفيـك انطـوى العـالم الأكـبر

ثم في كلام الششتري ومن نحا نحوه من المشايخ ما ينبه على مقصود ما ذكر بأوجز الوجوه ولكن فيها ما يحتاج لفهم دقيق وقلب سليم ودين قويم؛ فبالديانة يجتنب

الإطلاق وبالقلب السليم يجتنب الأغراض وبالفهم الدقيق يصل إلى المقصود، وقلَّ أن يصل إلى المقصود من اعتمد الباطن وحده أو أقام الظاهر محجةً بل الظاهر حجة والباطن محجة؛ الظاهر للمعاملة والباطن للمواصلة، ومن لم يتأدب بأدب الشريعة فقد أعان على مقت نفسه، والقوم في محل الكمال فخذ ما تعرف وسلم ما لا علم لك به، والسلام.

ثم قال رحمه الله:

(٣٢٩) فَأَنْتَ لَسْتَ مِنْ قَبِيلِ الأَرْضِ حَتَّى إِذا أُرْسِيتَ فِيهَا تَمْضِ

قلت: يريد أن روحك ليست بأرضية حتى إذا مت ذهب وجودك بالكلية بل الروح باقية حسبما أجمع عليه أهل السنة، وإليه أشار الشيخ الششتري رحمه الله حيث يقول:

لا تحسبوني نبلًا/ / وتسكن القبور

سري مازال يجلى/ / في بستان الصدور

والحضر بي أولى/ / ما بين بنين وحور

وهذا في ظني/ / وقصدي لا يخيب

قوله «سري ما زال يجلى» أشار به لانتقال علمه وحاله من طور إلى طور، وهذا مدار العالم الروحاني بدليل قِرَانِهِ بـ«الصدور» التي هي محل العلم لا ما يعطيه ظاهر الكلام من التناسخ، فإن القول به ضلال وباطل.

ويؤيده أيضًا قوله: «وهذا في ظني» وأنه يرجو من الله دوام النفع بعلمه وحاله ولو كان المراد خلافه لما قال ذلك لأنه معتقد عند قائله مجزوم به، أعاذنا الله تعالى من الضلال ومن فهمه عن سادات الرجال بمنه وكرمه.

ثم حضَّ على عين المقصود بقوله رحمه الله:

(٣٣٠) احْتَلْ عَلَى النَّفْسِ فَرُبَّ حِيلَة أَنْفَعُ فِي النُّصْرَةِ مِنْ قَبِيلَة

قلت: الحيلة عليها بالمكابدة أولًا ثم بالمجاهدة ثانيًا ثم بالرياضة آخرًا. وقد تقدم معنى ذلك ووجهه وكيفيته في مواضع غير أن في هذا المحل إشارة لأن مقاواة النفس ومقاومتها بعيد عن التحصيل.

وقد نبه على ذلك الإمام أبو حامد في «المنهاج» قائلًا: إنما الراحلة إن استأصلتها أهلكتها وإن غفلت عنها لم تنتفع بها. هذا معنى كلامه وبالله التوفيق.

ثم عاد للتنبيه والتوبيخ والاحتجاج فقال:

(٣٣١) يَا مُنْكِرَ المَعْقُولِ وَالمَعَانِي مَا الصُّنْعُ فِي أَمْثِلَةِ القُرْآنِ

قلت: يعني بأمثلة القرآن نحو قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ (الرعد: ١٧) على ما ذكره المفسرون، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (النور: ٣٥) الآية على ما بينه العلماء، وقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ (الطلاق: ١٢) الآية، على ما هو مسطور في كتب الأئمة من السلف رضي الله عنهم.

ثم قال المؤلف رحمه الله:

(٣٣٢) بُعدًا أَرَى فِيكَ عَنْ الإِشَارَةْ هَلْ تُنْكِرَنَّ رُؤْيَةَ العِبَارَةْ(١)

قلت: يعني أن إشارة الحق تعالى لعبده بعالم المنام تدل على أن هناك ما لا يدخل

(١) وردت في أصل المتن (رواية العبارة).

تحت قياس العقل فإنكار[1] ذلك من بُعْدِ الأفهامِ عن الحقائق.

ثم قال المؤلف رحمه الله:

(٣٣٣) يَـا جَاهِـلًا أَقْـصَى الكَـمَالِ وَقْفَـا عَـلَى عُقُـولٍ وَهُمُهَـا لا يَخْفَـى
(٣٣٤) أَوَّلُ أَطْـوَارِكَ مُنْـذُ أَوَّلِ فِي الحِـسِّ والتَّمْييـزِ وَالتَخَيُّـلِ
(٣٣٥) فَالعَقْـلُ والفِكْـرُ مَعًـا والذِّكْـرُ هَيْهَـاتَ بَـلْ وَرَاءَ ذَاكَ طَـوْرُ
(٣٣٦) مَـا نَالَـهُ الجُمْهُـورُ والـرُّوَادُ وَإِنَّـمَا يَنَالُـهُ الأَفْـرَادُ
(٣٣٧) مُنْفَعِـلًا يُدْعـى وَمُسْـتَفَاداَ وَعَقْـلَ تَخْصِيـصٍ لِمَـنْ أَرَاداَ
(٣٣٨) وَحَيْـثُ فِيـهِ يَنْتَهِـي الـوَلِيُّ فَمِـنْ هُنَـاكَ يَبْتَـدِي النَّبِـيُّ
(٣٣٩) وَفِيـهِ تُجْلى جُمَـلُ المَعَـارِفْ فَمَـنْ رَآهَـا قِيـلَ فِيـهِ عَـارِفْ

قلت: أشار بما ذكر لأن الحس من وراء طور العقل في مراتبه أطوار من وراء أطواره ما يسلمه ولا ينتهي إليهن فإن في العقل إثبات ما فوق طوره وهي رتبة العماء؛ إذ نهاية عقل التعقل إثبات نفس المتعقل لا وجه التعقل.

ولذلك قيل: العقل آلة العبودية. وقال بعضهم: لما انطبعت الصور في مرآة الخيال قال العقل: أنا الفلك المكوكب. فقالت له الرياضة: الزمني تعرف قدرك. فإذاً العقل عقال.

ثم باقي الأبيات واضح، وما ذكر من الاصطلاح في التسمية لا أعرفه؛ لعدم مخالطتي لعلم الأوائل وحاصله أنه رتبة من العقل رأيت في كتاب «مرقى الزلف»[2]

(١) في (أ): (فأنكر) والمثبت من (ب).

(٢) لعله كتاب "مراقي الزلف" في تربية الأولاد للقاضي ابن العربي المالكي المتوفى سنة ٥٤٣ هـ، وهو يعد من

عن الحسين ابن منصور ما يدل عليها وهو أنه جعل العقول ثلاثة: عقل غريزي وعقل مكتسب وعقل موهوب وهو الذي يشير إليه هنا، والله أعلم.

ولا شك أن أكبر الأولياء في مواهبه لا يصل أدنى شيء مما وهبه الله لبعض أنبيائه، وإن كان للولي نسبة من إرثه فالنسب مفروضة والله الموفق.

ثم قال المؤلف رحمه الله:

(٣٤٠) وَهَـذِهِ مَيَادِنُ الأَبْطَالِ　　لَيْسَتْ لِكُلِّ جَبُنٍ بَطَّالِ
(٣٤١) هَلْ يَصْلُحُ المَيْدَانُ للجَبَانِ　　هَلْ يَكْمُلُ الزَرْعُ بِلا إِبَّانِ
(٣٤٢) مَا أَنْكَرَ النَّاسَ لِمَا لَمْ يَعْرِفُوا　　مَا أَهْجَرَ الوُلَّافَ لِمَا لَمْ يَأْلَفُوا

قلت (ميادين): المجالات. و(الأبطال): رجال الحرب والنزال. و(الجبان): الخواف. و(البطال): الفارغ. و(الميدان): مجال الخيل في الكرّ والفرّ.

وأشار بالبيت الأخير لقول الناس في الأمثال (الناس أعداء ما جهلوا)، كما أشار إليه في الكتاب العزيز في قوله تعالى عن الكفار ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ (يونس: ٣٩) إن كان الموقف غير متحد فتوقيف المعنى حاصل ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ في السموات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ثم أخذ في بيان الجمع بين ظاهر الشريعة وباطن الحقيقة من حيث الأحكام والعلم

الكتب المفقودة نقل عنه كثيرا ابن عرضون الغماري المتوفى ٩٩٢هـ في كتابه "مقنع المحتاج في آداب الأزواج"، وابن الحاج في مدخله وغيرهم الكثير.

فقال رحمه الله:

(٣٤٣) أَلَيْسَ قَدْ جُبِلَتِ العُقُولُ ... عَلَى الذي جَاءَ بِهِ التَنْزِيلُ
(٣٤٤) هَلْ ظَاهِرُ الشَّرْعِ مَعْ الحَقِيقَة ... إِلَّا كَأَصْلِ الفَرْعِ فِي الحَدِيقَة
(٣٤٥) وَالشَّرْعُ جَارٍ وَصَحِيحُ العَقْلِ ... كَحَذْوِكَ النَّعْلَ مَعًا[1] بِالنَّعْلِ
(٣٤٦) مَا مَثَلُ المَعْقُولِ وَالمَنْقُولِ ... إِلَّا كَدُرٍّ زَاخِرٍ مَجْهُولِ
(٣٤٧) حَتَّى إِذَا أَخْرَجَهُ الغَوَّاصُ ... لَمْ يَكُ لِلدُّرِّ إِذًا خَلَاصُ
(٣٤٨) وَإِنَّمَا خَلاصُهُ فِي الكَشْفِ ... عَنِ الغِطَاءِ حَيْثُ لا يَسْتَخْفِي
(٣٤٩) فَالصَدَفُ الظَّاهِرُ ثُمَّ الدُّرُّ ... مَعْقُولُهُ وَالجَهْلُ ذَاكَ البَحْرُ
(٣٥٠) وَإِنَّمَا المَعْقُولُ فِي شَكْلِ الحُرُوفِ ... كَمَا يَكُونُ الدُّرُّ فِي جَوْفِ الصُّدُوفِ
(٣٥١) هَلْ ظَاهِرُ الشَّرْعِ وَعِلْمُ البَاطِنْ ... إَلَّا كَجِسْمٍ فِيهِ رُوحٌ سَاكِنْ
(٣٥٢) لَوْ عَمِلَ النَّاسُ عَلَى الإِنْصَافِ ... لَمْ تَرَ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ خِلافِ

قلت: أشار بالبيت الأول إلى أن القرآن لم يأت بشيء يخالف المعقول وإن غاب وجه التعقل في بعضه عن العقول،كالمتشابه عند من يقول إنه لا يعلم.

وقوله (هَلْ ظَاهِرُ الشَّرْعِ..إلخ) أشار به إلى أن الحقيقة أصل والشريعة فرع؛ إذ قاعدة التحقيق ليس إلا سابقة التوفيق، وكل شريعة حقيقة ولا ينعكس. الحقيقة مُعينة والشريعة مُبينة، الحقيقة من عين الحكم والشريعة من وجه الحكمة، وكلاهما وصفا الرب سبحانه. ولذلك أشار الكتاب العزيز بقوله الكريم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ (النساء: ١٥٠).

---

(١) وردت في أصل المتن «أخي».

وقوله (وَالشَّرْعُ جَارٍ..إلخ) أراد به أن كل ما جاءت به الشريعة لا يدفعه عقل على أن الشرع أصل والعقل شاهد لا حاكم؛ إذ لا حكم إلا لله تعالى لا للعقل ولا لغيره، فافهم.

وقوله (ما مثل...إلخ) مَثَّل الجهل بالبحر الزاخر يغوص فيه غائص الفكر فيستخرج صدف الحروف والعبارات والمعاني الظاهرة المحتوية على در المعاني المعقولة واللطائف المشهودة والحقائق الموجودة.. إلى غير ذلك؛ فمخرج الصدف لا يمثل ما فيه من الدر إلا بالكشف عنه.

وقوله: (وَإِنَّمَا المَعْقُولُ فِي شَكْلِ الحُرُوفِ) أبان به أن الحروف ظروف المعاني، كما أن الصدف ظرف للدر. نعم! والمعقول ظرف الحقائقِ كما قبله فافهم.

وقوله: (هَلْ ظَاهِرُ الشَّرْعِ..إلخ) أشار به لأن الباطن يجري من الظاهر مجرى الأرواح من الأجساد كما أشار إليه ابن عطاء الله رحمه الله في باب الإخلاص حيث يقول: الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها. وروي مرفوعًا «إن للقرآن ظاهرًا وباطنًا وحدًّا ومطلعًا»[1] قالوا: فالظاهر للنحاة والقراء، والباطن للمفسرين وأصحاب المعاني، والحدّ للفقهاء والعلماء، والمطلع لأرباب الكشف والتحقيق، هذا معنى كلامهم.

(١) أورده الغزالي في الإحياء وقال عنه الحافظ العراقي " أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه". ولفظ ابن حبان في صحيحه (٧٥) :عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرفٍ، لكل آيةٍ منها ظهرٌ وبطنٌ»،وأخرج الطبراني في المعجم الكبير (٨٦٦٨) من كلام ابن مسعود قال: «إن القرآن ليس منه حرفٌ إلا له حدٌّ، ولكل حدٍ مطلعٌ».

وقوله: (لَوْ عَمِلَ النَّاسُ عَلَى الإِنْصَافِ..الخ) أمر لا يمكن وجوده لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: ١١٨) الآية. رزقنا الله العافية بمنه وكرمه.

ثم توجه للتنبيه على ما الناس فيه من الغفلة والفضول فقال رحمه الله:

(٣٥٣) وَاعْلَمْ رَعَاكَ اللهُ مِنْ صَدِيقِ ... أَنَّ الوَرَى حَادُوا عَنْ التَّحْقِيقِ[١]

(٣٥٤) إِذْ جَهِلُوا النُّفُوسَ وَالقُلُوبَا ... وَطَلَبُوا مَا لَمْ يَكُنْ مَطْلُوبَا

(٣٥٥) وَاشْتَغَلُوا بِعَالَمِ الأَبْدَانِ ... فَالكُلُّ نَاءٍ لَيْسَ مِنْهُمْ دَانِ

(٣٥٦) وَأَنْكَرُوا مَا جَهِلُوا وَزَعَمُوا ... أَنْ لَيْسَ بَعْدَ الجِسْمِ شَيْءٌ يُفْهَمُ

قلت: أما «حيدتهم عن التحقيق» فجهلهم بحاله الذي هو النفوس والقلوب، فإن القلب بيت المعارف والنفس مرآة التجلي، فمن لم يعرف الدار كيف يتصل بساكنها الملازم لها؟ وطلبهم الأمور المستغني عنه شغلهم عن الأمور المحتاج إليها.

وأما «اشتغالهم بعالم الأبدان» فقد تقدم بيانه غير مرة، وأما «إنكار ما جهلوا» فقد تقدم أيضًا، ومراده: أنهم لم يعلموا بما وراء الجسم ولو علموه ما اشتغلوا به، وهذا كله بعد عن الحق والتحقيق، وبالله تعالى التوفيق.

ثم ذكر نتيجة جهلهم فقال رحمه الله:

(٣٥٧) وَكَفَّرُوا وَزَنْدَقُوا وَبَدَّعُوا ... مَنْ إِنَّهُ هُوَ اللَّبِيبُ الأَوْرَعُ[٢]

(٣٥٨) كُلٌّ يَرَى أَنْ لَيْسَ فَوْقَ فَهْمِهِ ... فَهْمٌ وَلا عِلْمٌ وَرَاءَ عِلْمِهِ

---

(١) وردت في أصل المتن «الطريق».

(٢) ورد هذا الشطر في أصل المتن (إذا دعاهم اللبيب الأورع).

(٣٥٩) مُحْتَجِبًا بِحُجُبِ المَرَاتِبْ ... عَلَّ يُسَمَّى عَالِمًا وَطالِبْ
(٣٦٠) هَيْهَاتَ هَذَا كُلُّه تَقْصِيرُ ... يَأْنَفُهُ الحَاذِقُ وَالنِحْرِيرُ

قلت (الحَاذِقُ وَالنِحْرِيرُ) متقاربا المعنى كالعاقل واللبيب، والله أعلم. ونبه بكلامه هذا على ما وقع لبعض الناس من الإنكار على القوم في أمور صدرت منهم من أقوال وأفعال وأحوال فكفروهم ببعضها وبَدَّعوهم ببعضها، وكل ذلك لعدم فهمهم بحقيقتها، هذا هو الغالب. ومن الناس من يحمله على ذلك حمية الدين والشفقة على عوام المسلمين، ومن الناس من يحمله على ذلك قصد تزكية نفسه ونصرة طريقه.

أما الأول فقد يعذر بجهله؛ إذ لا يكلفه الله بما فوق علمه ولا يجوز له أن يتعدى ما انتهى إليه علمه، ولذلك قال شيخنا أحمد بن عقبة الحضرمي ﷺ في كتابه «صدور المراتب» وقيل «المراغب» بعد كلام ذكره: والجاهلُ لمن يوحي إليه شيء من هذا الكلام ولا يفهمه هو معذور مسلم له حاله من باب الضعف والتقصير والسلامة، وهو مؤمن إيمان الخائفين، ومن يفهم شيئًا من ذلك فهو لقوة إيمان معه واتساع دائرةٍ، ومشهده مشهد واسع سواء كان معه نور أوظلمة، بحسب ما في القوالب من الودائع الموضوعة على أي صفة كانت. انتهى.

ثم هو وإن كان معذورًا في حاله فالتسليم أولى به، وحمل الكلام على قصور العبارة عن المقصود أو قلقها هو أولى به كما وقع لشيخنا أبي عبد الله القوري رحمه الله حيث سئل عن ابن عربي الحاتمي فقال: أعرف بكل فن من أهل كل فن. قيل له: ما سألناك عن هذا. قال: اختلف فيه من الكفر إلى القطبانية. قيل له: ما ترجح؟ قال: التسليم. قلت: وذلك

لأن التعرض للتكفير خطر، وإظهار المزية[1] ربما أعمى الجاهل للاقتداء[2] في الواقع والاعتقاد ظاهره، والله أعلم.

ومن هذا النوع ما تقدم ذكره من جواب الإمام محيى الدين النووي رحمه الله إذ قال: الكلام كلام صوفي و ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ (البقرة: ١٤١) الآية. وطولب بعض المغاربة المجاورين بمكة في ضبط معتقده في ابن العربي الحاتمي، [وقد مال][3] بعض القضاة إلى عقوبته وإذايته لكونه منكرًا له ومكفرًا فقال: أشهد إني أؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وما كان من كلام فلان موافقًا لظاهر الكتاب والسنة فإني أقول به، وما كان على خلاف ذلك فأنا أَكِلُ علمه إلى الله تعالى[4]. فلم يجد له سبيلًا.

ووقفت لأبي زُرْعَة العراقي على جواب في شأنه، وكذا ابن الفارض ذكر فيه كلام الناس من المنكرين وغيرهم، ومال إلى أنه يعترض على الكلام ويترك القائل لاحتمال توقفه ونحوه، وهو وجه من السلامة أيضًا.

والتحقيق في ذلك أن ظاهر الشريعة مراعى، ومعنى الحقيقة ملحوظ، وحرمة العلم[5] لا يرفعها غلط ولا سهو ولا خطأٌ، ورتبته من العلم والدين لا ترفع عنه

(١) في (أ): المزيد. لفظة لا اتساق لها مع الكلام. والمثبت من (ب) وهو أكثر اتساقا مع الكلام.

(٢) في (أ): الاقتدار. والمثبت من (ب).

(٣) في الأصلين: قال، تصحيف.

(٤) في (ب): إلى أربابه.

(٥) في (ب): العالم.

الأحكام؛ فنعتبر عباراتهم من حيث أحكامها بأن يؤخذ منها ما دلت عليه من المعاني الصحيحة السالمة من الاعتراض، وينظر في الألفاظ من حيث ما يقتضيه موجب الحكم في محله فلا يهمل حق الله فيه، وحماية[1] الشريعة بالعمل به ولا يتحامل على صاحبه؛ فإن لهذا مذهبه لأن دليل انتفائه عنه أكثر من دلائل ثبوته وحسن الظن في محله مقدم على سوء الظن، والمؤمن يلتمس المعاذير والمنافق يتبع العيوب، وهذا الوجه الذي قلناه أسلم الوجوه وأحسنها شرعًا وحقيقة، وبالله التوفيق.

ثم المنكر لحماية الشريعة علامتة الوقوف على جل ما يقع به التنفير من غير زائد، ولوجوب الاجتهاد رجوعه عند بيان الحق في مقابل قوله، والمنكر عنادًا علامته التشنيع واتساع الدعوى وعدم انضباط الحجة، والمعروف من مواطن التحقيق المؤدي لإبطال دعواه ومآله إلى الهلاك لأن الله تعالى يغار لهتك جناب من انتسب لجنابه بمجرد الهوى بل وبمداخلته، ومن ثم تضرر كثير من المنكرين مع قيامهم بالحق، فاحذر من الإنكار جهدك، ولا تأخذ إلا بما بَانَ لكَ رشدُه مسلمًا لما لا تعلمه والسلام.

ثم ختم هذا الفصل بأن قال رحمه الله:

(٣٦١) فَمَـنْ يَـرِدْ مَـوَارِدَ المَوَاهِـبْ ... فَكَيْـفَ يَـرْضَى هَـذِهِ المَذَاهِـبْ[2]

(٣٦٢) وَالعِلْـمُ مَـا يُلْقَـى إِلَيـه حَـدُّ ... بَـلْ ظَاهِـرٌ يَخْفَـى وَخَـافٍ يَبْـدُو

(٣٦٣) وَالعِلْـمُ لَـوْ كَانَـتْ لَـهُ نِهَايَـة ... يُوْقَـفُ عِنْـدَ حَدِّهَـا وَغَايَـة

(٣٦٤) مَـا كَانَ أَزْكَـى مُرْسَـلٍ وَأَسْـمَى ... قِيـلَ لَـهُ قُـلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْـمَا

---

(١) في (أ): الحماية. والتثبت من (ب) أكثر مناسبة للموضوع.

(٢) في أصل المتن وردت بلفظ (الغياهب)

(٣٦٥) فَعِشْ بِـمَا لَدَيْـكَ مَـا حَيِيـتَ وَجَنِّــبْ التَّعْنِيــفَ وَالتَّعْنِيــتَ
(٣٦٦) وَالـكُلُّ قَـدْ يُعْجِبُـهُ الـكَلَامْ فَالْــزَمْ هُــدَى نَفْسِــكَ وَالسَّــلامْ

قلت: يعني بالبيت الأول أن من فتحت له من أبواب المواهب لا يرضى بالإنكار؛ لما يشاهده من الأسرار وما فتح له من الأنوار.

وقوله: (وَالعِلْمُ مَا يُلْقَى إِلَيه حَدُّ) أشار به إلى أن فوق كل عالم أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى، كما قال بعض السلف في قول الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٧٦).

وقد مثلوا العلوم والمعارف والفهوم بالأقمار والشموس والنجوم، لا يزال غارب وطالع ومتوسط مادام الدهر؛ بحكم سنة الله تعالى، وكذلك العلوم لا يزال يبدو منها ما لم يعلم طول الأبد، وكذا الفهوم والمعارف. واستدلاله بقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤) من أصح الدلالات على مقصده، ومقصده: الردُّ على من يحصر العلوم فيما انتهى إليه فكره وكفاه من ذلك حرمانه لما فوقه.

وقوله: (فَعِشْ بِمَا لَدَيْكَ-) يعني لا تبد[١] بما يفتح به عليك، ولا تنكر ما لا ينتهي إليه علمك، ولا تنازع من ينازعك؛ فللحقيقة ربٌّ يحميها، وللطريقة نفوس تصطفيها، والنزاع لا يخلف غير الشر في الدنيا والنقص في الدين، وكلام القوم يعجب كل سامع له فلا يغرنك من الناس استحسانهم له حتى تطالبهم بحقائقه وتطمع في سلوكهم عليه فإن ذلك يتعبك ويفتح لك باب الدعوى والرعونة والشهرة، وجزى الله المشايخ عنا خيرًا

(١) في الأصلين: لا تبدي، والمثبت أصح نحوًا.

فقد كتب لنا الشيخ أبو العباس الحضرمي في وصيته التي زودنا بها ما نصه:

عش خامل الذكر بين الناس وارض به فذاك أسلم للدنيا وللدين
من عاشر الناس لم تسلم ديانته ولم يزل بين تحريك وتسكين

قال الفضيل بن عياض ﷺ: هذا زمانُ احفظ لسانك واخف مكانك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا: «إذا رأيت شحا مطاعًا وهوى متبعًا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخويصة نفسك»[1] الحديث. رزقنا الله العمل به ووفقنا في ذلك كله دون حول منا ولا قوة. آمين

تنبيه:

قد يبتلى الإنسان بالشهرة ويظهره الحق تعالى بوجود المعرفة وهو خلي من تلك الصفة ولا يمكنه الانفصال والانفكاك، فيجب عليه أن يتأدب بثلاثة:

أولها: التبرؤ من الدعاوى تصريحًا وتعريضًا حتى لا يكون له سبب فيما يدعى له.

الثاني: التزام الأقل من كل ما يعرض له من جاه أو مال أو غيره؛ بالفرار من أسباب اتساعه، والعمل على الانخراط بعلم الظاهر في السلوك العلي من الاستظهار بعلم الظاهر أو بسبب من الأسباب العادية.

الثالث: أن يلزم الحذر من الناس والشفقة عليهم بأن يدلهم ويعاملهم على حسب ما يراه من شواهد أحوالهم، وإنما يطالب بالعلم من كان مختارًا في تصرفه، ثم للضرورات أحكام تخصها. وبالله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل. ثم قال

(١) أخرجه ابن ماجة (٤٠١٤)، وأبو داود (٤٣٤١).

الفصل الخامس

في فقراء العصر ومتشبهة الوقت

هذا الفصل مقابلٌ للذي قبله، إذ ذاك في الردّ على أهل النقص من المتفقهة وهذا في ذم المخلطين من [المتصوفة][1] وهو من أهم ما يعرفه الصادق في هذا الزمان ليحكم به على نفسه لا غير ذلك، وذلك لما في الوقت من الفساد والتخليط، لاسيما وقد ورد أنها ما في صحف إبراهيم عليه السلام.

وعلى العاقل أن يكون عارفًا بزمانه فمعرفة الزمان وأهله مهم، ولابدَّ من العلم به جملة وتفصيلًا لأن من تعلم العلم لنفسه تنور، ومن تعلم العلم للناس تحير، ومن لاقى الناس بالنية أفلح، ومن لاقاهم بالاعتراض خسر، ولكل قوم حثالة وهؤلاء الذين تُذكرُ أوصافهم بعض الحثالة المتشبهين، فارحمهم وعظهم ونبههم وذكرهم وحذر الصادقين من فعلهم، ثم إن تمادوا فلا تشتغل بهم إلا حيث يجب عليك التذكير بحكم الشريعة، وهو في كل أمر بيِّن متفق عليه تقدر على تغييره من غير أن يؤدي إلى منكر آخر هو أعظم أو مساوٍ، وبالله التوفيق.

قال رضي الله عنه:

(٣٦٧) وَإِذْ عَلِمْتَ كَيْفَ كَانَ الحَالُ ... وَالشَّيخُ وَالتِلْمِيذُ ثُمَّ حَالُ

(٣٦٨) فَاعْلَمْ بِأَنَّ أَهْلَ هَذَا العَصْرِ ... قَدْ شُغِلُوا بِمُحْدَثَاتِ الأَمْرِ

[1] وردت في النسختين «المتفقهة» وهو مخالف السياق.

(٣٦٩) إِذْ أَحْدَثُوا بَيْنَهُمْ اِصْطِلاحَا   لَمْ أَرَ للدِّينِ بِهِ صَلاحَا
(٣٧٠) وَصَنَّفُوا بَيْنَهُمْ أَحْكَامَا   أَكْثَرُهَا كَانَتْ لَهُمْ حَرَامَا
(٣٧١) وَانْتَهَجُوا مَنَاهِجًا مَنْكُوسَةً   وَارْتَكَبُوا طَرِيقَةً مَعْكُوسَةً

قلت: مراده بمن ذكر قومًا توسموا بطريق الفقر واستظهروا به ثم حادوا عن سننه بزيادات زادوها وأمور نقصوها؛ فمنهم المتعلق بالعلم دون العمل، ومنهم المتعلق بالعمل على غير سننه ولا علم، ومنهم الداخل في كلّ منهما على غير تحقيق ولا تحقق، والكل غالط ناقص إلا من عصم الله سبحانه بردّه للحق عند بيانه، فافهم.

وقد أفردنا لذلك كتابًا بينا فيه ما قدرنا عليه وانتهى إلينا علمه، فمن أراد الوقوف عليه اكتفى به وتعرَّفَ السنةَ والبدعةَ والطريقةَ والحقيقةَ وما يقتضيه الحق في كل ذلك[1].

ومدار ذلك على النظر في نصوص الكتاب والسنة وما يشهد له معظم الشريعة من أحوال علماء الصوفية وأئمة الدين من أهل كل عصر وقطر دون دعاوى، فالحكايات التي ربما كان بعضها باطلًا وبعضها ضلالًا وبعضها غلطًا وبعضها خاصًّا وبعضها جارٍ مجرى الضرار وبعضها سائغ بحسب الوقائع فالجواب على كل صادق وزنُ أحواله بسلف الأمة ونصوص الكتاب والسنة، ولا يأخذ الأمر رماية في عماية فيأخذ ما يضره ويترك ما ينفعه، وقد بينا ذلك لمن أراد الوقوف عليه، وسنذكر منه مع كلام المؤلف ما يفتح الله به.

(١) الإشارة إلى كتابه: «عدة المريد الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق القصد وذكر حوادث الوقت» طبع بتحقيق إدريس عزوزي سنة ١٩٩٨.

ويرحم الله الشيخ محيى الدين حيث قال في كتاب «رسالة القدس» ما نصه: فالزمان يا بني شديد، شيطان مريد، سلطانه عنيد؛ علماء سوء يطلبون ما يأكلون، وأمراء جَوّر يحكمون بما لا يعلمون، وصوفية بأعراض الدنيا موسخون، عظمت الدنيا في قلوبهم فأسرعوا إليها طلبًا -وفي نسخة فلا يرون فوقها مغلبًا-، وصغر الحق في نفوسهم فأعجلوا عنه هربًا، لا علم عن الحرام يردهم، ولا ورع عن الشبهات يصدهم، ولا زهد عن الرغبة في الدنيا يصرفهم، حافظوا على السجادات والمرقعات والعكاكز، وأظهروا السبحات المزينة كالعجائز، اتخذوا ظاهر الدين شركًا للحطام، ولازموا [الخوانق][1] والرباطات لما يأتي إليها من حلال وحرام، [وتبعوا أرذالهم، وسمنوا أبدانهم][2].

قال: وما أراهم إلا كما حدثني غير واحد وذكر إسناده إلى أن بلغ به إلى النبي صلى الله عليه وسلم تسليمًا أنه قال: «يجاء يوم القيامة بأقوام معهم من الحسنات أمثال جبال تهامة حتى إذا جيء بهم جعل الله أعمالهم هباءً ثم قذفهم في النار. قيل: يا رسول الله صف لنا هؤلاء حتى نعرفهم. فقال: إنهم كانوا يصومون ويصلون، وفي حديث آخر يأخذون وهنًا من الليل ولكنهم كانوا إذا عرض لهم شيء من الحرام وثبوا عليه، وفي رواية شيء من الدنيا وثبوا عليه فأدحض الله أعمالهم»[3].

قال مالك بن دينار: هذا والله النفاق. فأخذ المعلي بن زيد بلحيته وقال: والله صدقت يا أبا الخير. انتهى عرضنا من كلامه.

---

(١) في (أ): الخلوات، والمثبت من(ب) وهو أكثر اتساقا مع السياق.

(٢) وسعوا أردانهم، وسموا أبدانهم.

(٣) أخرجه ابن ماجة (٤٢٤٥) ،والطبراني في الأوسط (٤٦٣٢)، والصغير (٦٦٢) على اختلاف في لفظه.

وقوله: (وَإِذْ عَلِمْتَ كَيفَ كَانَ الحَالُ) يعني بما ذكر من الأحكام التي[1] كان عليها القوم والوصف الذي كان به الشيخ والتلميذ. ومعنى (حَالوا): تبدلت أحوالهم بحيث ادعى مراتبهم من ليس حاله كحالهم.

وقوله: (قَدْ شُغِلُوا بِمُحْدَثَاتِ الأَمْرِ) يعني أدخلوا أنفسهم في البدع، واستنبطوا وجوهًا وأدلة من الشرع لا يشهد لها معظم الشريعة ولا شيء من عمل سلف الأمة، وبنوا ذلك على أسرار اصطلحوا عليها تماديًا على العمل من غير نكير، فأما ما اصطلح عليه من حيث التصور فخارج عن الحصر والتعداد إلا أن بعضه موافق للحق وبعضه مخالف وبعضه محتمل، وتفصيل ذلك يستدعي طولًا وربما نذكر منه بعد جملًا، وبالله التوفيق إن شاء الله تعالى.

وأشار بـ«المناهج المنكوسة والطريقة المعكوسة» لأمور أحدثوها تعتبر في المقصود وتقتضي خلاف المراد، وسنذكر من ذلك جملة جامعة، وبالله التوفيق.

ثم شرع في بيان ما ذكر بأن قال:

(٣٧٢) قَدْ كَانَ تَالله طَرِيقًا قَاصِدَا ... وَالآنَ مَا يَلْقَى عَلَيْهِ وَارِدَا
(٣٧٣) وَهَذِهِ طَرِيقَةٌ قَدْ دَرَسَتْ ... وَشَجَرٌ أَغْصَانُهَا قَدْ يَبِست
(٣٧٤) كانت إذًا مواردًا شَرِيفَةْ ... فَاسْتُبْدِلَتْ مَذَاهِبًا سَخِيفَةْ
(٣٧٥) قَدْ أُسِّسَتْ عَلَى صَحِيحِ العَقْلِ ... وَأُسُّهَا الآن بمَحْضِ الجَهْلِ
(٣٧٦) يُدْعَى الذي يَمْشِي عَلَيْهَا سَالِكْ ... وَسَالِكُوهَا اليَوْمَ حِزْبٌ هَالِكْ
(٣٧٧) عَاشَ بِهَا القَوْمُ بِخَيْرِ عِيشَةْ ... فَصُيِّرَتْ مِنْ بَعْدِهِمْ مَعِيشَةْ

---

(١) في (أ): الذي، والمثبت من (ب) أنسب.

(٣٧٨) كَانَتْ تُضَاهِي الكَوْكَبَ المُنِيرا وَالآنَ أَضْحَتْ حَائِطًا قَصِيرا
(٣٧٩) إِذْ صَارَ لا يُعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا أَكْلًا ورَقْصًا وَغِنًى وَذُلَّا[1]
(٣٨٠) كَانَتْ عَلَى الإِنْصَافِ وَالنَّصِيحَة فَهِي عَلَى الإِسْرَافِ وَالفَضِيحَة
(٣٨١) تُعْرَفُ بالخُلُقِ وَبالإِيثَارِ وَالآنَ بالحِقْدِ وبِالإِقْتَارِ[2]
(٣٨٢) كَانَتْ أَجَلَّ غِبْطَة وخُطَة وَالآنَ فِيهَا بِدْعَة وَحِطَّة
(٣٨٣) كَانَتْ عَلَى مُجَرَّدِ الصِّيامِ وَالآنَ فِي مُجَرَّدِ الطَّعَامِ
(٣٨٤) وَفِي السَّمَاعِ كَانَ غَلْقُ البَابِ وَالآنَ عِنْدَ جِفْنِ جَوَابِ

قلت: البيت الأول والثاني والثالث كل واحد واضح في نفسه لا يحتاج إلى بيان، و(**الطريق القاصد الذي يردوه**): الذي يُمشى عليه بلا حَيدَة[3] ولا اعوجاج، وذلك يقتضي أن لا يُسلك إلا عليه، لكن لبعد النفوس عن الحق تركته وسلكت طريق الاعوجاج الذي لا يوصل إلى شيء.

ومعنى (**دَرَسَتْ**): ذهبت واضمحلت فلم يبق لها عين ولا أثر، وشبهها بالشجرة لأن لها أصلًا وفرعًا ومادةً، و«**يبس أغصانها**» يؤذن بعدم ثمرتها، ولا يكون ذلك إلا بما دخل على أصلها من الاختلال وإنه كذلك، و«**الموارد الشريفة**» هي التي تروي وتشفي، وطريق القوم كذلك في الأصل بخلاف هذا الزمان فإنها تُخبث وتُردي لما يدخل عليها

(١) وردت في أصل المتن (سؤلا).
(٢) وردت في أصل المتن «الاحتقار».
(٣) في حاشية (أ): بيدة. والمثبت أقرب للمعنى ولرسم الكلمة إذ من الصعب أن يكون قصده من البيدة: البيداء، أي: الصحراء.

من الفساد حتى صيرها سخيفة أي قبيحة ذميمة، والله أعلم.

وقوله: (قَدْ أُسْسِتْ..إلخ) بيانه فيما عليه أكثر فقراءهذا الوقت من معاداة العلم وأهله، وعدم قبول من يرونه معتنيًا به، وأخذهم بما لا مستند له، ونفرتهم عما له مستند عقلي أو شرعي قائلين: إن المعتني بذلك صاحب مقال لا حقيقة عنده. وربما خيلوا للضعيف العارضة بأوهام ينصرون بها غلطهم حتى يعود العلم إلى الجهل، وكل ذلك توهم باطل متلبس ليس تحته طائل وهو من أعظم المصائب وأكبر الآفات والنوائب، فيرحم الله من قال من المشايخ: ذهب الإسلام من أربعة: يعملون بما لا يعلمون، ولا يتعلمون ما لا يعلمون، ولا يعملون بما يعلمون، ويمنعون الناس التعلم، انتهى على شك في لفظه، فانظره في رسالة القشيري.

وقوله: (يُدْعَى الذي يَمْشِي عَلَيْهَا) يعني في القديم: سالك طريق الحق واليوم لا يصح ذلك في حقه لتعلقه بالمهالك. وقوله (عَاش بها ..إلخ) يعني من جهة ما تحلوا به من القناعة والعفاف والتوكل والرضا ونحو لقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ (النحل: ٩٧) الآية. إذ قيل: الحياة الطيبة: القناعة، وقيل: الرضا عن الله سبحانه، وقيل غير ذلك.

وقوله: (فَصُيِّرَتْ مِنْ بَعْدِهِمْ مَعِيشَةْ) واضح فلا تجد إلا من يجعلها شَرَكًا للحكام أو درجًا للرفعة عند العوام، فأما من يتعرض بها لمقت الله تعالى بتعليمها لمن لا خلاق له فلا حديث عليه.

وقوله: (كَانَتْ تُضَاهِي الكَوْكَبَ المُنِيرا) يعني في الصفاء والرفعة والجلالة وعدم تناول القاصدين بها؛ لكونها كانت حالًا وعملًا.

وقوله: (وَالآنَ أَضْحَتْ حَائِطًا قَصِيرا) كل من جاء ركبه؛ يقولون من قول خير البرية ويمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

قال الإمام محيى الدين في «رسالة القدس»: ولقد لقيت بهذه البلاد من يلبس سراويل الفتيان ويدعي مراتب العرفان ولا يستحي في ذلك من الرحمن، لا يعرف شروط السنن والفرائض ولا يصلح أن يكون خديمًا في المراحض و مع هذا يا وليي[1]، فهم الصدف الذي يخفي رفيع الدر، والسياج على الروضة ذات الزهر، يدخل فيهم الصادق والصديق فيخمل[2]، والعارف المتمكن فيرد ويهمل فإنه يحمل ما هم عليه لاشتراكهم في المسكن، وما بينه وبينهم معاملة في شيء. انتهى.

وأشار فيه لأن المدعيين الكاذبين جعلهم الله سبحانه رحمة للصادقين لكونهم ستارة عليهم عند المعتقد والمنتقد، وبذلك بقي عليهم الستر فلم تنتهك أستارهم ولم تظهر أسرارهم، فاعرف ذلك فإنه مهم.

وقوله: (إِذْ صَارَ لا يُعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا..إلخ) علة في وجود كونها صارت حائطًا قصيرًا.

قال في «رسالة القدس»: فأما أهل السماع والوجد في هذا البلاد فقد اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا، لا تسمع إلا من يقول لك: رأيت الحق قال لي اصنع. ثم تطلبه بحقيقة يمنحها أو سرٌّ أفاده في شطحه فلا تجد إلا لذة نفسانية وشهوة شيطانية يصرخ على لسانه الشيطان[3] مادام المغرور الآخر بشعره ينهق فلا أشبههم إلا براعي غنم ينعق بغنمه وهي

(١) وردت في النسختين (إذا وليه)، وما أثبتناه من كتاب رسالة القدس للشيخ الأكبر صـ٢١ .

(٢) في (ب): فيحصل.

(٣) في (أ): فيصرخ، والمثبت من(ب) وهو أكثر مناسبة للسياق..

تقبل وتدبر بنعيقه لا تدري في ماذا ولا لماذا، فواجب على كل محقق في هذا الزمان ممن ينظر إليه ويقتدي به المريد الضعيف ألا يقول بالسماع أصلًا ويقطعه قولًا فصلًا.

وقد أوضحنا مقاصده لأهل هذه البلاد وما يتطرق إليه من الفساد، واحتجوا علينا بما سمع من الشيوخ فأوضحنا فهمها وأعربنا معجمها فأقروا بنقصه في مراتب الوجود فمنهم من عدل عنه ومنهم من أقام إليه على معرفته بنقصه. انتهى عرضنا منه هنا أيضًا.

وقوله: (**إلا رقصًا**) يعني سنةً وهيئةً وكيفيةً كالعبوس واعتقاد الناموس، والتزيي بزيٍّ مخصوص. قال في «رسالة القدس»: فلو رأيتهم في صلاتهم ينقرونها، وفي صفوفهم لا يقيمونها؛ يجعل أحدهم بينه وبين صاحبه في الصف قدْر ما يدخل فيه ألف شيطان، ثم إذا جئت تريد أن تسد ذلك الخلل تراهم قطبوا وجوههم، فإن غفلت وطويت سجادة أحدهم لَكَمَكَ لَكْمَةً أين ما جاءت منك، وقد يكون فيها حتفك، وهذه وأشباهها هي التي أهلُ زمانك عليها.

ويرحم الله القشيري حيث أدرك من تحلى بحلية القوم في ظاهره وتعدى عنهم في باطنه فأنشد:

أمَّا الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحي غير نسائها

هذا قد اشترك معهم في زيهم الظاهر، فأما اليوم فلا خيام ولا نساء إجماعًا من القوم أن الموت الأخضر عندهم طرح الرقاع بعضها على بعض، وذلك شعارهم ﷺ فقام هؤلاء وقالوا: إنما لنا لبس المرقعة خاصة. ولم يلحظوا ما أريد بها فاتفقوا في الثياب

المطرحة والأعلام المشتهرة وخاطوها على وزن معلوم وترتيب منظوم[1] تساوي مالًا، وأفسدوا عليها ثيابًا وسموها مرقعة، فيرحم الله سيد هذه الطريقة أبا القاسم الجنيد حيث أنشد:

أهـل التصـوف قـد مضـوا   صـار التصـوف مخرقـة
صـار التصـوف ركـوة   وسـجادة ومدلقـة
صـار التصـوف صيحـة   وتواجـدا ومطبقـة
كذبتـك نفسـك ليـس ذي   سـنن الطريـق الملحقـة

ثم قال: والله ما أعلم أهل طريق الله هكذا وما كان إلا بالقعود في مرابض الكلاب مجاهدة، وتحمل الأذى وكفه؛ رياضةً، والشفقة والرحمة والعطف على المسلمين كافة تحقيقًا ومعرفة. انتهى ما يتعلق بهذا الكلام منه.

وقوله (كَانَتْ عَلَى الإِنْصَافِ..إلخ) أشار به لما حدث في فقراء هذا الزمان من ذكر معائب إخوانهم، واستهزائهم بأحوالهم، وإذاعتهم لأسرارهم، لاسيما ما يرونه منهم من الحركات الغريبة سواء كانت سالمة أو فيها بعض روية. وأما تخلقهم بـ(الحِقْدِ وبِالإِقْتَارِ) فلا تجد أحدهم يرحم أخاه بدرهم ولا لقمة خبز ويصنع في التِّجَار والإفتار والفشار ما لو أنفقه على إخوانه لكفاهم قريبًا من السنة أو أزيد منها، ويسامح العوام ليظهر عندهم بسلامة الصدر ويمسك الكلمة لأخيه السنين العديدة وربما تعلل لذلك بوجود القرب، وكله شيطنة ونقص.

وقوله: (كانت أَجَلَّ غِبْطَةً..إلخ) ذلك دائر مع الأوصاف منها أولًا والداخلة

(١) في (ب): معصوم.

عليها آخرًا، فإنها ليس تغير الحال. وقوله: (كَانَتْ عَلَى مُجَرَّدِ) البيت. أشار به لما عليه بعض أهل هذا الوقت من أنهم لا يجتمعون إلا على الأكل ولا يعرفون غيره وهو خلاف حال الأولين، ولا الصوم حقيقة إذ لم يكونوا يجتمعون لصيام ولا لقيام من حيث القصد ولكنهم كان من مقاصدهم الصيام والقيام، ولم يكونوا يكرهون من النائم القيام ولا التكفير بالصيام بل يتركونه وما تعطيه قواه، ويأمرونه لأمر ندب وإرشاد بوجه لا يحوجه للتكليف ولا يخرجه عن حد التقوى والاستقامة، والله أعلم.

وما ذكر في السماع واضح. و(الجِفَان): القطاع والجوابي الكبار، وهذا كله وصف حال من تبعه لما هو أعظم منه جملة وتفصيلًا، والمدار كله على الفرار من الفتن الدينية، وهي البدع والدعاوى والمخالفات ومجانبة أهلها، ولله ما أحسن قول القائل: جنب الجملة في الله [تجده][1] حيث كنت. رزقنا الله بمنه وكرمه.

ثم قال رحمه الله:

(٣٨٥) وَقَوْلُنَـا الشُّـيوخُ والإِخْـوانُ ... هُـمُ الذِيـنَ سَـلَفُوا وَبَانُـوا

(٣٨٦) مَاتُـوا وَلَمْ يَتْرُكُـوا مِـنْ وَارِث ... إِذْ هَـؤُلاءِ اليَـوْمَ[2] كَالبَرَاغِـث

(٣٨٧) فَـكُلُّ مَـا اليَـوْمَ عَلَيـهِ النَّـاسُ ... مِـنْ مُدَّعِـينَ الفَقْـرِ فِيـهِ بَـاسُ

(٣٨٨) إِذْ نَقَضُـوا الأُصُـولَ وَالأَرْكَانَـا ... وَصَـيَّرُوه فِي الـوَرَى مُهَانَـا

(٣٨٩) وَهَدَمُـوا بُنْيَانَـهُ المُشَـيَّدَا ... وَصَـيَّرُوه مُخْمَـلًا وَمُخْمَـدا

(٣٩٠) وَنَثَـروا الفُـرُوعَ والأُصُـولا ... وَجَعَلُـوا مَعْلُومَهَـا مَجْهُـولا

---

(١) من (ب)، غير موجودة في (أ).

(٢) وردت في شرح الشيخ زروق بلفظ «القوم».

(٣٩١) وَاحْتَسَبُوا فِيهَا بِغَيْرِ حِسْبَةْ   وَصَيَّرُوهَا ضُحْكَةً وَلُعْبَةْ
(٣٩٢) وَجَعَلُوهَا للغَنِّي مَغْرَمَا   وَللفَقِيرِ نُهْبَةً وَمَغْنَمَا
(٣٩٣) وَافْتَضَحُوا وَاصْطَلَحُوا لَدَيْهَا   فَصَارَ مَا كَانَ لَهَا عَلَيْهَا
(٣٩٤) لَوْ عَلِمُوا [جهالةً][1] مَا صَارُوا   حَيْثُ انْتَهَوْا تَرْشُقُهُم أَبْصَارُ
(٣٩٥) لَوْ لَمْ يَكُنْ بَعْضٌ لبَعْضٍ عَاكِس   مَا لُقِّبُوا بِعُصْبَةِ الكَسَاكِس
(٣٩٦) حُقَّ لِمَنْ كَانَ عَلَيهِمْ مُنْكِرا   إِذْ إِنَّمَا يُبْصِرُ مِنْهُمْ مُنْكَرَا

قلت: معنى (سلفوا): مضوا. و(بانوا): انفصلوا. و(انفضوا): انقرضوا.

وقوله: (ولم يتركوا من وارث): أشار إلى انقراض الطرق الاصطلاحية في العالم والأمر الظاهر وإلا فلا تخلو الأرض من قائم لله بحُجَّة.

ثم تشبيهه لهؤلاء بـ(البراغيث) من وجوه:

أحدها: لما هو عليه من الرفس وعدم الضبط والنط كالبرغوث.

الثاني: ما فيه من الإذاية والقرص لمن جاوره، تارة بالغيبة وتارة بغيرها.

الثالث: خساسة جميعهم باعتبار سكنى المزبلة، والاشتغال بالأكل دون غيره مع ظهورهم بالضعف والمسكنة.

وقوله: (فَكُلُّ مَا اليَوْمَ عَلَيهِ النَّاس..الخ) يعني في العموم والأمر الظاهر الجمهوري الذي يستظهرون ويشتغلون به لا غير ذلك إذ لابد في الجماعة من الصادقين والمحققين، نفعنا الله بهم.

---

(١) وردت بالأصول: «مَا جَهِلُوا» وهو مخالف من الناحية العروضية وما أثبتناه هو الصواب.

وقوله: (إِذْ نَقَضُوا الأُصُولَ) فبإثبات ما ليس منها في محلها كاستبدالهم الزهد بالحرص، والورع بالطمع، والتقوى برقة الديانة إلى غير ذلك. و(الأَرْكَان) كالأحوال مثل الجوع والسهر والصمت وكثرة الأعمال؛ فنقضوا ذلك بوجود البطالة وإيثار الكسل وجعلهم لكل ما أثبتوا تأويلًا ووجهًا يرونه عين الهدى والسبيل المستقيم، نسأل الله العافية.

وقوله: (وَصَيَّرُوه فِي الوَرَى مُهَاناً): أي طريقًا باطلا بما ظهروا به فيه من خلاف الحق الذي لا يعرف به أحد إلا استخف طريقه، وهذا أمر واضح في هذه الأزمنة حتى لا يكاد أحد من المعترضين في هذه الأزمنة يعتقد أحدًا ولا طريقة صحيحة ويحتج لذلك بأن فلانًا المستظهر بكذا ظهر منه كذا وفلان كذا وقع منه هذا، وأين هذا من أولئك؟ فإنه حسيب المغترين الفاتحين لباب الإنكار بأعمالهم، وإلا فالمنكر لما يستحق الإنكار معذور بل مأجور، فاعرف ذلك.

ومعنى (هَدَمُوا بُنْيَانَهُ) أي ما كان عليه من التحقق والحق؛ بمخالفته وإثبات غيره. وقوله: (وَصَيَّرُوه مُخْمَلًا) يعني لا يذكر بأحسن ذكر، و(مُخْمَدا) لا يكاد أحد يستظهر به لما ينسب له من ظهر به من القبيح، فافهم.

وقوله (ونثروا..إلخ) معناه أنهم لا يأتون بالطريقة في أصل ولا فرع بل عملوا ببعض وتركوا بعضًا فاشتبهت أمورهم على من ينظر إليهم لأنه يجد من الطريقة شيئًا يدعوه للاعتقاد، ويجد من مخالفتها شيئًا فيدعوه إلى الانتقاد أو لاعتقاد أن ذلك من جملتها، وهي من أعظم المصائب وأكبر الآفات والنوائب، وبهذا الوجه صار معلومًا مجهولًا أي ما علم من حقائقها مجهولًا عند الناظر في المتعلق بها، والله أعلم.

وقوله: (وَاحْتَسَبُوا..إلخ) معناه أنهم عدُّوا منها ما ليس بقربة واعتقدوا أنه قربة كالرقص ونحوه من توابع السماع والاستماع، وهذا عين البدع والضلال. وقوله: (وَصَيَّرُوهَا ضُحْكَةً...الخ) يعني لما أحدثوا فيها من الفشارات والأمور الخارجة عن قياس العقل والعادة فضلًا عن الشريعة.

وقوله: (وَجَعَلُوهَا للغَنِّي..إلخ) يعني أنهم إن صحبهم غنيٌّ تسلطوا على ماله بداعية الإخوة والصحبة، وإن صحبهم فقيرٌ سلطوه على مال إخوانه بذلك، وكلا الأمرين ذميم وهو خلاف الطريقة والحقيقة لأن الشفقة على الخلق مطلوبة، والاكتفاء بالله حالة مرغوبة. وقد تقدم قول بشر الحافي للإمام علي كرم الله وجهه: ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء طلبًا لثواب الله، وقول علي ﷺ له: وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله تعالى. وقول الآخر: وأعز من ذلك همة العارفين؛ تتلاشى فيها جميع المقدرات فضلًا عن المخلوقات، فانظر ذلك.

وقوله (وَافْتَضَحُوا) يعني باتباع الباطل، و(وَاصْطَلَحُوا) عند هذه الفضيحة اصطلاحًا يوجب انقلاب الأحكام في نظر الناظر؛ كحال المطاوعة في صحبة الشبان وكون ذلك عندهم من الكمال، وكذلك غيرهم في غير تلك حسبما بيناه، في غير هذا الموضع وبالله التوفيق.

وقوله: (لو لم يكن بعض لبعض..إلخ) يعني لولا اختلاف قلوبهم فما سُلِّطَ عليهم الخلق حتى سموهم باسم يشعر بوجود نقصهم. وقد بدل بعض الناس ذلك بقوله:

لو لم يكونوا ضحكة الأبالس ما لقبوا بعصبة الكساكس

بحيث يقال فيهم الكساكسة، ويقال لهم أيضا العكازون وغير ذلك، عافانا الله من

بليتهم ورحمنا بالإقبال عليه في عافية وغفر ذنوبنا بمنه.

ثم عاد الشيخ ﷺ بالتنبيه على من يدعي المشيخة بغير وجه صحيح وذكر في ذلك من يستحقها بطريق التعريض فقال:

(٣٩٧) عَارٌ بِمَنْ لَمْ يَرُضِ العُلُومَا ... وَيَعْلَمَ الموجُودَ وَالمَعْدُومَا

(٣٩٨) وَلَمْ يَكُنْ فِي بَدْئِهِ فَقِيهَا ... وَسَائِرَ الأَحْكَامِ مَا يَدْرِيهَا

(٣٩٩) والحَدَّ وَالأُصُولَ وَاللِسَانَا ... وَالذِّكْرَ وَالحَدِيثَ وَالبُرْهَانَا

(٤٠٠) وَلَمْ يَكُنْ أَحْكَمَ عِلْمَ الحَالِ ... وَلا دَرَى مَقَاصِدَ الرِّجَالِ

(٤٠١) وَلَمْ يُنَزِّه صِفَةَ المَعْبُودِ ... أَوْ يَدْرِ كَيفَ رُتْبَةُ الوجُودِ[1]

(٤٠٢) وَالنَّفْسَ وَالعَقْلَ مَعًا وَالرُّوحا ... أَوْ يَدْرِ مَعْنَى صَدْرِهِ المَشْرُوحا

(٤٠٣) وَعِلْمَ سِرِّ النَّسِخِ وَالمَنْسُوخِ ... أَنْ يَتَعَاطَى رُتَبَ الشُّيوخِ

قلت: تكلم في هذا الفصل على المشيخة، وفي صحة ذكر أحوال الشيوخ وحقائقهم.

فأما احتياجه لمداخلة العلوم وفهمها من حيث هي: فليعرف النافع والأنفع ويتمكن من دخول كل ما لا يقتضيه، ويجري المريد منها ما يوافق حاله إن كانت له همة فيها، ثم لا يلزمه وجود الاتساع في العلوم الإحاطة بكليات أبوابها بل معرفة مقاصدها وبذلك يصدق عليه اسم (رائض) فافهم.

وأما معرفته بالوجود الجائز والواجب والمعدوم الجائز والمستحيل: فلأن مجال الفكر فيه؛ إذ الفكرة سير القلب في ميدان الأغيار كما قال في الحكم: من لم يعرف أحكام الوجود في عدمه ووجوده كيف يصح له تجريد الفكر فيه؟ فافهم.

---

(١) وردت في أصل المتن «ولا درى مراتب الوجود».

وأما كونه فقيهًا في المبدأ بمعنى متثبتًا بالفقه: فلحفظه نظام العبودية إذ من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، وأيضًا فلا أقبح من متصدر للمشيخة بغير علم، أو تنزل به النازلة فيخرج يسأل عنها، بل قد يكون للمريد ما لا يصح أن يسأل عنه غير أستاذه ولا يجيبه فيه سواه؛ اتقاءً على نفسه وإثباتًا لحق الستر، والله أعلم.

وأما علمه بالأحكام: فلأن معاملة الحق سبحانه تفتقر للعلم؛ إذ لا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه فلابد من معرفة الأحكام الخاصة، ولا تلزمه النوازل النادرة إلا عند نزولها.

وأما معرفته بالحد الذي يوقف عنده من الطريق والتحقيق: فكل علم أو عمل فلابد منه[1] خوفًا من أن يطلب ما لا يصح طلبه أو يترك ما لا بد من وجوده، والله أعلم.

وأما معرفته بالأصول: فليبني عليها في الأخذ والترك؛ إذ إنما حُرموا الوصول بتضييعهم الأصول. و(**الأصول**): إقامة الفرائض، واجتناب الحرمات، واتباع السنة، ولزوم الأدب، فهي أربعة في الأركان أيضًا قد تقدم الكلام عليها جملة وتفصيلًا.

وأما (اللسان) فيعنون به لسان القوم الذي اصطلحوا عليه في محاوراتهم مثل الفناء والبقاء، والجمع والفرق، والوجد والفقد وغير ذلك. وقد أفرد له ابن العربي تأليفًا وذكر منه القشيري طرفًا، وهو أمر مضطر إليه للفهم عن المشايخ فيما جاءوا به من حقائق الأحوال وغيرها، والله أعلم.

وأما (الذكر) فيعني به القرءان. و(الحديث) معلوم. و(البرهان): أحكام العقل

(١) في (أ):له. والمثبت من(ب) خوفا لالتباس المعنى.

وتجريتها في أعيان المقاصد، وهذه الثلاثة مفتقر إليها؛ لتأييد العلم بالدليل، وإسناد العمل على الأمر الواضح، ودفع الطاعن والمعارض، وهو الذي أشار إليه الجنيد رحمه الله: علمُنا هذا مؤيدٌ بالكتاب والسنة. وقد تقدم الكلام عليه أول الكتاب، والله أعلم.

وأما إحكامه لعلم الحال: فلا يصح إلا بالمنازلة مع ضبط الواقع لأن من لا يعرف أعيان الأشياء لا يصح أن يداوي بها، ومن لا يتصور العلة لا يمكنه الكلام عليها، وحركات القلوب ذوقية ولا تفهم إلا بالذوق ولذلك قالوا: إنما يفهم عنك من أشرق فيك، وقد عُرف أن حال الوسوسة والعشق لا يدركهما حقيقة من صاحبها إلا من ابتلى بها فكذلك هذه، والله أعلم.

وأما معرفة مقاصد الرجال: يعني في رموزهم وإشاراتهم وعباراتهم الغامضة فلأجل أن فيه هذا متوقفًا على العلم والتجربة كالطب، ولا يكفي واحدٌ منهما على الآخر؛ فكما أنه مطلوب بالتجربة هو مأمور بالرجوع إلى العلم، والعلم للبرهان والتجربة للتحقيق، وأكثر علوم القوم إشارة أو حكايات لا تفي بالمقصود ما لم تعرف المقاصد، هذا من حيث التفصيل ومن حيث الجملة فمعرفته بمذهب القوم في كل موقف هو الذي يوصله لحقيقة كل وارد عنهم مما يُنكر أو يُقبل أو يُصحح أو يُهمل. وقد قدمنا ذكره أول الكتاب والله أعلم.

وأما تنزيهه لصفة الرب سبحانه: فمعناه أنه يكون عالمًا بأصول عقائد الدين ومحررًا لها على معلوم الأئمة المهتدين، ويقف مع ذلك من حيث الحقيقة ويطلب الزيادة فيه من حيث التجلي حتى يصير عنده من معدِّ البرهان إلى معد العيان، ومن موقف العيان إلى موقف الاطمئنان الذي لا يمكن صاحبه توقف دون العمل على مقتضى تنزيهه بترك

العصيان، وهذا أمر مضطر إليه لما يعرض من شبه المعقول واشتباه الحقائق واضطراب النفس في الانتقال عن المبادئ التي لا يصح لها الانتقال عنها فافهم.

وأما معرفته برتب الوجود: فلأن الشهود من إشهاد المشهود وكشف الوجود، ومن لم يعرف رتب الوجود لم يكشف له من حقائقه شيء، وإنما هو صاحب قياس ونظر كأمثالنا. وقد أودع شيخنا أبو العباس الحضرمي ﷺ كتابه «صدور المراتب» من ذلك ما فيه فتح لباب الحقائق، وإن كان الأمر لا نهاية له باعتبار عوده، ولا باعتبار عدده جملة في الجمليات وتفصيلًا في التفصيليات، ونبهنا على كلامه فيه بما يمكن فانظره إن تيسر لك، وبالله التوفيق.

وأما علمه بالنفس والعقل والروح: فمن حيث الأحكام، وذلك للفرق بين الوسوسة والإلهام والتجلي، وخساسة الأول، ونفاسة الثاني، وطهارة الثالث، وقد بينا الأنوار الطبيعية والأنوار العقلية والأنوار العادية، ويجري ذلك في باب القبض والبسط؛ يميز الوارد منها من أي نوع هو، وهو أمر متوقف على الذوق كالذي قبله فافهم.

وأما علمه بسر النسخ والمنسوخ: ليصل إلى أسرار الشريعة فيكون على بينة من ربه وبصيرة لأن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ (يوسف: ١٠٨) الآية. ثم وصوله لذلك إما أن يكون من حيث الجملة في جميع الناسخ والمنسوخ، أو من حيث التفصيل بحيث يدرك علة كلٍّ في محله كما نبه عليه القرآن في نسخ القبلة بقوله الكريم: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ (البقرة: ١٤٣) أي يظهر ﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ هذا سرها نصًّا. وسرها تعريضًا: ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ (البقرة: ١٤٤)، فسره إظهار كرامته

عند [مولاه][1] بما يرتضيه، هذا مع ما تحت ذلك من إهانة عدوه وإزالة كرامة وليه وما يستدعي ذلك من ظهور صفتي الجلال والجمال في صورة واحدة مؤذنة بتجلي الكمال، إلى غير ذلك مما يطول بنا شرحه وهو جار في الشرائع والأحكام والألفاظ والعلوم شرعًا وشرعةً، والعوائد وجودًا و عدمًا، سواء بحكم الأمر أو الحكم القديم فاعرف ذلك.

ثم اعلم أن كل ما ذكر لا يلزمه أن يكون ظاهرًا من الشخص بل معلومًا له، وإن كان قاصر العبارة عنه؛ إذ يصح أن يؤدي معناه عند الاحتياج إليه بإشارة أو عبارة أو غيرها، وبحسب هذا فالمخاطب بهذه الشكلية الشخص في نفسه لأن الناس يطالبونه به، وإنما يخاطب الشيخ بثلاثة أشياء: حال صحيح، وعمل ثابت، وتمسك بحقائق الورع والأحكام الشرعية، وإن كان غير ورع إذا تجنب المحرمات الواضحة وقد تكلمنا فيها مضى فاعتنِ به، وبالله التوفيق.

ثم قال:

(٤٠٤) يَـا عَجَبًـا مِـنْ جَاهِـلٍ مَبْدَاهُ ... فِي رُتَـبِ الكَـوْنِ وَمُنْتَهَـاهُ
(٤٠٥) كَيـفَ يَهْـدِّي وَهُـو لَمْ يُهْـدَى ... لَقَـدْ عَـدَى ظُلْـمًا لَقَـدْ تَعَـدَّى
(٤٠٦) مَـنْ لَمْ يَنَـلْ مَرَاتِـبَ الإِرَادَةْ ... كَيـفَ يُوَطِـي للهُـدَى سِـجَّادَةْ
(٤٠٧) كَيـفَ يَـدُلُّ طُـرُقَ الأَسْـفَارِ ... مَـنْ لَمْ يَـزَلْ فِي جُحْـرِهِ كَالفَـارِ
(٤٠٨) أَلَيْـسَ هَـذَا كُلُّـهُ مُحَـالُ ... لَمْ يَسْـتَقِمْ لشَـخْصٍ مِنْـهُ حَـالُ
(٤٠٩) يَـا قَاصِدًا عِلْـمَ الطَّرِيقِ السَّالِف ... لا تَقْتَـدِه بَهَـذِهِ الطَّوَائِـف
(٤١٠) مَـا مِنْهُـمْ مَـنْ عَلِـمَ المَقْصُـود ... مِنْـهُ وَلا الـوَارِدَ وَ المَـوْرود

(١) غير واضحة بالنسختي. وما اثبتناه أقرب للسياق ولرسم الكلمة غير الواضحة.

(٤١١) لَمْ يَعْرِفُوا حَقِيقَةَ الطَّرِيقَة   فَالقَوْمُ جُهَّالٌ عَلَى الحَقِيقَة
(٤١٢) فَاحْذَرْهُم خَشْيَةَ يَفْتِنُوكَا   وَاتْرُكْ سَبِيلًا لَمْ يَزَلْ مَتْرُوكَا

قلت: «لم يعرف مبداه» باعتبار عالم الجسم والروح ومنتهاه كذلك، ومبداه باعتبار كلية وجوده ومنتهاه في وجوده وموجده[1]، وإنما تعجب منه لأن هذين الموقفين هما أصل التوجه والمعاملة، ومظهر التحقيق والمواصلة؛ إذ أول الأمر تجلي يوم الميثاق ومنتهاه المطالبة به، فافهم.

وقوله: (مَنْ لَمْ يَنَلْ مَرَاتِبَ الإِرَادَة..الخ) أشار به للمقام الثاني من التوجه وهو مقام الإرادة، وقد تقدم تفسيره في باب التربية. ثم أشار بالبيت الرابع لاشتراط المنازلة في التربية وإن لم يرَ لا يربي، وأشار بهذه الطوائف لأهل هذا الزمان باعتبار الفهم وظاهر الصور؛ إذ لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة.

وقوله: (مَا مِنْهُمْ..الخ) إشارة لما تقدم فوقه من الوجوه المطلوبة. وقوله: (اترك سبيلًا لم يزل متروكا) يعني عند أهل الحق، والله أعلم.

ثم قال رحمه الله:

(٤١٣) فَإِنْ غَدَا الأَمْرُ عَلَيكَ مُشْكَلا   وَشِئْتَ أَنْ تَعْلَمَهُ مُفَصَّلا
(٤١٤) فَسَوْفَ أُلْقِى لَكَ قَوْلَ حَاذِقِ   يَفْرُقُ بَينَ المُدَّعِي وَالصَّادِقِ
(٤١٥) قَوْلُ الفَقِيرِ: إِنَّنِي فَقِيرُ   فَللظُّهُورِ أَبَدًا يُشِيرُ

---

(١) في (أ): موجوده.

(٤١٦) وَبَسْطُهُ إِنْ كَانَ غَيْرَ عَارِفِ ... سَخَافَةٌ[1] لَيْسَتْ مِنَ المَعَارِفِ
(٤١٧) وَقَبْضُهُ وَلَيْسَ ذَا إِرَادَةْ ... فَهْوَ عَلَى غَيْرِ طَرِيقِ السَّادَةْ
(٤١٨) وَأَخْذُهُ مِمَّا بِأَيْدِي النَّاسِ ... دُونَ اضْطِرَارٍ فَهْوَ ذُو إِفْلاسِ
(٤١٩) وَلُبْسُهُ مَا كَانَ ذَا اشْتِهَارِ ... فَسِرُّهُ عَارٍ عَنِ الأَسْرَارِ
(٤٢٠) وَأَكْلُهُ مِنْ سَائِرِ المَآكِلِ ... دُونَ انْتِهَاءٍ فَهْوَ غَيْرُ وَاصِلِ
(٤٢١) وَسَمْعُهُ مُوَاقِعَ الأَلْحَانِ ... بِغَيْرِ مَوْتِ النَّفْسِ فَهْوَ عَانِ
(٤٢٢) وَحُبُّهُ السَّمَاعَ لا مَحَالَةْ ... بَقِيَّةٌ فِيهِ مِنَ البَطَالَةْ
(٤٢٣) وَرَقْصُهُ فِيهِ بِغَيْرِ وَارِدْ ... يَسْلُبُهُ عَنْهُ فَقِيرٌ وَارِدْ
(٤٢٤) وَأَخْذُهُ الخِلَعَ بَعْدَ الخَلْعِ ... بُعْدٌ عَنِ الجَمْعِ[2] بِعَيْنِ الجَمْعِ
(٤٢٥) وَحَطُّهُ الرَّأْسَ بِغَيْرِ جُرْمِ ... عَلَى أَخِيهِ غَيْرُ فِعْلِ القَوْمِ
(٤٢٦) وَقَدْ ذَكَرْنَا حُكْمَ الاسْتِغْفَارِ ... أَعْنِي القِيَامَ لَيْسَ عُرْفًا جَارِي
(٤٢٧) وَمَيْلُهُ لِلعُرْبِ وَالأَعَاجِمْ ... عِلَّةُ نَفْسٍ وَهْوَ فِيهِ آثِمْ
(٤٢٨) سَفَرُهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَيْهِ ... مِنْهُ فَلا حَقِيقَةٌ لَدَيْهِ

قلت: هذا الفصل من أهم ما ينبغي أن يعرف؛ ليعرف به حال المدعين، ويميز به حال الصادقين؛ فيأنف الصادق عن كل ما ذكر أن يتلبس به أو يغتر بمن يظهر عليه ولكن مع ذلك كله لا يفارق حسن الظن بمن يظهر عليه،لاحتمال حسن مقصده أو صحة أمره مع ابتلائه؛ فإن للاقتداء شرطًا ولحسن الظن وجهًا وأحدهما لا يسقطه الآخر، فافهم.

---

(١) وردت في شرح الشيخ زروق (مخافة) و لامعنى لها وما أثبتناه من أصل المتن موافق للسياق.

(٢) وردت في شرح الشيخ زروق بلفظ «الخق».

ورأس مال الفقير حسن ظنه بالله وعباده، ففي الخبر عنه صلى الله عليه وسلم تسليمًا أنه قال: «خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير حسن الظن بالله وحسن الظن بعباد الله»[1] الحديث. والمرء لا يخلو من عيب في جميع أحواله إلا من عصم الله سبحانه فانظر لغالب الأحوال لا لكل الأمور فإن من طلب الناس بغاية الكمال انقلب بكل الخيبة من كل من توجه إليه، ومن سامحهم في كل ما يصدر فقد خالف الحق في أمره، ومن طالبهم بالأصول وسامحهم في العثرات وجد راحة وسلامة، وهذا كله فيما عدا موجبات الأحكام الشرعية الثابتة بنصوص الأئمة، وبالله التوفيق.

ثم لنرجع لما نحن بصدده فنقول: أما (**قَوْلُ الفَقِيرِ: إِنَّنِي فَقِيرٌ**) فهو إشارة للظهور كما قالوا، و ذلك محمود ومذموم بحسب مقصده وهو على **ثلاثة أوجه**:

أحدها: أن يقصد به التبرؤ مما كان عليه من الجاهلية والغي ليكون عونًا له على عدم العودة لما كان عليه، وذلك أمر لا بأس به إن وقف على حده.

الثاني: أن يقول ليستنجد به من عسى أن يرجو قبوله من عاص متمرد أو متذكر أو ضعيف أو مريد متوجه ليكون له عونًا على البر والتقوى ويعتضد به في شأنه، فهذا أيضًا لا بأس به إن لم يتعد به محله.

وعلامة صاحب هذين الوجهين: أن يكون ذاك مع انكسار وانحسار، وتبرؤ واستغفار، وحمد الله تعالى واستبشارٍ بظنه منه فيه حقيقة قلبية، فافهم.

---

(١) لم أجده بلفظه ، ولكن روى الإمام أبو داود في سننه (٤٩٩٣): «حُسْنُ الظَّنِّ مِنْ حُسْنِ الْعِبَادَةِ». قال العظيم آبادي في «عون المعبود بشرح سنن ابي داود»: أي حسن الظن بالله وبعباده.

الثالث: أن يقول ذلك لقصد الحجج والاستتباع، وإظهار المزية، والتعزز بالنسبة والانتصاب وطلب الرياسة والشهرة وهذا لا يجوز ولا يصح الالتفات لصاحبه، **وعلامته في ذلك:** الاستظهار بالدعاوى، وإشاعة الأمر في العموم، والعرض لكل أحد والتعريض به. وشاهد الحال لا يخفى، وبالله التوفيق.

وأما (البَسْط) فالمراد به: الانبساط والاسترسال مع الناس في موجبات السرور فليس من شأن الفقير؛ لأن وقته كله حقيقة، والحقيقة تنافي الانبساط لاتصالها بالواردات، والوارد يأتي من حضره قاهر[1]، فلا يبقى لصاحبه محلًّا للاتساع.

ثم هو في ذلك على ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون ذلك لحالة غالبة لا يقدر على دفعها، وذلك من فراغه لأنه من الاستئناس بالناس، وذلك من علامات الإفلاس.

الثاني: أن يكون ذلك بقصد الإيلاف والاستئلاف دون سبب واقع يوجبه لوحشة قلبه، وهذا من تعلق القلب بالخلق وطلب استمالتهم، وذلك خلاف الحق فضلًا عن الحقيقة.

الثالث: أن يكون ذلك لقصد الاستجلاب للطريق ونحوه، وهو أمر لا يصح لبعد السبب عن مناسبة المسبب، ولأن المريد ليس له في هذا الباب مدخل لاقتصاره على نفسه وجوبًا، نعم..! قد يسوغ هٰذا للعارف المتمكن الذي تعطيه حقيقته ذلك ويكون دوامه فيه نقصًا؛ فإن البسط يجذب السالك إلى خلف، ويخرب على الواصل نظام كماله

(١) في (ب): قهار.

الأول، كما أشار إليه بعض المشايخ في وصية له، فافهم.

وأما (**القَبْض**) أي الانقباض والانكماش عن الناس، وعدم إظهار البشر، ونفي الانبساط بالكلية **فله وجوه ثلاثة:**

أحدها: أن يكون على حالة غالبةٍ هي تجلي الحقيقة الجامعة على الإرادة وأحكامها، فهذا خير كله، وصاحبه لا يملك نفسه دونه، ولا يحتاج إلى تعدٍ فيه، ولا يُعرف بين خلوة وجلوة، ولا بين موجب ونافٍ، فافهم.

الثاني: أن يكون بتعمد وقصد لكن لاستحباب الحقيقة، وطلب أنس النفس بالانكماش حتى لا تنبسط لما لا يعني، وهذا من قبيل المجاهدة إن سلم من دسيسة الاستهانة به والمراءاة والتصنع، **وعلامة صدقة في ذلك:** أنه إن وجد قلبه في مقابلة تركه ولابد له من اعتراضه، فافهم.

الثالث: أن يكون ذلك لا لقصد شيء من ذلك بل لقصد الاستمالة والاسترسال مع الناموس والتزيي بزي مخصوص، وصاحب هذه الحالة شيطان مريد أو جبار عنيد لكونه يتحيَّل على الناس أو يراهم لا شيء، **وعلامته في ذلك:** عدم التوقف عند ورود الأغراض النفسية والأعراض الدنياوية، وإن كان لا يستظهر بقبولها؛ فربَّ زهد قصد لكسب الجاه. وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: من ترك الأخذ من الناس لقصد الحمد من الناس فإنما يعبد نفسه والناس، وليس من الله في شيء. انتهى.

وأما (**أَخْذُهُ مِمَّا بِأَيْدِي النَّاسِ**) يعني أموالهم دون اضطرار **فهو على ثلاثة أوجه:**

أحدها: أن يكون على سبيل التكاثر، وهذا مذموم بأي وجه كان، وقد تقدم قبل هذا.

الثاني: أن يكون على سبيل النفع لغيره والانتفاع لنفسه في محل ضرورة أو حاجة، وهذا لا بأس به، وقد تقدم ما فيه.

الثالث: أن يكون ذلك بحكم الاسترسال مع الخواطر والاعتماد على أحواله وإشارات نفسه، وهذا إن كان بطريق المسألة فهو إجابة داعي النفس الخسيسة، وإن كان بطريق الآخرة فهو من باب الإذاية لغير قصد صحيح، وإن كان بطريق إظهار التصريف فقد جمع خصالًا مذمومة منها: ظهور الدعوى، وأكل أموال الناس بالباطل، [والاستظهار بالمزية][1]، والركون لما ثبت عند الخلق من منزلته. وقد قالوا: من أشار إلى الحق وتعلق بالخلق أحوجه الله إليهم ونزع الرحمة من قلوبهم عليه. نسأل الله العافية.

وأما لبس الشُهْرَات[2] من المرقعات ونحوها فلا يخلو من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يقصد كف الأذى عن نفسه دون زائد، وهذا لا بأس به.

الثاني: أن يقصد به الاستعانة على العفاف، والتزيي بزي أهل الصلاح من غير زائد، فهذا أيضًا لا بأس به إن سلم عن الدسائس، وقلَّ أن يسلم.

الثالث: أن يقصد المباهاة والظهور بالزي والتمييز بالخرقة واللباس، وهذا مذموم وهو الذي سرى لكثير من الناس حتى أفسد عليهم دينهم ودنياهم.

وعلامة الصادق في ذلك: أن لا يبالي بفقده، والكاذب إذا لبسه وجد أسبابه، وإذا فقده قامت عليه القيامة، فاعرف ذلك حقه.

---

(١) ليست في (ب).

(٢) أي المشهور من اللباس بين الناس.

وأما «اتساعه في المأكل» فعلى ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون ذلك جار له بحكم التصريف بحيث يكون على التجريد فلا يمكنه معارضة الوقت بالاختيار عند تحقق الإباحة وعدم العارض النفسي من شهوة أو شهرة، وهذا لا بأس به وقد كان بعض المشايخ لا يأكل إلا طيبًا ولا يلبس إلا طيبًا حسنًا، فقيل له في ذلك: فقال إن المنكر علينا أحد رجلين: فقيهٌ متعسف فنقول:والله أترى الله حرَّم هذا؟ فلا يجد ما يقول. أو فقير متقشف فنقول له: والله أترى لنا فيه اختيارًا؟ فلا يجد ما يقول.

الثاني: أن يكون بقصد الترفه دون كلفة ولا تكلف، وهذا من حيز الاستغراق في الشهوات المانع من التلذذ بالمناجاة والمنقصة لها. ولذلك قال بعضهم: يجعل أحدكم بينه وبين الله مخلاة من طعام ويريد أن يجد قلبه؟! أو كما قال.

الثالث: أن يكون مع تكلف وتعسف، وصاحبه خلي عن مدارك العرفان ولا خفاء فيه، ثم الواصل ليس له ذلك من حيث اختياره لكن من حيث ما يجريه الحق تعالى عليه من تسلط الطبيعة وظهور الفائدة والعدل عن التصرف كما تقدم.

وأما «السماع والاجتماع» فهو على ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون لحالة غالبة بقدرها، وهذا كالدواء لمن اضطر إليه، وعلامته: أن يأتيه على غير روية ولا قصد ولا توقف، ولا يمكن أحد التوصل إلى الإنكار عليه لأن الأحوال لا تعاند.

الثاني: أن يكون للغلبة ولكنه يستمر معه ويسترسل لطلبه حلاوته، وهذا لخلو

باطنه عن الحقائق لأن في تمكنها من قلبه[1] شغلًا له عن سواها، وفي لذتها نسيانًا لما عداها، وهذا هو المشار إليه بقوله: (وحُبُّه السَّماع..إلخ)، **وعلامته في ذلك**: وجود التأثر والتأثير من غير تمكن، وظهور الناس عليه بالاعتراض من غير توصل للحكم.

الثالث: أن يكون ذلك لا عن غلبة، وهو إما لاستئناس طبيعي، أو لاسترسال عادي، أو لتلاعب كان في النفس، أو لخبل في العقل، أو إخلال في الدين، وقلَّ أن يسلم صاحبه من الاعتراض والدوران مع الأغراض وهم الذين نبه عليهم في أول هذا الفصل. وبالجملة فالسماع من مواقف التهم، فالعمل به تعرض لها، والله أعلم.

وأما (الرقص) فعلى ثلاثة أوجه:

أحدها: رقص تلاعب؛ وهو الذي يكون صاحبه واعيًا نفسه، مالكًا جوارحه، غير مغلوب في حاله.

الثاني: رقص طبيعي؛ وهو تضطرب قواه من كثرة الحركة، وتضطرم فيه نار الطبيعة فتصعد بخاراته لدماغه وتنتشي في أعضائه حتى ربما غاب عن إحساسه، وذلك من جهله وغلبة الشيطان عليه، **وعلامته**: عدم الحقيقة والفهم في سماعه.

الثالث: رقصٌ صدر عن حقيقة، **وعلامة صاحبه**: أن تكون له حقيقة في حاله، وحرارة في باطنه، وسكون في جوارحه، وبرودة في طبيعته، **وعلامة صحة ذلك**: أن يؤثر فيه معنى المذكور دون ألحان ولا أوزان، ويكون المعنى الموجود فيه في القرآن والسنة أثر في نفسه، ويجد به قوة في علمه، فافهم.

---

(١) في (ب): من القلب.

وأما «**أخذه الخِلَعَ بعد خَلْعِها**» فهو من باب الرجوع في الهبة كما تقدم إن كانت له، ومن باب إيثار النفس إن كانت لغيره.

و«**حَطُّ الرَأْسِ**»: تقدم الكلام عليه، وكذا الاستغفار، وهذه الثلاثة ليست قلب الطريقة ولا من موجبات الحقيقة ولا من أحكام الشريعة فإن لها وجهًا من التأويل فتركها أولى، والتسليم للعامل بها لازم لمحل الاشتباه، والله أعلم.

وأما «**ميله للأشخاص**» فله نسبة إجمالية في عالم الأرواح والأشباح فلا يخلو من **ثلاثة أوجه:**

أحدها: أن يكون ذلك بجمال الأوصاف وكمالها، ككون المحبوب إنما وقعت محبته لما جبل عليه من كرم أو شجاعة أو حلم أو علم أو غير ذلك، وهذا إن تقيد بالدين أو جرى مطلقًا دون استهلاك ولا استهتار ولا على نفسانية متحققة أو متوهمة فلا بأس به، بل هو مطلوب لما ورد في ذلك من التغبيط ونحوه.

الثاني: أن يكون ذلك ممايصل عليه من المنافع الدينية كالشيخ والمعلم، والدنيوية كالطيب والمحسن ونحوه، فإن كان من حيث التوصل للأغراض والتوسل إليها فيذم ويحمد بحسبها وإن كان لا من حيث ذلك فهو ملحق بالأول، وخير من ذلك خلو النفس عنه إلا من حيث إنه مظهر من مظاهر الرحمة، ولذلك أمر بشكره على ما وصل من التحرر من رق إحسانه، فافهم.

الثالث: أن يكون لجمال الذات في نفسها إما من حيث الجملة، **وعلامته**: أن لا يجد في نفسه مستندًا ولا تأويلًا لحبه، وإما أن يكون لجمال الروحانية كرقة النفس واتصال الروح بالروح وعلامته وجود الارتياح بالذكر أكثر من اللقاء، وإما أن يكون لجمال

البشرية، فإن كان من حيث التوصل لشيء فيها فشهوة وإلا فنفث روحاني وصل لعالم الأجسام وكلها مدخولة معلولة بشغل القلب بمخلوق وإن سلمت من آفة المعصية، ولا يكون إثمًا إلا فيما فيه معنى من المعصية أو تمحن[1].

وبالجملة فالمريد يلزمه أن ينفي عن قلبه كل وجود سوى الحق تعالى وما هو من نسبته، فإن وجد غيره أو معنى من غيره فهو معلول، ولذلك عظم المشايخ أمر صحبة الأحداث ورأوا أن من بلي به فقد أهين. أعاذنا الله من البلاء بمنه وكرمه.

وأما (السَّفَر) فحاصله كله تفرقة وتشتيت إلا لثلاثة:

الأول[2]: رجل خرج فارًّا بدينه أو نفسه فانكساره جمع له، وإليه الإشارة في قصة موسى ﷺ بواقعته وترتيب الفتح عليها، وإن كان مقام النبوة لا يعلل إذ قال ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا ﴾ (الشعراء: ٢١) الآية.

الثاني: رجل خرج في طلب الحق والتحقيق إما لكون أرض لا تعينه على الثبات في التوبة «كالرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسا ثم تاب فقيل له اخرج من أرضك فإنها أرض سوء»[3] الحديث، ومن خرج في طلب شيخ ناصح أو أخ صالح يبصره بعيوبه ويدله على ربه كأهل الهجرة الإسلامية؛ إذ خرجوا لله ورسوله فذكرهما لا يفارقهما في حال من الأحوال. فافهم.

---

(١) أي لين وتكسر.

(٢) من عندنا لمناسبة الترتيب.

(٣) سبق تخريجه.

الثالث: رجل خرج في فرض عين أو كفاية لابد له منه كطلب العلم والجهاد الذي لابد له منه بعد تصحيح النية وتحقيق الحكم، ولكنه في هذه الحال يحتاج لنظر سديد وعمل شديد واستخارة صادقة واستشارة شرعية ثابتة، وقد تكلم على ذلك السهروردي في كتاب «عوارف المعارف» بعوارضه وأحكامه أتم كلام، وأشار إليه ابن عباد في رسائله الصغرى في مسألة الحج بما يطول ذكره، وبالله سبحانه التوفيق.

ثم قال رحمه الله:

(٤٢٩) وَإِنْ أَشَارَ لِلمَرَامِ الأَوَّلِ ... وَجَهِلَ العَقْلَ فَعَنْهُ فَاعْدِلِ
(٤٣٠) أَوْ قَالَ بِالطَّوْرِ وَالحُلُولِ ... فَبِدْعَةٌ تَقْدَحُ فِي الأُصُولِ
(٤٣١) وَقَوْلُهُ أَنَا الَّذِي أَهْوَاهُ ... قَبْلَ الفَنَا عَنْهُ فَمَا أَقْصَاهُ
(٤٣٢) أَوْ يَدَّعِي فِي عِلْمِهِ اللَدُنِّي ... بِلا تُقَىً فَذَاكَ غَيْرُ سُنِّي
(٤٣٣) وَحُكْمُهُ إِنْ كَانَ فَوْقَ الحَالِ ... فَذَاكَ مَقْطُوعٌ عَنِ الرِّجَالِ
(٤٣٤) أَوْ قَالَ: إِنِّي الشَّيْخُ فَاتْبَعُونِي ... بِغَيْرِ عِلْمٍ فَهُوَ ذُو جُنُونِ
(٤٣٥) أَوْ قَالَ: صُوفِيٌّ أَنَا وَلَمَّا ... يَعْلَمْ حُدُودَ النَّفْسِ فَهْوَ أَعْمَى
(٤٣٦) وَحُبُّهُ القَوْمَ بِلا اتِّبَاعِ ... لَيْسَ لَهُ فِيهِ مِنِ انْتِفَاعِ
(٤٣٧) وَفِعْلُهُ مَا فِي عُمُومِ الشَّرْعِ ... يَمْنَعُهُ النَّصُّ فَفِعْلٌ بِدْعِي
(٤٣٨) فَإِنْ تَشَيَّخَ بِغَيْرِ إِذْنِ ... مِنْ شَيْخِهِ بَاءَ بِكُلِّ غَبْنِ

قلت: أشار بـ(المَرَامِ الأَوَّلِ) تنبيهًا على من قال بقول الفلاسفة في اعتبار العقل الأول ويسمونه الفعال، وهو مذهب فاسد خارج عن حدود المعقولات؛ لما تضمنه من قدم العالم، والقول بحوادث لا أول لها، وإليه أشار بقوله (جهل العقل) يعني جهل حقيقته حتى سماه بغير اسمه وحكم له بغير حكمه.

وأما (القول بالحلول والظهور) فكفر أيضًا، وقد رُميَ به جماعة منهم الحلاج والشوذي وابن أحلا وابن قسي وابن ذو سكين والعفيف التلمساني والعجمي و الأيكي والأقطع والششتري وابن عربي الحاتمي وابن الفارض وابن سبعين في آخرين ذكرهم بذلك أبو حيان في كتابه «النهر من البحر»[1] عند قوله ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠) الآية قائلًا وممن قال بذلك جماعة انتموا إلى الصوفية وادُّعوا كذا بذكر الجماعة المذكورة.

وقد تقدم الجواب عنه، وأن الظن بهم البراءة مما رموا به ولكنهم ضاقت عليهم العبارة عن حقائق دقائق صريح العلم فأدت بظاهرها ما توسم وهم برآء منه، هذا معتقدنا فيهم وعند الله الموعد.

وأما «ادعاؤه الحب قبل الفناء» فلا يصح إلا بعد، وقد حكى أن بعض المريدين ادعى المحبة فقيل له: يا بني هل ابتلاك بغيره فآثرته عليه؟ قال: لا. قال: فلا إذًا. أو كلامًا هذا معناه، ثم لا يصح إطلاق العشق في حقه تعالى لا إن أضيف له ولا للمحب له تعالى أنه مجاوزة الحد في الحب، وحب العبد مولاه لا يبلغ أدنى جزء من حقه، والحق تعالى لا يوصف بالحدود حتى يصح مجاوزته لها، إلا أن يراد به الحب المطلق فيجري فيه ما في الاصطلاح العرفي، إذ أوهم الغير ولم يوهم أهله. وقد ذكر فيه شيخنا أبو العباس حلولو[2]

---

(١) «النهر الماد من البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥هـ، اختصر في تفسيره المسمى «البحر المحيط».

(٢) هو الإمام الفقيه المالكي احمد بن عبد الرحمن بن موسى بن عبد الحق الزليتني القيرواني التونسي الشهير ب (حلولو)، ولد بالقيروان سنة ٨١٥هـ، أخذ عن علماء أجلة أشهرهم الإمام البرزلي صاحب كتاب

ﷺ اختلافًا وعزاه للمُقْتَرح[1].

وأما (**ادعاؤه علوم المذهب بغير التزام التقوى ولا التعريج على شروط العبودية**) فإن ذلك ميل لمذهب الباطنية والفلاسفة، وكلا المذهبين بدعة وضلال، وذلك دليل اعتقاد الفرق بين الحق والحقيقة، وذلك باطل. وقد تقدم منه. وأما (**حكمه في الأمور وكلامه بما فوق حاله**) فإن ذلك قاطع له عما وراء مرتبته؛ إذ صار صاحب علم لا صاحب حقيقة. وقد تقدم الكلام عليه غير مرة.

وأما (**تشيخه بغير علم**) فهو مجنون لثلاثة أوجه:

أحدها: إغراء النفوس عليه فيما لا يقدر على الخلاص منه. **الثاني**: توريطه لأتباعه في أمر لا يطيق تخليصهم منه بل ولا خلاص نفسه. **الثالث**: انتصابه لما يصيِّره ضُحْكَةً

«جامع مسائل الأحكام» المتوفى سنة ٨٣٣هـ، والشيخ العلامة ابن ناجي القيرواني شارح الرسالة المتوفى سنة ٨٣٩هـ، قال عنه الامام السخاوي هو احد الأئمة الحافظين لفروع المذهب، من أشهر مؤلفاته «الضياء اللامع شرح جمع الجوامع»، «البيان والتكميل في شرح مختصر خليل»، و«مختصر نوازل البرزلي» وغيرها الكثير، توفي رحمه الله سنة ٨٩٨هـ.

(١) بالبناء للمجهول، لقب غلب على الإمام تقي الدين المظفر بن عبد الله بن علي بن الحسين، لحفظه واشتغاله وشرحه لكتاب (المقترح في المصطلح) للشيخ أبي منصور محمد بن محمد البروي الشافعي المتوفى سنة ٥٦٧ هـ. ولد الشيخ المقترح سنة ٥٢٦ ومات سنة ٦١٢. انظر الطالع السعيد ص ٤٢٥ حاشية ٣. وقال في الأعلام: فقيه شافعي مصرى، برع في أصول الدين والخلاف، تفقه في الاسكندرية، وولي التدريس بها في مدرسة السِّلفيِّ. وتوجه إلى مكة فأشيع أنه توفي وأخذت المدرسة، وعاد فأقام بجامع مصر يُقرئ إلى أن تُوفي.... وقال حاجى خليفة:. ومن كتبه «شرح الارشاد في أصول الدين» وهو جد القاضى ابن دقيق العيد لأمه. الأعلام: ٧/ ٢٥٦.

بين أقرانه وأترابه؛ إذ لابد للشيخ من علم صحيح وذوق صريح ولسان فصيح، أعني يفصح عن المقاصد بما أمكن وإن كان ناقص العبارة، فافهم.

وأما قوله (صُوْفِيٌّ أَنَا) قبل العلم بحدود النفس وبما يجري من أحكامها وحكمها ففي ذلك دليل على عمى بصيرته إذ ادعى ما ليس من أهله؛ الصوفي: من صفا، وصفا فكان صوفيًّا لكونه صفيًّا، وذلك دون معرفة النفس لا يصح. وقد تقدم تعريف الصوفي أول الكتاب، والله أعلم.

وأما «ادعاء المحبة دون اتباع» فهو مؤذن بالنقص لا بالنقض إذا حفظ أهل النسبة، فكل من أحب القوم وكان لا يصر على كبيرة فهو محب حقيقة وإن وقع في ذنب أو عيب يوم ما، ففي الخبر الصحيح «قيل يا رسول الله الرجل يحب القوم ولا يلحق بهم قال: أنت مع من أحببت»[1]. وفي الصحيح أيضًا «قال رجل متى الساعة يا رسول الله. قال: ما أعددت لها، قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله، قال: أنت مع من أحببت»[2] وقال عليه الصلاة والسلام: «للرجل الذي كان يؤتى به في الخمر كثيرًا لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»[3] فلم يخرجه وجود العصيان عن أهل المحبة وإن أخرجه عن كمالها. قال القائل:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه   هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقًا لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع

(١) أخرجه أبو داود (٥١٢٧)، وأحمد في المسند (١٣٨٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٨٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٨).

وقد قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٣١) الآية. فجعل صحة المحبة موقوفًا علىٰ مطلق الاتباع وجزاؤها بالمحبة كذلك وذلك مقيد بأصل الإيمان كما أشار إليه آخر الآية إذ قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٣٢)، فتدبر ذلك وتثبت فيه وبالله التوفيق.

وأما «**فعل ما لم يرد به الشرع**» فلا يخلو من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون على سبيل القربة، والقربة لائقة في خلافه كترك أذكار الصلوات الواردة لأذكار أُخر استنبطوها، وهذه بدعة صريحة إما حرام أو قريب من الحرام.

الثاني: أن يكون ذلك لا على سبيل القربة لكنه يدفع القربة أو يدافعها أو يشبهها أو يزاحمها أو يؤدي إلى اعتقاد ذلك ممن لا يعرف القصد بها، وهي أيضًا بدعة أو قريب منها كالسماع والاجتماع عند من لا يعرف حكمه ولا يعرج على ما فيه من الحكمة، وفي أوقات تضيع به أوراد وتنقص به عبادات أو حقوق؛ كتأخير صلاة الصبح آخر الوقت أو كونها مع كسل وتعب واشتغال، أو تغير قلب زوجة أو ولد بالغيبة عنه، أو إعانة مدع على دعواه، إلى غير ذلك.

الثالث: أن يكون ذلك على سبيل قربة ولا يدفعها ولا يزاحمها ولا يدعو إلى بدعة ولا يلم بها، وهذا إن كان عاديًا اعتبر قبحه وحسنه بالعادة لأنها معتبرة فيما لم يرد فيه شيء من الشريعة، وإن كان مقرونًا بشرعي بحيث يفهم أنه منه فبدعة إضافية، وإن جرَّ إلى شيء كان بحسبه؛ فالجار إلى محرم حرام وإلى مكروه مكروه، والسلامة في هذا كله أن لا تعمل إلا بما ورد شرعًا ترغيبه أو إباحته، وبالله التوفيق.

وأما «**التشيخ بغير إذن**» فصاحبه مغبون في دينه ودنياه؛ أما دينه فلدخوله مرتبة لم

يشهد له باستحقاقها، وأما دنياه فلأن من ادعى فوق مرتبته حط دون مرتبته، ومن وقف دون مرتبته رفع فوق مرتبته، ومن تمسك بمرتبته نُوزِع فيها. ومذهب القوم الفرار من التقدم رأسًا فكيف بمثل هذا، وقد عدوه من الطلب والفضول، وفي معنى ذلك قيل: الكلب أحسن حالة وهو نهاية في الخساسة ممن تصدى للرئاسة قبل إبان الرئاسة وذلك لأن الكلب مستريح، وهذا متعوب مسبوب، نسأل الله العافية.

ثم بين المؤلف رحمه الله كل ما ذُكر من عوارض الطريق، وآفات المريد التي يخشى عليه منها فقال رحمه الله:

(٤٣٩) فَهَـذِهِ وَشِـبْهُهَا مَوَانِـع ... وَهِـي عَـنْ الطَّرِيـقِ كَالقَوَاطِـع
(٤٤٠) هَـلْ هِـي إِلَّا عِلَـلٌ فِي الفَقْـرِ ... جَالَدَهَـا كُلُّ جَلِيـدٍ صَقْـرِ
(٤٤١) حَتَّـى إِذا جَدَّلَهَـا صَرِيعَـة ... لَمْ يَتَوَقَّـعَ بَعْدَهَـا وَقِيعَـة

قلت: يعني أن كل ما ذكره من قوله: «قول الفقير إني فقير» إلى هنا من الآفات التي تعرض للمريدين في طريقتهم تارة بوجه واضح، وتارة بوجه خفي لا يدركه إلا بصير حاذق ولا تستفزه الأهواء ولا تغيره العوارض ولن يطيق ذلك إلا بثلاثة:

أولها: لزوم ظواهر الشرع في الأعمال، والرجوع إليه في العلوم وكل ما لا يصح معها يرده علمًا كان أو عملًا؛ لأن ما لا يصح في عالم الملك لا يصح ثبوته في عالم الملكوت، فإن الحق لا ينفي الحق بل يؤيده للطريق حق عقد بحقيقة، فمن فهم واحدًا منها مجردًا عن الآخر في باب المعاملات والعلوم زلت به قدمه.

الثاني: التزام المبادئ في العقائد والحقائق لأنها لا تختلف ولا تتخلف أحكامها إلا بزيغ في أصولها، فمن عقد في النهاية ما لم يعرف عنه أصلًا في البداية فقد حاد عن

الحق المبين لأن المعبود أولًا وآخرًا، والمعروف واحد وإن اتسعت وجوه المعرفة وتعددت أنواع التعريف، فاعرف ذلك عالمًا أن أكثر الطوائف منتصبين لهذا الطريق وخارجين عنه بعدم التحقيق، وكذلك قال الشيخ محيي الدين وهو كلام حق وتحقيق، وبالله التوفيق.

الثالث: ترك التأويل والعلل في الأمور زيادةً ونقصانًا وترخصًا وغيرةً؛ فللتشديد آفة أعظم مما للرخصة، والرخصة تبعد عن الحق، والكل في بساط التأويل الناشيء عن الهوى، فتثبت في المقصود واعمل على المقصود تصب إن شاء الله.

قال في «الحكم»: لا يخاف عليك إن تلبَّس الطريق عليك وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك. قال أحمد بن خضروية ﵁: الطريق واضح والدليل لائح، والداعي قد أسمع فما التحير بعد هذا إلا من العمى.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﵁: عمى البصيرة في ثلاثة أشياء: إرسال الجوارح في معاصي الله، والتصنع بطاعة الله، والطمع في غير الله، فمن ادعى البصيرة مع واحدة من هذه فقلبه هدف لظنون النفس ووسواس الشيطان. انتهى، وهو عجيب.

وقوله (**جالدها**) أي قاتلها، و(**الجليد**): الصابر، و(**الصقر**) استعارة للمُشَمِّر الحاذق من الصقر الذي هو الطائر المعروف، ومعنى (**جلدها**): قطعها، و(**صيرها مجدلة**) أي ملقاة صريعة بحيث لم يبق لها وجود في وجوده من حيث هي أمن من الأهوال، والله أعلم.

ثم قال ﵀:

(٤٤٢) يَـا صَـاحِ لا يَفْتِنْـكَ الزَّمَـانُ ... فَهَـا لَدَيْـكَ الـشَّرْحُ وَالبَيَـانُ
(٤٤٣) فَالحَـقُّ لا يُعْـرَفُ بالرِّجَـالِ ... وَالعَـيْنُ لا تَصْلُـحُ بالمُحَـالِ
(٤٤٤) وَالحَـقُّ فِي كُلِّ الأُمُـورِ أَوْلَى ... لَـوْ رَامَـهُ البَاطِـلُ لاضْمَحَـلَّا
(٤٤٥) وَإِذْ عَلِمَـتَ سَـنَنَ الأَقْـوَامِ ... فَهَـا لَدَيْـكَ القَـوْسُ وَالمَرَامِـي

قلت: أشار بالبيت الأول إلى أنه بيَّنَ حال الزمان حتى لا يقع لأحد فيه افتتان إذ قد شرح حال أهله وبينه، ثم نبه على ما يزعمه أهل التلبس والاغترار من أن هذا الطريق لا يدخله العلم ولا يعرف به وإنما هو مأخوذ من صدور الرجال حتى لا يعرج على علمه، فقد قيل: من عرف الحق بالرجال فقد أصبح في غاية الضلال، اعرف الحق تعرف أهله.

وقال الإمام علي كرم الله وجهه ورضي عنه: لو عرفت الله بمحمد ما عبدته ولكن الله عرفني بنفسه فعرفته ثم عرفت محمدًا صلى الله عليه وسلم تسليمًا. فانظر هذا المقام الذي لم يحجبه عن الله ولا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا وحُقَّ له ذلك.

وقوله: (**والعين لا تصح**[1] **للمحال**) يعني أن ما عرفته في معدِّ العيان، وما تشاهده من أحوال الناس معروف بذاته، فلا تغالط نفسك فما ضلَّ أحد في اتباع أحد إلا بمغالطة نفسه وعزلها قبل معرفة الحق لا بعده.

وقوله: (**والحق في كل الأمور أولى**) أشار به إلى أن البرهان يعصم، وحرمة الدين أعظم من حرمة المنتسبين خلافًا لمن يعكس وهم عوام المعتقدين، وقد قال رجل لسهل بن عبد الله ﷺ: من أين تأكل؟ قال: من عند الله، قال: أينزله عليك من السماء؟ قال: لو لم تكن الأرض له. قال: أنتم لا يقوم لكم أحد بحجة. قال: الحق لا يقوم له شيء.

(١) المذكور في الأبيات: تصلح.

وقوله: (وإذا علمت..الخ) السَّنن -بالفتح-: الطريق. وقد تقدم. وقوله: (القوس والمرام) القوس: أشار للعلم، ومرامه: ما يدل عليه من إبطال باطل وتحقيق حق، وبالله سبحانه التوفيق.

ثم ختم الكتاب بالحصر والأخبار والدعاء والتصلية(1) والحمد لله فقال رحمه الله:

(٤٤٦) هَـذَا هُـوَ الطَّرِيـقُ فَاقْصِدْ جُلَّهُ فَقَـدْ جَعَلْنَـا لَـكَ مِنْـهُ جُمْلَـهُ
(٤٤٧) وَقَـدْ ذَكَرْنَـا كُلَّ مَـا اشْـتَرَطْنَا وَهَـا عَـلَى آخِـرِهِ أَتَيْنَـا
(٤٤٨) وَفَّقَنَـا اللهُ إِلَى التَّوْفِيـقِ وَقَادَنَـا لِقَـادَةِ التَّحْقِيـقِ
(٤٤٩) وَبَعْـدَ هَـذَا فَصَـلاةُ اللهِ تَـتْرَى عَـلَى الهَـادِي العَظِيـمِ الجَـاهِ
(٤٥٠) مَـا غَـرَّدَتْ وَرْقَـاءُ فِي الأَغْصَـانِ وَحَـنَّ مُشْـتَاقٌ إِلَى الأَوْطَـانِ
(٤٥١) وَالحَمْـدُ للهِ الَّـذِي خَتَمْنَـا بِحَمْـدِهِ كَـمَا بِـهِ بَدَأْنَـا

قلت: الإشارة بهذا لكل ما وصفه في الكتاب. و(اقصد جله) بمعنى مقاصده لأن (الجل): ما كثر فكان عنده تبعًا له، والذي اشترطه الفصول الخمسة: فصل الأصل، وفصل الفضل، وفصل الحكم، وفصل الرد، وفصل التنبيه على الحوادث، فجزاه الله ألف خير بما أفاد ونفع ونفعنا الله بما أودع، وفي معنى ذلك قيل:

جزى الله الرجال جزاء خير في كل ما أظهروه لنا وأبدوا
لقد عظمت فضائله علينا بالمؤمنين هدوا وأهدوا

و(قادة الحق) طريقه. و(التوفيق): توجه الإعانة على ما هو مطلوب شرعًا، وللناس عليه عبارات كثيرة في علم الكلام. وقوله: (العظيم الجاه) أشار به إلى حديث

(١) أي الصلاة على النبي ﷺ.

يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم تسليمًا أنه قال: «توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم». وفي الخبر مكتوب تحت ساق العرش: «من اشتاق إلى رحمتي رحمته ومن سألني أعطيته ومن سألني بالنبي صلى الله عليه وسلم تسليما أحببته».

اللهم إنا نتوسل إليك بجاهه الكريم العظيم عندك أن تحملنا محملًا سهلًا حيث توجهنا، ووفقنا لما تحبه وترضاه في بقية أعمارنا، واصحبنا فيها بسعة الأخلاق وسعة الأرزاق والرضا منك والإقبال عليك بلا علة من نفوسنا مع العافية الدائمة والموت على الكتاب والسنة والجماعة، وكلمة الشهادة على تحقيقها من غير تبديل ولا تغيير، واغفر لنا ما ارتكبنا في هذا الكتاب وفي غيره مما أنت أعلم يا رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته وأهل بيته وسلم تسليمًا(١).

وافق فراغ نسخ هذا الشرح المبارك بحمد الله وحسن عونه
عند صلاة ظهر يوم السبت من أوائل شهر شوال سنة١١٤٩
عرفنا الله خيره وخير ما بعده ووقانا شره وشر ما بعده
بجاه سيد المرسلين وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين
والحمد لله رب العالمين

(١) ختام النسخة (ب):وفرغ من نسخه يوم الأربعاء، بعد العصر خامس خمس وعشرين خلون من شهر الله صفر الخير سنة اثنين وثمانين ومائة وألف، غفر الله للكاتب والقارئ والمالك آمين ، ولوالدي الجميع ومشايخهم ولجميع المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات ، بجاه سيدنا ومولانا محمد عين الوجود وسر الأعيان، وبجاه جميع الأنبياء والمرسلين عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام ، وبجاه الخلفاء الأربعة وسائر الصحابة أجمعين، وبجاه العلماء الراسخين العاملين والأولياء الصالحين آمين يا رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى على سيدنا محمد وسلم.

فهرس المحتويات

مقدمة المحقق..٥

متن المباحث الأصلية...............................٥

شروح المباحث الأصلية...............................٧

وصف نسخ الكتاب....................................٨

شرح الشيخ زروق على المباحث........................٩

ترجمة ابن البنا السرقسطي...........................١١

فصول في ترجمة الشيخ زروق..........................١٢

صور مخطوطات الكتاب................................١٩

متن المباحث الأصلية للشيخ ابن البنا السرقسطي.........٢٣

مقدمة..٢٤

الفصل الأول:في أصله.................................٢٦

الفصل الثاني :في فضله...............................٢٩

الفصل الثالث:في أحكامه وهي تسعة.....................٣٢

الأول: في حكم الشيخ والمشيخة ومعنى التربية.............٣٢

الثاني: في حكم الاجتماع.......................................٣٣
الثالث: في حكم اللباس.......................................٣٤
الرابع: في حكم الأكل.......................................٣٤
الخامس: فيما يلزمهم من الآداب عند الاجتماع...................٣٥
السادس: في حكم السماع.......................................٣٦
السابع: في حكم السفر والقدوم على المشايخ والإخوان..................٣٩
الثامن: في حكم السؤال.......................................٤٠
التاسع: في حكم المريد ومعنى الإرادة...........................٤١
الفصل الرابع: في الرد على من رده وليس يدري شأنه وقصده..................٤٤
الفصل الخامس في فقراء العصر ومتشبهة الوقت..........................٤٩
خاتمة.......................................٥٣
اللوائح الفاسية في شرح المباحث الأصلية للشيخ أحمد زروق..................٥٥
مقدمة الشارح.......................................٥٧
في الكلام على البسملة والحمدلة.......................................٥٨
الفصل الأول : في بيان أصل مذهب الصوفية وما يدور عليه..................٧١
الفصل الثاني: في فضل علم التصوف.......................................٩٩
الفصل الثالث:في أحكامه وهي تسعة.......................................١٢٣

الأول: في حكم الشيخ والمشيخة ومعنى الشيخ........... ١٢٥
الثاني: في حكم اجتماع المريدين مع الشيخ........... ١٤٣
الثالث: في حكم اللباس........... ١٥١
الرابع: في حكم الأكل........... ١٥٥
الخامس: فيما يلزمهم من الآداب عند الاجتماع........... ١٧٨
السادس: في حكم السماع........... ١٩٤
السابع: في حكم السفر والقدوم على المشايخ والإخوان........... ٢١٢
الثامن: في حكم السؤال........... ٢١٩
التاسع: في حكم المريد ومعنى الإرادةوفائدة الشيخ وتدريجه للمريد........... ٢٢٦
الفصل الرابع: في الرد على من رده وليس يدري شأنه وقصده........... ٢٥١
الفصل الخامس في فقراء العصر ومتشبهة الوقت........... ٢٧٥
خاتمة........... ٣١١
فهرس المحتويات........... ٣١٣

تم بحمد الله

هذه هي الطبعة الأولى لواحد من أجل كتب محتسب الصوفية العالم الشيخ أحمد زروق شرح به المتن الشهير المعروف بالمباحث الأصلية لابن البنا السرقسطي. ولجلالة هذا الشرح اعتمد عليه أبو العباس بن عجيبة اعتماداً كبيراً في شرحه. وبما أودعه فيه الشيخ زروق من علوم التصوف خاصة والشريعة عامة فهو كتاب لا يستغني عنه كلا السالك والعالم. ونفخر بأن تكون دار الإحسان هي السابقة إلى وضعه بين يدي القراء. والحمد لله رب العالمين

دار الإحسان